ميرنا المهدي

قنبلة للاستخدام الشخصي

رواية





أعمال ميرنا المهدي
الصادرة عن دار الكرمة

قنبلة للاستخدام الشخصي

دليل جدتي لقتل الأوغاد

صديقي السيكوباتي

جاز وروك - قائمة أغاني السفاح المثالي

قضية ست الحسن - تحقيقات نوح الألفي ١

قضية لُوزمُر - تحقيقات نوح الألفي ٢

قضية عنب الثعلب - تحقيقات نوح الألفي ٣

ميرنا المهدي







alkarmabooks.com
facebook.com/alkarmabooks
x.com/alkarmabooks
instagram.com/alkarmabooks

الطبعة الأولى ٢٠٢٥

هذا عمل أدبي خيالي. جميع الأسماء والشخصيات والأماكن والأحداث الواردة فيه هي من نسج خيال المؤلفة أو مستخدمة بشكل فني خيالي، ويجب عدم تفسيرها على أنها حقيقية. وأي تشابه مع أحداث أو أماكن أو منظمات فعلية أو أشخاص، أحياء أو أموات، فهو من قبيل المصادفة.

المهدي، ميرنا.
قبلة للاستخدام الشخصي: رواية / ميرنا المهدي - القاهرة: الكرمة للنشر، ٢٠٢٥.
٤٣٢ ص؛ ٢٠ سم.
تدمك: 9789779603339
١- القصص العربية.
أ- العنوان.
رقم الإيداع بدار الكتب المصرية: ١٧٢٦ / ٢٠٢٥

تصميم الغلاف: أحمد عاطف مجاهد

المحتويات

تنويه

هذه الرواية تتناول أحداث النكبة والحرب العالمية الثانية، مما يجعلها تشتمل على مشاهد قد تكون عنيفة وصادمة للبعض.
على الرغم من أن أغلبية الأحداث والأماكن المذكورة في هذه الرواية مقتبسة من وقائع تاريخية، فإنه لا يجوز التعامل مع هذا العمل على أنه مرجع تاريخي.

إهداء

إلى زيتون فلسطين وبرتقالها
وإلى رمان أرمنيا وكرزها

رسالة

عزيزي القارئ

بدأتُ في أغسطس ٢٠٢٣ التحضير لرواية من المفترض أن تكون أول تجربة جاسوسية لي، وليست رواية ألغاز كأغلب أعمالي، ثم جاءت أحداث السابع من أكتوبر ٢٠٢٣. آلمتني تلك الأحداث، وألهمتني وهيمنت على كياني. لم أعد قادرة على التفكير في روايتي بأي شكل، التي كان من المفترض أن تتناول تاريخ العملية نمسيس الأرمنية في عشرينيات القرن الماضي، بل تركت تخطيطي للرواية تمامًا، ووجدت نفسي لا أفعل شيئًا سوى القراءة والتعرُّف على تاريخ فلسطين منذ الحرب العالمية الأولى وحتى نكبة ١٩٤٨.

أمضيت الشهور أشاهد الوثائقيات والأفلام التسجيلية والسينمائية الفلسطينية، أقرأ عن تاريخها وسياستها واقتصادها وفلكلورها وعاداتها، وأحضر الندوات الثقافية ومعارض الفن والصور والوثائق والطعام، وأتواصل مع أهل فلسطين من خلالها.

تعمقت في الأدب الفلسطيني، قرأت للعظيم إبراهيم نصر الله الذي أدين له الآن بالكثير من الفهم والوعي عن القضية من خلال أدبه الراقي، وكذلك للجليلة الدكتورة رضوى عاشور من خلال درة أدبنا المعاصر التي أبكتني ليالي «الطنطورية»، كما اختتمت جميع أعمال شهيد الكلمة غسان كنفاني بعد أن وقعت في غرام حروفه الأبية.

هكذا وقد انصب شغفي وكلماتي وأفكاري كلها صوب تلك القضية الشريفة، قررت أن أتمسك بدوري كإنسانة منَّ الله عليها بموهبة الكتابة، ورزقني قبول القرَّاء ومحبتهم، فجاء قراري بأن أنقل ما تعلمته إلى قرَّائي الأعزاء، خصوصًا اليافعين منهم، ليس من خلال عمل تاريخي أو توثيقي كأعمال العمالقة السابق ذكرهم الذين أثروا كثيرًا في ثقافتي، بل من خلال اللون الأدبي الذي أخلص له، وأرى أنه

قادر على التعبير عن أي قضية وأي شعور إنساني بطريقة تثير العقل، وتستفز التفكير.

لذلك، كتبت رواية جاسوسية تشويقية تدور أحداثها في فترة النكبة، لأنني أُومن بالمقاومة وبحق أصحاب الأرض. أومن بأن الأدب بمختلف ألوانه قادر على الهيمنة على القلوب وتغذية العقول. وإن كان هذا العمل سيسهم في إثارة عقل قرّائه ودفعهم إلى التعمق في البحث عن القضايا المذكورة فيه، سأكون قد أديت رسالتي على أكمل وجه.

يمكنكم الاطلاع على المصادر التاريخية والأكاديمية التي استعنت بها في كتابة هذا العمل من خلال رابط لها في نهاية الكتاب، وإن وددتم قراءة أعمال أدبية توثيقية شديدة الإنسانية عن القضية - لا تقع ضمن فئة الجاسوسية والتشويق - فأرشح لكم بشدة جميع أعمال الأساتذة العظماء: غسان كنفاني، وإبراهيم نصر الله، و«الطنطورية» لرضوى عاشور.

حرر الله فلسطين وأعادها إلى أصحابها.

ميرنا

١٨ أغسطس ٢٠٢٤

القدس

نيسان ١٩٤٨

١
شقائق نعمان القدس

في الساعة الأخيرة من عمره، لم يشغل بال إلياس خليل المقدسي إلا تاريخ مطعم حنون القدس.

ككل سكان المدينة، يعلم أن مالكه الأصلي فلاح فلسطيني، انتقل من الجليل إلى القدس ليبنيه مع زوجته من جرمق جبلي، تفوح منه رائحة الزعتر البري الذي نما على سفح الجبل الذي جُلبت منه حجارة هذا المطعم، لكن مع بداية الانتداب الإنجليزي، استولى عليه جنرال أشقر متعجرف، ونقل اسمه من اللهجة الفلسطينية إلى الإنجليزية ليصبح شقائق نعمان القدس.

والآن، لا يعلم غير الرب ماذا سيُسميه الصهيوني البولندي الذي اشتراه من الإنجليز بعد إعلان التقسيم.

ما يغضب إلياس في أثناء جلوسه في المطعم الآن، أن سارقه الجديد لم يكتفِ بوضع يده عليه كما فعل الجنرال الإنجليزي من قبله، بل شوّه هويته تمامًا. غيّر تصميم خداديات المقاعد التي كانت يومًا مزينة بتطريزة الجليل الفلاحي المبهجة، واستبدل خشبًا قاتمًا لا روح فيه بالأرائك التي كانت مُطعمة بالصدف العكاوي.

لم يتوقف التشويه عند الديكور، فقد استبدل أيضًا فرقة جاز عبرية بالتخت الشرقي الذي كان يطرب القلوب ويعطي مساحة للمستمع، ليدندن بالعلياي والأوف والعتابا والميجانا وهو يؤرجل.

على الرغم من نفور إلياس من تغييرات شوّهت ذكريات عائلته، التي كانت تتغدى كل أحد في هذا المطعم العريق، فإن تدني ذوق المستوطن خدم خطته بمثالية. فلولا أن الأرائك مستطيلة من خشب داكن معتم كالتابوت، لما استطاع أن يزرع فيها قنبلته، ولولا أن الفرقة العبرية تعزف ضوضاء عالية، لما كان نشازها تغطية

ممتازة لصوت تكتكة مؤقت القنبلة التي يحيط بها ما لا يقل عن أربعين عضوًا من عصابتَي الإرجون وشتيرن، محتفلين بنجاح مذبحة ارتكبوها في قرية صغيرة منذ بضعة أيام.

بتر تأمله صوت فتح الباب مرتطمًا بالجرس المعلق أعلى إفريزه لينبه مضيف المطعم بدخول ضيف جديد.

انتبه المضيف الأشقر ذو العينين الزرقاوين الذي استقبل أفراد العصابتين المسلحتين بتوكسيدو بيضاء ناصعة، وبابتسامة مرحبة تكشف عن غمازتيه.

نظر إلياس عبر زجاج المطعم، حيث يقف في الشارع رجل خمسيني أسمر، يستند إلى الحائط بجوار الباب، يعدِّل قبعة الفيدورا فوق شعره المثبت بالفازلين، ويأكل كعكًا بالسمسم.

على بُعد مترين منه، سيارة أجرة سائقها أربعيني مُلتحٍ، شعره أسود كثيف، يرتدي دبلة فضية في يده اليسرى، يجاورها خاتم ذهبي صغير في بنصره، ويتناول لوح شوكولاتة وهو يقلب نظره تارة بين مرآتيه الجانبية والخلفية لتأمل الطريق، وتارة أخرى نحو مدخل المطعم وواجهته الزجاجية.

نظر إلياس إلى ساعته الذهبية المتدلية من سترةِ بدلته الروزا المجدلاوية الأنيقة.

باقٍ من عمره خمس وخمسون دقيقة.

سمع جرس الباب ثانية.

عبرت منه شابة في أواخر عشرينياتها، ترتدي ثوبًا أحمر يزيد من توهج شعرها الأصهب ووردية وجنتيها.

سألها المضيف بالعبرية:

- الحجز باسم مَن يا سيدتي؟

- الآنسة روث شوارتز.

- أرى أن الحجز لفردين، أتنتظرين أحد أفراد الإرجون أو شتيرن؟

- لا دخل لي بهؤلاء. ضيفي على وشك الوصول.

- أعتذر إليك آنستي، لكن المطعم محجوز حصريًّا لأعضاء شتيرن والإرجون.
- المعذرة؟
- آنستي إن المطعم...
- القائد أفراهام لينمان هو الذي أعد هذا الحجز مع مالك المطعم مباشرة. ستقودني إلى طاولتي أم تود أن تخسر وظيفتك أيها الثرثار؟
انفرجت أسارير وجه المضيف الذي يبدو لروث أن عمره لم يتجاوز العشرين بعد، وقال بابتسامة واسعة:
- أنتِ في رفقة القائد لينمان، إذن! أعتذر إليك بالطبع. تفضلي.
قادها إلى الطاولة المجاورة لإلياس، فجلست وهي ترمق المضيف بضيق، حتى تركها وعاد إلى مكتبه.
تلفتت حولها وهي تلقي نظرها على كل زاوية في المطعم، حتى وقع نظرها على إلياس.
لم تعِره كثيرًا من الانتباه، تفقدت وسامته بلامبالاة كما تفقدت بابَي الدخول الأمامي والخروج الخلفي وأعضاء الفرقة، أما هو، فلن يخادع نفسه، استغرق في النظر إلى عينيها الزرقاوين الكحيلتين، وغمش وجهها دقيق الملامح، وعقد اللؤلؤ الذي يزين عنقها الناعمة.
انتبه لنفسه فتوقف عن التغزل في حسنها الأوروبي، فلا داعي إلى التشتيت.
نظر مجددًا عبر باب المطعم الزجاجي، الأسمر الخمسيني انتهى من الكعك وانشغل بإشعال غليون يدخنه، وسائق الأجرة يعيد تغليف قالب الشوكولاتة، ويضعه في جيب قميصه الأبيض.
أشعل إلياس سيجارته، وكاد يطلب مشروبًا من النادل، لكن لفت نظره أن حسناءه ذات الشعر الأحمر تقرأ كتابًا. ليس أي كتاب، إنه نوفيلا «قلب الظلمات» لجوزيف كونراد، وليست أي نسخة منها، يعرف هذه النسخة الشخصية بتغليفها الجلدي الأخضر وبعنوانها الإنجليزي الملون بالذهبي.

يعلم أن صفحة عنوانها مختومة بختم أزرق يحمل اسم صاحبها، ويحفظ الإهداء المكتوب عليها، ويعرف أن الجزء السفلي من صفحتها الأخيرة مثني.

الآن من المستحيل أن ينزل عينيه عنها، ظل يحدق إليها حتى انتبهت له.

تركت الكتاب على الطاولة، ووضعت سيجارة في مبسمها الأسود الطويل، وبدأت تدخنها وهي الأخرى تنظر إليه نظرات حادة تستنكر تحديقه الوقح إليها.

استمرت مسابقة التحديق تلك من دون أن يتبادلا كلمة واحدة، حتى رن جرس الباب مجددًا، فالتفت كلاهما لتبيُّن الضيف الجديد.

كان ضيفًا بدينًا مترهلاً يرتدي طربوشًا أحمر فاقعًا وبدلة كحلية، وعلى صدره دبوس ماسي على هيئة رمانة.

سأله المضيف عن اسم الحجز فأجابه، وقد تقطعت أنفاسه مسافة الخطوات المعدودة التي سارها من سيارته وحتى باب المطعم، فتخضبت وجنتاه البضتان بالمزيد من الحمرة:

- الآنسة روث شفارتز.

نطقه حرف الواو فاءً جعل المضيف يحييه بالتركية، وكاد يخبره بأن الآنسة روث في انتظاره، لكنها سبقته بأن رفعت ذراعها تشير إليه لينضم إليها.

اقترب منها وقد انفرجت أسارير وجهه وهو يتأمل مفاتنها، ويقول بالألمانية:

- آه، الآنسة شفارتز، أخيرًا التقينا. أهلاً بكِ في القدس!

قبّل يدها قُبلة شبقة، ثم جلس قبالتها يسألها وهو يتفرس وجهها:

- لماذا غيرتِ الميعاد من السبت إلى الليلة؟ انتظري، دعيني أخمن. لأنكم يوم السبت لا تعملون، مضبوط؟

- أعرفت أنني يهودية من كُنيتي؟

- بل من أنفك! إنها السمة التي تفضحكم.

ابتسمت مستهزئة من تفكيره العنصري، ثم ألقت نظرة أخيرة على إلياس الذي ما زال يتأرجح نظره بينها وبين ما يدور في الشارع وبين ساعته.

باقٍ من عمره خمس وأربعون دقيقة.

أشار التركي إلى النادل وهو يصيح بعجرفة:

- يا ولد! نبيذي! سأسقيك أطيب نبيذ يا آنسة روث.

أتى النادل بنصف زجاجة خضراء، صب منها كأسين، ثم ترك الزجاجة وابتعد عن الطاولة.

نظرت روث إلى الكأس فالزجاجة. اشتمت النبيذ، ثم سألت التركي:

- مراد باشا، أهذا نبيذ الرمان؟

- نعم، إنه من مدينتي، ماردين. ألن تجربيه؟

- لِمَ لا ننهي ما أتينا من أجله أولاً؟

- لقد أوضحت لكِ كل شيء في مراسلاتنا. والآن دورك لتقترحي سعرًا يليق بممتلكاتي على أن يكون اتفاقنا في سرية تامة.

- ألا يستسيغ الباب العالي أن يتاجر اليهود معكم في فلسطين؟

- أنا لا أبيع ممتلكات الإمبراطورية العثمانية، هذه مسألة شخصية أود إتمامها في أسرع وقت.

- ولِمَ العجلة يا باشا؟ أنت تملك تلك الأراضي منذ عقود.

نهض أحد الجنود المسلحين، وسار بخطوات مترنحة حتى الفرقة وهو يغني، ويطالبهم بعزف نشيد شتيرن:

- حياليم ألمونيم! اعزفوا حياليم ألمونيم!

أذعنت له الفرقة، وأخذ الجميع يرقصون وينشدون تلك القصيدة الحربية التي اتخذوها نشيدًا وشعارًا.

زفر مراد باشا بأسى، وارتشف النبيذ على دفعة واحدة، ثم قال لروث وهو يعيد ملء كأسه:

- فلسطين لم تَعُد مناسبة للاستثمار. هؤلاء السُّكارى المسلحون

حولنا خير دليل.
- وماذا ستفعل بعد بيع ممتلكاتك هنا؟
- سأشتري مزيدًا من الأراضي والعقارات في ماردين.
- ماذا لو كنتُ مهتمة بشراء عقار من عقاراتك في ماردين وليس في يافا؟
- لكن خطاباتكِ كانت تقول إن...
- ماذا عن الدار رقم أربعة؟ بحديقتها خمس شجرات رمان وبابها مطلي بالأحمر الداكن، ولها نوافذ من الفورفوجيه الأسود وشرفتها تطل على الأناضول، صحيح؟
- هذه داري!
- ليست دارك يا مراد باشا. هذه دار الملحن الأرمني ألبون برطميان. ألا تذكر ألبون وميريام وابنتيهما؟
لأول مرة، توقف إلياس عن النظر إلى روث بغضب، بل بذعر.
أطفأت سيجارتها، وأخذت تعدل قفازيها الحريريين، بينما ابتسم مراد باشا مستهزئًا، ثم تنهد وقال:
- تقربين لألبون؟
- أنا ابنته.
- ألبون لم ينجب سوى بنتين. آرين ماتت، وكيغانوش عمرها تخطَّى الأربعين... مَن تكونين أيتها الشابة؟
- نايري. الرضيعة الأرمنية التي نجت من مدينة أمرت جنودك بنهبها وقتل مَن فيها.
- هذا يعني أنكِ حية بفضلي! أنا الذي عفا عن كيغانوش وتركها تفر بكِ وبابنها.
- دفْعها إلى مسيرة الموت كان عفوًا؟ كانت ترضعني على كتفها اليمنى، وتحمل جثة رضيعها على كتفها اليسرى بعد أن فتكت به شمس صحراء سوريا، ورجالك لم يسمحوا لها حتى أن تتوقف لدفنه.

- وفي سبيل ذلك قتلت شقيقتك مساعديَّ الثلاثة في ميونخ.
- ثلاثة مجرمين مقابل مليون ونصف المليون أرمني مدني أبادهم رجالك. أهذه حسبة عادلة يا باشا؟
- أنتِ من عصابة هايك إذن!
همس إلياس إلى نفسه: «يلعن حظي!».
رفع يده وقال للنادل بالعبرية:
- طبقًا من الزيتون من فضلك.
هزَّ النادل رأسه واتجه إلى المطبخ، بينما انتبه المضيف الأشقر الوسيم لتلك الجملة، وراقب إلياس ينهض عن طاولته ويتجه إلى الممر المؤدي إلى مرحاض المطعم بجوار الباب الخلفي للعاملين.
فتح المضيف باب المطعم، ومد رأسه حيث يقف الأسمر مدخن الغليون صائحًا فيه:
- سيدي، ممنوع وقوف العرب حول المطعم!
تدبر المدخن الجملة ثم سار ببطء بالقرب من سيارة الأجرة، ثم أكمل طريقه مبتعدًا عن المطعم حتى خرج عن نطاق رؤية السائق.
عاد المضيف إلى الداخل، ونادى زميله قائلاً:
- تسلَّم موقعي يا آيرا. سآخذ استراحة للتدخين.
شقَّ المضيف طريقه من المطعم مرورًا بالحمَّامات فباب المطبخ المزدحم، حتى خرج من الباب الخلفي ثم أوصده بالمفتاح.
سار في زقاق مسدود بسور حجري تكثر بنهايته حاويات القمامة التي يتخلص فيها المطعم من مخلفاته كل ليلة بعد الغلق.
أسفل تلك المخلفات، ينام المضيف الأصلي للمطعم بعد أن تخدر بالكلوروفورم، وأخذ جاسر جاسر جاسر الحلبي ثيابه وارتداها متظاهرًا بأنه صديقه الذي أتى ليحل محله الليلة، لأنه أصيب بنزلة شعبية حادة.
أشعل جاسر سيجارة دخنها ونفث دخانها بالقرب من ثيابه حتى يحبك كذبته إلى أن وصل إلى نهاية الزقاق، حيث يقف إلياس

ينتشل لقمة خبز ملقاة على الأرض، يُقبّلها مرتين ثم يضمها إلى حضن الجدار عند الزاوية بعيدًا عن احتمالية دعس أي قدم على نعمة الله.

سأله جاسر بلهجته الهجينة بين السورية الحلبية والفلسطينية النابلسية:

- يبدو أن أفراهام لينمان لن يأتي الليلة. أنغير الخطة يا رفيق؟

- ماذا عن تلك اللعينة التي أجلستها بجواري منذ قليل؟

- حاولت منعها لكنها قالت إنها صديقة أفراهام، إذن هي مجندة مثلهم أو على أقل تقدير صهيونية.

- كيف تكون صهيونية وصديقة لأفراهام وهي تقول إنها ابنة ألبون برطميان؟

أشعل إلياس سيجارة دخنها متوترًا، بينما سمعا خطوات تقترب منهما، نظرا أمامهما فوجدا أن الخمسيني الأسمر، أيوب زهران المنوفي، يقترب منهما على مهل مدخنًا الغليون وهو يقول بلهجته المصرية:

- أتمنى أن تكونا قد استقطعتما من وقت المهمة وغامرتما بأن نكون الآن معًا بسبب أمر طارئ!

أجابه جاسر:

- هناك مدنية بالداخل.

- صهيونية؟

- أرمنية. ابنة شقيقة كيراز.

- وما الذي أتى بقريبة الخواجة إلى هذا المطعم الصهيوني في تلك الليلة بالتحديد؟ ألم تكن مسؤوليتك يا جاسر أن تراجع الحجوزات والتأكد من أن المطعم محجوز بالكامل للعصابات اليهودية يا أبله!

- بالله كيف لي أن أعرف أن هناك أرمنية ستأتي متخفية بهوية يهودية ألمانية! هل أقرأ الطالع أنا؟

- والله مَن يعتمد عليك يبيع عياله!

- الذنب ليس ذنبي. إن الحظ العثر يلاحقنا منذ أن انضم إلينا هذا العراقي المجهول. إنه مثل الغراب الذي يقول قاق، بل والله إنه أنحس من الغراب.

سمعوا صوت محرك سيارة الأجرة التي كانت واقفة أمام المطعم منذ لحظات يقترب من الزقاق.

صفها الأربعيني ذو اللحية السوداء الغزيرة والشارب الكث الذي تتخلله بضع شعيرات شيباء. نزل من السيارة بقامته الفارعة وبنيانه الضخم الذي يجعل المرء يشك في أن نسله ينحدر من العماليق.

انضم إلى رفاقه الثلاثة، فوقف يربع ذراعيه، بينما استقبله جاسر قائلاً:

- يبدو أن هذه العملية ستفشل مثل سابقاتها يا عراقي. رابع مهمة فاشلة هذا الشهر. صحيح، منذ متى وأنت فرد في منظمتنا؟ شهر؟

نظر العراقي إليه متأملاً كلماته بملامح جامدة واقترب منه على مهل، ثم من دون أي مقدمات، حمل جسد جاسر الهزيل من إبطيه ورفعه صوب السور من دون أن ينطق كلمة واحدة.

كاد جاسر يصيح، لكن أيوب تدخل، وضع يده على فم جاسر حتى لا يلفت صوته انتباه أي شخص في المطعم، بينما حاول أن يدفع العراقي بيده الأخرى وهو يقول:

- يا أخي الكلام أخذ وعطاء. هذا الأهبل لا يقصد تخوينك.

دفع جاسر يد أيوب عن فمه، وقال بصوت خفيض للعراقي:

- تخوين؟! معاذ الله يا رفيق. أقصد أنك نحس!

نظر العراقي إليه بعينين داكنتين كالليل تشتعل فيهما شعلة غضب أخذت تخفت مع استيعابه لتعليق جاسر وهو يعتذر إليه، ويؤكد له حسن نيته.

في أثناء ذلك، لم يتدخل إلياس بل زفر محبطًا وهو ينفث دخان سيجارته، ثم ينظر إلى ساعته ويقول بهدوء يتنافر مع المشاجرة

العبثية التي نشبت من خلفه:
- يا رفاق، القنبلة ستنفجر خلال ثلاثين دقيقة.
ترك العراقي جاسر فنزل على قدميه يهندم ثيابه التي تكرمشت مع كرامته، بينما سبَّ أيوب رعونته وهو يساعده على تنظيف سترته من الخلف، ثم وقف الثلاثة بجوار إلياس يتدبرون ما قاله.
همَّ أيوب أن يفكر في طريقة لإخراج قريبة الخواجة الأرمني من المطعم قبل انفجار القنبلة، لكن هناك شيئًا استوقفه.
صوت تكتكة قنبلة قريبة.
صحيح أن كهولته أفقدت حواسه جودتها، إلا أن سمعه ما زال دقيقًا كخفاش الليل، لذلك عرف أن صوت تكتكة مؤقت القنبلة قادم من الدائرة المحيطة به.
قال أيوب مقاومًا رغبته في الصياح:
- أي أحمق منكم فخخ نفسه؟
توتر جاسر ثم نظر إليهم جميعًا وقال له:
- ماذا تقصد بـ«فخخ نفسه»؟ هذه ليست الخطة، من المفترض أن...
ضم أيوب الغليون إلى شفتيه، وقطع استعجاب جاسر واستنكاره بأن تحسس بطنه وصدره، فلم يجد شيئًا.
فعل الأمر نفسه مع العراقي لتكون النتيجة نفسها، ثم اقترب من إلياس، فرفع الأخير ذراعيه إلى أعلى ليترك أيوب يفتشه كما يحلو له فلم يجد أيوب معه أي ديناميت أو حزام ناسف.
وقف أيوب أمام إلياس، وقال وهو يرميه بنظرة تتلظى سخطًا:
- اخلع الديناميت الملفوف حول ساقك.
التفت جاسر والعراقي صوب إلياس، وساد الصمت للحظة جعلتهما يسمعان صوت التكتكة الصادر منه مثل أيوب.
قال جاسر:
- أتزهق حياتك من أجل هؤلاء الملاعين يا رفيق؟

- بل من أجل أربعمائة أخ من إخواننا ذبحوا غدرًا في دير ياسين و...
قاطعه أيوب:
- فخخنا المكان لأننا أصحاب قضية، ولكنك تلبس حزامًا ناسفًا، لثأرك الشخصي. مَن لك انتقام شخصي معه لن يأتي الليلة.
- أتظنني أفجر نفسي من أجل هذا الخسيس النجس يا أيوب؟
- أيوب لا يظن، أيوب يعرف. اخلع حزامك، أفراهام لن يأتي.
- لقد تأخر عن ميعاده المعتاد، لكن عابد أكد لنا أنه سيأتي بعد...
- بعد أن تنفجر وتحرم أمك من دفنك؟
نظر إلياس إلى ثلاثتهم باحثًا عن مناصر لموقفه، لكن صمتهم اتخذ صف أيوب المنوفي.
فتح المنوفي قبضته ومد يده صوب إلياس، وهو ينظر إليه نظرة آمرة حازمة.
استسلم إلياس، زفر وألقى سيجارته على الأرض فدعسها وهو يلعن الماضي والحاضر والمستقبل، والحياة والممات، والعثمانيين والإنجليز والصهاينة، والمتواطئين جميعًا، ثم رفع سرواله المتسع ليكشف عن ساقه التي التف حولها حزام من أصابع الديناميت مثبتة فيها ساعة متكتكة.
نزع المؤقت الذي فضحه بتكتكته، وفك الأسلاك وخلع الحزام، ثم وضعه على راحة المنوفي المنبسطة، فأخذه الأخير وأعطاه إلى العراقي قائلًا:
- خبئه في صندوق السيارة.
نفذ العراقي ما قاله رفيقه، فتح صندوق السيارة ووضع الديناميت في كيس من الخيش لفه بحذر، ثم رفع أرضية الصندوق المزيفة ليضع الديناميت بجوار بندقية ومسدسين.
قال المنوفي:
- لو لم أذُق المرارة التي تملأ فمك، لجعلتك تبصق أسنانك عقابًا لك على تلك الحركة الرعناء. غير مسموح لأي منا أن يتصرف تصرفًا

يخص أي مهمة ننفذها من دون استشارتنا. غير مسموح لأي منا أن يثأر ثأرًا شخصيًا على حساب قضيتنا. غير مسموح لأي منا أن يُعرض حياة رفاقه للخطر. والأهم من ذلك غير مسموح لكم بأن تموتوا قبلي يا بهائم. أنتم مسؤولون عن الحفاظ على شبابكم لكي تحملوا نعشي وتبكوني وتقيموا جنازة تليق بأيوب زهران. مفهوم أم أنني أتكلم باللاوندي؟

هزَّ العراقي رأسه مؤمّنًا على تعليمات رفيقه، وربت جاسر على كتفه، بينما هرب إلياس من نظرات أيوب المعاتبة متفقدًا ساعته وقال:

- لا نملك إلا عشرين دقيقة حتى تخرج قريبة كيراز.

اقترح جاسر:

- فلنخبرها بأن هناك مكالمة لها من خالها.

- لا يجوز المخاطرة بذكر اسم كيراز بأي شكل في هذه العملية.

قال أيوب:

- نخدرها بالكلوروفورم.

- أمام الجميع؟

- أقصد بعد أن نستدرجها إلى الخارج يا إلياس.

- وإن رفضت الخروج؟

- نجبرها عليه.

- لا نعرف ردة فعلها. إنها في مهمة لمنظمة هايك، ولن ترحل قبل قتل الباشا.

نفث المنوفي دخان غليونه وهو ينظر إلى العراقي الذي أخرج الشوكولاتة وتناولها بهدوء.

- ألم يحِن الوقت لتسمعنا صوتك يا رفيق؟

رفع كتفيه من دون أن ينبس ببنت شفة، فقال إلياس:

- حسنًا، لديَّ فكرة ستنقذها من الانفجار، وتنقذنا من رصاص أربعين ملعونًا.

* * *

عاد جاسر من استراحة التدخين، ووقف عند مكتبه مكان آيرا.

عاود إلياس الجلوس إلى طاولته بعد أن تحرر من التكتكة التي تعد الثواني الباقية من عمره، وتناول الزيتون الذي وضعه له النادل، وهو يسترق السمع إلى حديث نايري ومراد باشا.

قال الباشا بابتسامة استفزازية:

- يدكِ ترتعش يا ابنة برطميان.

كانت يد نايري تحت الطاولة، فمال إلياس متظاهرًا بأنه يعقد رباط حذائه، فرأى يدها تمتد بمسدس بريتا صغير موجه صوب بطن مراد باشا من أسفل فراش الطاولة.

عاود الاعتدال في مقعده وهو يلعن حظه مرة أخرى، فنظر إلى جاسر ثم أومأ إليه برأسه مرتين.

قالت نايري:

- يدي ترتعش لأنني لم أعتَد القتل بدم بارد مثلك، لكن هذا لا يمنع أنني سأقتلك الليلة.

كادت تضغط على الزناد، لكن مراد باشا فاقها مكرًا، تمكن بيد واحدة أن يقلب الطاولة بسرعة أفزعتها وباليد الأخرى خطف منها مسدسها ووجهه صوبها.

قبل أن يتمكن من وضع سبابته في دائرة الزناد، انطلقت رصاصة من خلف نايري جرحت يده فأسقطت عنه المسدس.

نظرت نايري متفاجئة، فوجدت أن صاحب الرصاصة هو إلياس الذي كان سريعًا بما يكفي لإشهار مسدسه وإصابة قاتل عائلتها قبل أن يقتلها هي الأخرى.

أفاقت من فجأتها، واستغلت تشتت الباشا بجرحه فسحبت مسدسًا آخر مربوطًا بفخذها، وأطلقت منه أربع طلقات، واحدة في رأسه وثلاثًا في صدره.

صرخت المجندات ورفيقات المجندين، وقطعت فرقة الجاز عزفها، وتوقف الساقي عن صب الكؤوس، واختبأ النادل أسفل

البار، وأشهر بعض الصهاينة الذين لم تغلبهم الثمالة كلياً مسدساتهم صوب إلياس.

أخرج جاسر مسدسه من جيب سترته قائلاً للمسلحين الصهاينة بعبرية أشكنازية ممتازة:

- أنزلوا أسلحتكم يا شباب. نحن في عملية استخباراتية خاصة بالجمعية اليهودية الفلسطينية. وردتنا معلومة بأن هذا التركي الإرهابي وشريكته أتيا لاغتيال القائد أفراهام، لكن يبدو أنهما اختلفا.

لم يتركا فرصة للصهاينة لاستيعاب مسرحيتهما المليئة بالثغرات، اندفع إلياس صوب نايري يجذبها من ذراعها للقبض عليها فأخفض الجنود أسلحتهم وأخذوا يتابعونهم.

انتشلت دبوس رمانة ماردين من على صدر الباشا الذي صرعته بينما جذبها إلياس، فصاحت فيه:

- اتركني!

- اخرسي أيتها الإرهابية اللعينة!

- لست إرهابية! أنا نايري ألبون برطميان من منظمة هايك المنتقمة لعظام الأرمن. قتلت هذا المتوحش الذي شرّد قومنا، ونهب أرضنا، واغتصب فتياتنا، ويتّم أبناءنا، وعذّب رجالنا و...

- يا له من خطاب مؤثر! هيّا! تحركي!

- سأتحرك معك بشرط أن تعرضني على محكمة العدل الدولية حتى يعرف العالم مصاب قومي.

- تبحثين عن العدالة الدولية هنا؟ ما أظرف انفصالك عن الواقع!

- لن أسير معك خطوة واحدة قبل أن تقسم بذلك!

صاح جاسر وهو ينظر إلى ساعة يده:

- يا حضرة الكابتن، أمامنا ثماني دقائق فقط!

نفد صبر إلياس، حمل نايري التي حاولت مقاومته، ولكن قصر قامتها وقلة وزنها لم يساعداها كثيراً على منعه من إلقائها بيسر على

منكبه العريض.

أخذت تصيح وتسبه وتلعنه، لكنه أكمل طريقه، حتى كاد يصل إلى الممر المفضي إلى المخرج الخلفي، لكنه تذكر شيئًا.

عاد بضع خطوات إلى الخلف، وانتشل نوفيلا «قلب الظلمات» من على طاولتها، دسها في جيب سترته ثم أكمل طريقه.

ابتسم جاسر قائلاً للجنود وهو يتبع إلياس نحو المخرج:

- نعتذر يا سادة على هذا الموقف غير الحضاري، سيأتي رجالنا لحمل جثة هذا الباشا على الفور. أكملوا احتفالكم.

سحب كوب ويسكي مثلجًا من على البار، ورفعه إلى أعلى صائحًا بنبرة احتفالية:

- لَخاييم!

صاح السُّكارى خلفه رافعين كؤوسهم وأكوابهم في نخبه:

- لَخاييم!

خرجوا من المطعم وتركوا المسلحين السُّكارى يشربون في نخب الدماء التي أراقوها، وفي نخب مستقبلهم في أرض الميعاد غير منصتين لتكتكة القنبلة التي تعلن اقتراب نهايتهم، ومن سمعها منهم ظنها هلوسة الخمر.

أسرع إلياس حاملاً نايري التي لم تتوقف عن الصياح والصراخ، والتفت خلفه ليتأكد أن جاسر يتبعه ليجده يفرغ كوب الويسكي في جوفه فصاح فيه:

- أهذا وقته؟

- ماذا! إنه نخب نجاحنا!

ألقى الكوب الفارغ صوب الحاوية، وخلع سترته البيضاء ليرميها في القمامة، ثم أسرع خطاه إلى نقطة التجمع خلف المطعم حيث سيارة الأجرة.

فتح جاسر باب الأريكة الخلفية لإلياس، ثم تقدم ليجلس بجوار العراقي.

ألقى نايري على ظهرها فشعرت برأسها يرتطم بكتف شخص جالس على ميمنة الأريكة.

رفعت رأسها وكادت تستأنف صياحها، لكن رؤيتها لملامح الرجل الذي ارتطمت به جعلت الصرخة تقف بمنتصف حلقها.

سماره، شاربه المبروم، أنفه الدقيق، عيناه الداكنتان، الندوب التي تفترش وجنتيه وأنفه وصولاً إلى عنقه حيث يمتد ندب ضخم من الأذن إلى الأذن باستدارة العنق.

همست إليه بلهجة مصرية تشوبها لكنة أوروبية خفيفة:

- أيوب زهران؟ أنت لم تمت؟

ارتبك الرفاق الأربعة، فتمتم أيوب وهو يسكب سائلاً شفافًا من زجاجة صغيرة لا تفارق جيبه، على منديل بدلته القماشي:

- هذا ما كان ينقصني!

وضع المنديل بغتة على أنفها وفمها.

قبضت على رسغه لتقاومه وظلت تركل بساقيها، ولكن سرعان ما خارت قواها، وفقدت وعيها تمامًا فسقط رأسها على كتف أيوب.

دفع إلياس ساقيها جانبًا وجلس بجوارها على الأريكة، ثم أغلق باب السيارة وهو ينظر إلى الساعة قائلاً:

- ثلاث دقائق!

انطلق العراقي بأقصى سرعته بعيدًا عن خلفية المطعم، بينما أعاد أيوب المنديل وزجاجة الكلوروفورم إلى جيبه، ثم دفع رأس نايري صوب كتف إلياس وهو يسأله:

- الخواجة أخبر قريبته بأنني في القدس؟

- لا أظن.

- إذن كيف عرفت اسمي وأنني من المفترض أن أكون ميتًا؟

أجابه جاسر:

- ألم يذكر كيراز أنها عاشت بمصر في أثناء الحرب؟ كنتَ أشهر من أنور وجدي آنذاك. على ذكر أنور وجدي، يجب أن تشاهدوا فيلمه

الأخير يا رفاق. ليلى مراد خلابة!

تدبر أيوب تعليقه، ثم سأله بهدوء مصطنع:

- هذا الفيلم صدر منذ ثلاثة أشهر يا جاسر، صحيح؟

- نعم.

- هل شاهدته في بورسعيد؟

أدرك جاسر المأزق الذي أوقع فيه نفسه، فامتنع عن الإجابة، لكن هذا لم يمنع أيوب من ضربه على رأسه كالتلميذ البليد وهو يصيح:

- كان من المفترض أن تذهب لشراء السلاح من هناك وتعود على الفور، لا أن تتسكع مع فتياتك في سينما إلدورادو!

- لم أتسكع معهن في إلدورادو.

غمز إلى العراقي وقال مشاكساً:

- تسكعت معهن في سينما أمبير.

لم يُبدِ العراقي أي ردة فعل، بقي جامداً كطبعه، يأكل الشوكولاتة ويقود مروراً بالمطعم، مخترقاً الشارع التجاري الذي احتله الصهاينة وهجَّروا سكانه الأصليين بعد أن سلبوهم ديارهم وتجارتهم.

همَّ أيوب أن يضرب جاسر مجدداً، لكن إلياس أعاد ساعته إلى جيبه وهو يقطع شجارهما المعتاد قائلاً:

- يا رفاق، انظروا خلفكم!

التفتوا جميعاً ونظر العراقي في مرآته الجانبية، وإذ بهم يرون النيران ويسمعون دوي الانفجار يملأ الأفق.

انفجرت القنبلة فنُسِف مطعم شقائق نعمان القدس الذي كان ملكاً لفلاح فلسطيني أتى من الجليل ليفتح مطعماً في القدس يحمل اسم نبتة زوجته المفضلة، الحنون.

همس إلياس بابتسامة واسعة وعينين تلمعان بدموع الغِبطة:

- من أجل دير ياسين!

٢

كافور نتانيا

على غرار الفيلسوف شامفور، حاول إيلي دوليف لينمان الانتحار أربع مرات. ولكن مثله مثل ذاك الفيلسوف المتشائم، فشل فشلاً ذريعًا في إنهاء حياته.

آخر محاولاته للانتحار كانت منذ ليلتين، جمع كتب الفلسفة كلها التي قرأها، فوقها الروايات والمجلدات العلمية العملاقة، ليقف عليها، ويضع عنقه في عقدة الحبل المتدلي من عارضة سقف غرفة المكتبة التي يقيم فيها.

طريقة الانتحار تلك ألهمه بها الفيلسوف فيليب ماينلاندر.

لكن على عكس فيليب ماينلاندر، لم يمت إيلي مشنوقًا فوق برج من الكتب، بل انقطع الحبل وسقط بقوة على مؤخرته.

لهذا، عين له ابن عمه حارسًا ضخمًا يُدعى «يورام»، دوره أن يراقبه ويتأكد أنه لن يُقبِل على خطيئة الانتحار مرة أخرى.

من وقتها ويورام ملتصق به كظله، حتى إنه دخل معه الآن إلى الحمَّام وظل معه في أثناء جلوسه عاريًا في المغطس. الماء يتقطر من لحيته الكثة على صدره الهزيل الذي انطبق جلده على عظمه، يشرب من كأس الويسكي، ويرتب بيده الجافة أوراقًا بيضاء على صينية تتوسط المغطس، شكَّل منها بأنامله الدقيقة زهرات بفن الأوريجامي الذي تعلمه من أحد الأسرى اليابانيين في أثناء عمله في الحرب العالمية الثانية.

كان يورام يلقي على إيلي نظرة خاطفة بين الفينة والفينة، ليتأكد أنه لن يغرق نفسه داخل المغطس، أو يقطع شرايينه، أو يحز عنقه على الرغم من أنه أخرج موسى الحلاقة من الحمَّام.

أنهى كأس الويسكي، ونظر صوب نافذة الحمَّام وهو يكمل طي

الورقة غيبيًّا، فلاحظ بداية هطول الأمطار والخطوط الرفيعة التي ترسمها على الزجاج لتحول بينه وبين رؤية البدر بوضوح.
يحب الأمطار، لكنه يكره ليالي اكتمال القمر كأنه مستذئب ملعون.
تحوَّل بنظره عن القمر وأكمل طي الورقة تحت مراقبة يورام له، صنع منها زهرة سوسن ورقية حدق إليها وأخذ يراقبها كيف تتقطر دمًا، كيف تنزف، كيف تفيض دماؤها وتملأ الصينية ومنها إلى المغطس حتى أحالت لون مائه الشفاف أحمر قانيًا.
لم يجفل، راقب زهرة السوسن الورقية تتفتح، تتمدد، تخرج منها جثث، بعضها يطفو على سطح المغطس، وبعضها يتكوم فوق أرضية الحمَّام البيضاء.
جثث رجال وصبيان يرتدون القُمباز والحطة والعقال، أزهق الرصاص أرواحهم.
قال إيلي ليورام:
- سأنهض.
استدار يورام ليعطي إيلي بعض الخصوصية، فنهض وجذب المنشفة ولفها حول خصره، ثم سار بحذر حتى لا يدعس الجثث.
خرج بهدوء يتبعه يورام حتى غرفة المكتبة الممتلئة بالجِراء التي لم تبالِ بدخول إيلي. لم تنبح، لم ترحب به، بل ربما لم تنتبه لوجوده من الأصل.
وقف إيلي في منتصف الغرفة يأخذ منامته النظيفة من على الأريكة، وما زال يورام يقف في مكانه كتمثال أصم.
قال إيلي:
- الغرفة آمنة. لم تترك لي حبالًا ولا أدوات حادة، يمكنك تركي وسط الكتب الآن.
- ماذا عن الأقلام؟
وضع إيلي يديه على خصره متفكرًا وهو ينظر صوب المكتب المقابل للشرفة المطلة على حديقة الدار الرحبة التي يقطنها مع ابن عمه، ثم

قال:

- لقد منحتني للتو فكرة ذهبية يا يورام. لم أفكر يومًا في أن الأقلام تصلح كأداة للانتحار. إن طعنت شريان عنقي بالقلم ستكون ميتة تراجيدية، فيكون القلم ما قتلني أنا وأبي!

نظر إليه يورام متشككًا فاقترب منه إيلي، وقال وهو يربت على كتفه:

- لا تقلق! لن أخبر أفراهام بأنك من ألهمني هذه الفكرة اللامعة. والآن إن كنت لا تنوي رسم لوحة عارية لي، اخرج حتى أرتدي ثيابي بحق الجحيم!

ذهب يورام إلى المكتب، جمع كل الأقلام الرصاص والحبر ثم خرج، لكنه أبقى الباب مفتوحًا.

نزع إيلي المنشفة عن خصره، وأخذ ينشف شعره الواصل إلى كتفيه وهو يلعن يورام وابن عمه وهتلر والحرب العالمية الثانية، واليوم الذي قرر أن يترك فيه أمريكا، المدينة الذهبية، وينتقل إلى القدس.

وضع منامته، ثم اتجه صوب الكتب المنتصبة بشموخ على أرفف المكتبة، كان يضع قلم أبيه بجوار كتابه المفضل «الشعور المأساوي بالحياة» لأونامونو.

من بين الأرفف، سمع أمهات الكتب، المجلدات، الروايات، الموسوعات. ألفا كتاب تهمس إليه بفحيح ألعن من فحيح الأفاعي: «لص!».

تلك الكلمة تزعجه أكثر من الجثث التي تفترش أرضية حمّامه.

أخذ إيلي ما بقي من زجاجة الويسكي، ودفتره، ومسند الكتابة، والحبر، وخرج إلى شرفة الدار الفسيحة التي تتوسط حارة النصارى في القدس الشرقية.

جلس على المقعد الخشبي أسفل سقف الشرفة بعيدًا عن بلل الأمطار، يراقب الشجرة المقابلة لشرفته والمحفور على جذعها بأحرف عربية متعرجة كتبتها يد طفولية:

ماما

بابا

ميلاد

إدوارد

سعيد

جوزيف

إسكندر

حدق إليها هُنَيهة، ثم لعن بدر السماء، وارتشف الويسكي من زجاجته.

شرب الكثير ولكنه لم يدخن. يكره رائحة الدخان لأنها تذكره برائحة محارق معسكرات الاعتقال، كما أنه من الجحود أن يغطي على رائحة المطر ونسيم أحواض السوسن والأقحوان واللوتس والنرجس والياسمين وخشب الأشجار برائحة سيجارة أمريكية لعينة.

استأنف الكتابة بالألمانية، فخطَّ الجملة الأولى لمبتدأ الفصل الأخير من كتابه: «تطاردني تفاصيل موسم سوسن الناصرة. الجو ربيعي يبهج الـ...».

جاهد ألا يتشتت تركيزه، لكن لا مفر، سمعهم ينادونه فرفع عينيه عن الورقة.

كان يعلم أنه إذا نظر إلى الأرض سيرى الجثث مرة أخرى.

أبعد نظره عن حوض السوسن المقابل لشرفته، ولكن الشجرة التي وقعت عيناه عليها لم تكن أرحم.

وجدهما أمامه، صديقيه الإنجليزيين كليفورد وميرفين، بثيابهما المدنية. يغطي رأسيهما كيسان، معاصمهما وأقدامهما مقيدة، جثتاهما المشنوقتان تتدليان من فرع شجرة الكافور في حقل مستوطنة نتانيا الإسرائيلية فوق مصيدة ملغمة. حاول إيلي فكهما، فدوى انفجار، أشلاؤهما انتشرت في كل مكان، ولطخت وجهه.

من هذا الانفجار حصل إيلي على الندب الذي يمتد من حاجبه وحتى شفته العليا، مشوهًا براءة ملامحه الشابة. لم يحصل على هذا الندب من النازيين ولا من معارك الحرب العالمية الثانية التي شهدها بوصفه مصورًا ميدانيًّا، بل حصل عليه من مكيدة عصابة الإرجون التي دبرها ابن عمه أفراهام لإرهاب الإنجليز ودفعهم إلى تسليم فلسطين للصهاينة.

دعك جفنيه في محاولة يائسة لمحو شريط أهوال الحرب الذي عرض نفسه داخل ذهنه من دون استئذان.

محرك طائرة نفاثة، انفجار، مدفعية، دبابة، نيران، مجرفة، صراخ، غيث من الرصاص، أطراف مبتورة، أطفال يصرخون أسفل الركام، خندق ممتلئ بالجثث، منامات مخططة طوليًّا، أناس من الجوع صاروا أكياسًا من العظام، أعين ميتة، شابة شُطرت، جثتا والديه اللذين أعدما بالرصاص في زقاق مظلم في برلين ليلة اكتمال القمر.

كرمش الورقة التي كان يخطها وألقاها في جيب منامته.

كان لينتحر مرة أخرى اليوم، يسرق مسدس أفراهام وينهي الأمر برصاصة، لكن تسرب إليه هذا الصباح نبأ أن نايري في طريقها إلى القدس، لذلك اضطر إلى أن يعيش يومًا إضافيًّا.

وضع أدوات الكتابة جانبًا، ثم أخرج من جيب منامته الحريرية قرصًا من أقراص البيرفيتين، ابتلعه. فمغيبات الوعي صارت المانع الوحيد من أن يفقد عقله كليًّا.

يلوم الكتب على ذلك، فابن عمه شهد على ما هو أبشع مما شهده إيلي، ومع ذلك لم يفقد عقله، ولا يرى أشباح الموتى ولا يسمع همسهم.

الكتب هي السبب، لو كان شحيح القراءة مثله لما تعاطف مع آلام كل هؤلاء كما يتعاطف مع أبطال الروايات. لما أصبح لديه مخ يحلل ويركز على تفاصيل بشعة ستترك في قلبه ندوبًا غائرة لن تلتئم إلا إذا فقد عقله ومعه مخزون المعلومات التي جمعها من الكتب حتى

تشكل وعيه الذي سيفتك به.
بينما بدأ مفعول مادة الأمفيتامين، سمع صوت سيارة تصطف خارج بوابة الحديقة الحديدية.
أعاد علبة البيرفيتين إلى جيبه، ثم نهض ليراها بوضوح وهي تنزل من سيارة أجرة كانت تقودها بنفسها، وتسير متخطية البوابة مقتحمة الحديقة المثمرة بشعرها الأحمر وثوبها الذي التصق على قوامها الممشوق بعد أن بلله المطر.
كانت الصهباء الحسناء تخلع حذاءها بعصبية لتضرب الأرض بجوربيها داعسة فوق الحشائش.
كان يود أن يسألها متى وصلت، وماذا أصابها، ولماذا تقود سيارة أجرة في القدس بعد منتصف الليل، وماذا تفعل هنا في هذه الدار، ولكن المخدر تمكن منه، فعاد إلى مقعده ينظر إلى البدر، ويكاد يجزم أنه رأى أمه وأباه يبتسمان له من على سطح القمر.

* * *

كان أفراهام أورباخ لينمان يرتدي منامة صيفية خفيفة تبرز من كميها القصيرين عضلات ذراعيه.
كان قد فرغ من العمل بغرفة مكتب الدار، فاستلقى على الأريكة الجلدية المقابلة للنافذة التي يخرج منها دخان نرجيلة التنباك العجمي التي يجيد إعدادها لنفسه.
نفث دخانه واستأنف دندنته وهو يحرك أصابعه في الهواء كمايسترو الأوركسترا، مرددًا بعربية ركيكة؛ حاءها خاء، وراءها غين، وعينها همزة:

يا حبيبي تعالى الحقني شوف اللي جرالي
من بُعدك
سهرانة من وجدي بناجي خيالك
مين أدك
وأنا كاتمة غرامي وغرامي هالكني

تضادت تلك الكلمات الخاضعة بصوت أسمهان العذب الخارج من أسطوانة الجرامافون، مع نرجسية مكتب أفراهام لينمان.
على يسار النافذة، مكتبة خشبية لا تحمل كتبًا بل صورًا متعددة له وهو يصافح والتر روتشيلد، وحاييم وايزمان، وديفيد بن غوريون.
الكثير من الصور المسلحة الاستعراضية وهو تارة يحمل رشاشًا، وتارة يحمل مسدسًا مصوبًا نحو العدم، وتارة يسند مرفقه إلى مدفع هاون، وتارة يجلس فوق دبابة.
بمنتصف المكتبة، ملصق ملون بالأبيض والأزرق تتوسطه يد يُسرى تنقبض كفها إلا من إصبعَي السبابة والوسطى مرفوعتين إلى أعلى. تلتف حولها شريطة زرقاء مكتوب عليها «المقاتلون من أجل حرية إسرائيل»، يليها شعار «وإن نسيتك يا قدس، فلتضل يدي اليمنى عن جمجمتي».
توقف عن الدندنة فور أن سمع الباب يُفتح بعنف، فرفع رأسه عن الأريكة نافثًا دخانه ليرى ضيفته الغاضبة تقف لاهثة، بعينين مرهقتين حمراوين، وأنف سائل، ويدين ترتعشان، وملابس وشعر يقطران ماءً، وملامح الغضب العاتي على وجهها الدقيق الذي اشتاق إليه كثيرًا.
هكذا عهدها، جميلة، غاضبة، فاتنة، لا تطيق النظر إليه.
ألقى رأسه على الأريكة مجددًا، بينما صاحت فيه نايري الثائرة:
- المدينة تشتعل وأنت هنا تسمع أسمهان؟
- أتعرفين أنني قابلتها؟ كانت تقيم في فندق كينج ديفيد. يا إلهي، لو ترين المآدب التي أقامتها. المجنونة كانت توزع فساتينها على عاملات النظافة بالفندق.
- كان ذلك قبل أم بعد أن فجرت الفندق أنت وعصابتك؟
- قبله يا عزيزتي. جعلتها توقع لي على ظرف تلك الأسطوانة.
- ما كانت لتوقعها لك لو علمت أنك سرقتها من مالكها الأصلي.
- السرقة أمر نسبي يا آنسة نايري ألبون برطميان.

- كفى سخافة!
سحب نفسًا أخيرًا من النرجيلة، ثم نهض بحماس غير مبرر عن الأريكة، وبدّل أسطوانة الجرامافون.
وقف أمام نايري، ضغط على كتفيها المبتلتين، ووجهها للجلوس على الأريكة بجواره، ثم قال:
- أنصتي. إن كنتِ عشت في مصر بما يكفي، فستعرفين صاحب هذه الأغنية.
- هل الوقت مناسب لـ...
- فقط أنصتي!
زفرت ومسحت أنفها بقفازها المبتل وهي تنصت لمطلع الأغنية، بينما خلع أفراهام قميص منامته وبدأ ينشف لها وجهها ورأسها، وكاد يصل إلى صدرها، لكنها انتزعت منه قميص المنامة بعنف وهي تقول:
- أتعيد الأغنية نفسها من بدايتها؟ إنها أغنية أسمهان.
- خطأ! إنها النسخة الأصلية لصاحبها أنطونيو ماتشين. أرأيتِ؟ كل العباقرة لصوص بطريقة أو بأخرى.
- أهذا ما تفعله في القدس يا عبقري؟ تدرس تاريخ الموسيقى العربية لتسرقه؟
- أنا أدرس عدوي.
زفرت نايري وهي تعيد إليه قميصه وتقول بهدوء:
- أكنت تعرف أن مطعم شقائق نعمان القدس سينفجر الليلة؟
- ماذا تظنين؟
- وتركتني أذهب؟
- أنتِ تنفذين مهام هايك من دون استشارتي.
- فهكذا تعاقبني؟
- أخبرتك بأن العرب يترصدون بالمطعم.
- لكنك لم تخبرني بأنهم سيفجرونه في أثناء تنفيذ مهمتي.

- لماذا تصيحين وتفسدين عليَّ خلوتي! لقد نجوتِ من الموت كعادتك.

- لأن العرب أنقذوني!

- بل لأن حظك أكبر من عقلك مثل كل الحمقى.

- أنت على حق، أنا بالفعل حمقاء لأنني وثقت بك مرة أخرى يا وغد!

كادت تنهض، لكنه استوقفها قائلاً:

- أنتِ محقة. ما كان يجب أن أخاطر بذهابك لتنفيذ تلك العملية المشؤومة الليلة.

بقيت في مكانها، فنهض عن الأريكة واتجه إلى الجرامافون. أطفأه ثم أخذ علبة سجائر ذهبية من على مكتبه.

عاد للجلوس بجوارها وهو يفتح العلبة ويعرضها عليها.

ظلت تحدق إليه وإلى علبة السجائر حتى انهزمت أمام حاجتها إلى النيكوتين بعد تلك الليلة العصيبة، فأخذت سيجارة أشعلها لها أفراهام ونفثت الدخان بأصابع ترتعش، فسألها:

- أخبريني ماذا حدث؟

- المطعم كان مفخخًا. ولكن أحد العرب تظاهر بأنه إسرائيلي وحملني خارج المطعم، ثم خدروني بالكلوروفورم. استيقظت بعدها لأجد نفسي في سيارة أجرة فارغة في زقاق قذر بعيد عن المطعم. هذا ملخص ليلتي الأولى في تلك المدينة اللعينة.

- أصبتِ بأي مكروه؟

هزت رأسها نفيًا.

- قتلتِ مراد باشا؟

- ماذا تظن؟

- أظن أنني اشتقت إليكِ.

وضع يده على فخذها فنظرت إلى ذراعه الموشومة بقلب أحمر كبير، يبرز من خلفه عصفور يحمل في منقاره شريطة تستدير حول

القلب الذي تتدلى من أسفله وردة يانعة، مكتوب على تلك الشريطة البيضاء بالأحرف العبرية اسم «آبا».

تمقت هذا الوشم وتكره الظروف التي دفعته للحصول عليه.

رفعت عينيها من على الوشم، ورمت أفراهام بنظرة لاذعة، فأذعن لسطوة عينيها ورفع يده عن جسدها، ثم قال ناظرًا نحو النافذة في محاولة يائسة لابتلاع مرارة رفضها له ومداواة كبريائه الهشة:

- منظمة هايك كلفتك بأي مهام أخرى هنا؟

- أتسأل لتسلمني إلى الموت مرة أخرى؟

- أعطيكِ مسدسًا وذخيرة وأراقب لك ذاك الباشا ثم تقولين إنني أسلمكِ إلى الموت! يا لك من مغرورة.

لم تعلق، لكنه قرأ على وجهها عدم استساغتها لمزاحه.

- جهزتُ لكِ غرفة في الطابق الثاني ترين منها صليب كنيسة القيامة حتى تصلي ليسوع يا آنسة برطميان.

ضحك ولكنها لم تجارِه، فأمسك عن القهقهة.

- إن أردتِ دارًا مستقلة، فقط أخبريني أي دار تريدين، وستكون ملكك إن كنتِ لا تحتملين البقاء معي في الدار نفسها.

- أنا لا أحتمل البقاء معك في المدينة نفسها. سأتم مهمتي وأترك هذا البلد.

- أوه. أهلكتِ فؤادي بقسوتك يا آنسة برطميان.

نهضت بلا تعليق فقبض على رسغها بعنف مباغت وهو يقول:

- أطلعيني على جميع خطواتك. فهذه المدينة تشتعل بنيران لن تقدري على إطفائها بمفردك يا عزيزتي.

خلصت يدها من قبضته، وقالت بنبرة لا تقل رهبة عن نبرته المهددة:

- لقد أرعبتُ جنرالات الإس إس، تحسبني سأهاب ميليشياتك المفككة؟

٣

قمح مرج ابن عامر

ما من عيب يعجز قلم كوهينور التشيكوسلوفاكي عن إصلاحه.

هذه المعلومة كانت بداية معرفة كيراز بابازيان بذاك الجندي الروسي المدعو فلاديمير.

عاش فلاديمير بالقدس في أثناء الحرب العظمى، وقبيل نهايتها، قاده القدر إلى استوديو كيراز، حيث تفاجأ بأن هذا الأرمني القصير صاحب الكرش الممتلئة والشعر الفضي الغزير، ليس مجرد مصور تقليدي يطلب من المرء الابتسام أو استقامة كتفيه قبل أن يلتقط له صورة.

كان يراه فنانًا، يلعب بالظل وبالخلفيات ويختار الزاوية المناسبة لكل وجه، وأحيانًا يضيف الإكسسوار.

في لقائهما الأول، أخبره فلاديمير بأنه لا يود أن يظهر جانبه الأيمن الذي تشوه إثر شظية قذيفة انفجرت بجواره فأفقدته عينًا وأحرقت جلده.

عرض عليه كيراز نظارة شمسية فخمة، وجعله ينظر إلى أعلى بشموخ وهو يميل البيريه العسكري صوب اليمين، ثم صور بروفايله من اليسار، فبدا فلاديمير فاتنًا ذا هيبة.

استلم فلاديمير الصورة وانبهر بدقة التحميض، وقرر أن يهدي كيراز علبة أقلام رصاص من ماركة كوهينور بعد أن أخبره بأن هذه الأقلام كانت ممتازة لتظليل اللوحات التي كان يرسمها إبان دراسته للفنون في فيينا قبل أن يُستدعى للحرب، ويفقد عينه ويحترق جلده ويهجر الفن.

ظل كيراز صديقًا لفلاديمير إلى أن عرف أنه انضم إلى أبناء المستوطنات في مرج ابن عامر، وأصبح يخطف فتيان العرب ويأسر

رجالهم ويجبرهم على زراعة القمح بالسخرة في أرضه المسروقة، ومن يحاول منهم الهرب يقتله رمياً بالرصاص.

هذا ما يتذكره كيراز كلما استخدم قلم كوهينور لتلوين أي نقاط بيضاء في غير محلها بالصورة بعد تحميضها. تحوَّل فلاديمير من فنان شوَّهته الحرب العظمى إلى مالك عبيد، قرر أن يحبط تمرد عشرين عاملاً فلسطينيًّا على ظروف العمل الوحشية عنده، بأن يحرقهم أحياءً أمام أصدقائه الصهاينة الذين دعاهم ليتفرجوا على هذا المشهد.

يتذكر كيراز أنه أشيع عن هذه الواقعة أن الصهاينة وقفوا يضحكون ويسخرون من صرخات الفلسطينيين الذين احترقوا أحياءً، ويتذكر أيضًا أنه تواصل مع فلاديمير بعد تلك الواقعة ببضعة أيام، وأخبره بأن يأتي إلى الاستوديو ليلتقط له صورة حديثة سينمائية الطابع تليق بأشهر أثرياء المستوطنات اليهودية.

جلس فلاديمير على الكرسي، ووضع نظارة الشمس، وولَّى جانبه الأيسر إلى الكاميرا ثم رفع ذقنه إلى أعلى، ضغط كيراز زر الكاميرا فانطلقت منها رصاصة استقرت في منتصف عنق فلاديمير، ثم دفن كيراز جثته في الأحراش، أسفل شجرة طقسوس سامة.

إنها مسألة الحرق التي حثت كيراز على اختراع هذا المسدس داخل صندوق كاميرته لينفذ أول عملية اغتيال في حياته.

طيلة أعوامه الاثنين والسبعين، لم يحاول أن يغتال العثمانيين الذين شرَّدوه من داره وأبادوا قريته، كما فعل أبناء منظمة هايك الأرمنية بعد الحرب العظمى، بل قتل فلاديمير لأنه أحرق عشرين فلسطينيًّا.

يقول كيراز دائمًا إنه لا يجوز أن يموت أي ابن من بني آدم بالنيران التي خُلق منها الشيطان العاصي. يذكر هذا ليجعل الأمر حياديًّا، كأنه قتل فلاديمير فقط لنصرة الحق.

لكنه يعرف أن هذه العقيدة ليست السبب الوحيد في أن يخاطر

بتقديم رقبته لحبل سجن القلعة. إنها ذكرى وفاة شقيقته في ربيع ١٩٢٢ محترقة في دارها هي وزوجها وابنتها الوسطى، هذا ما جعله يشخصن المسألة ويقتص لأبناء البلد الذي تبناه، منذ أن لجأ إليه بعد سقوط مدينة موش التي دافع عنها هو ورفاقه حتى آخر رصاصة وآخر رجل.

ها هو ذا الآن، يحتسي نبيذ رمان طولكرم من الكأس المنتصبة على طاولته، ثم يضع اللمسات الأخيرة على الصورة الوحيدة التي يملكها لنايري منذ عشر سنوات وقد انتهى من تلوينها يدويًّا.

كان ينتظر مجيئها منذ الأسبوع الماضي، بعد أن وصل إليه أول خطاب منها بعد سنوات من الانقطاع بسبب كثرة تنقلها من مدينة إلى مدينة، فرارًا بحياتها من العثمانيين تارة، ومن النازيين تارة ثانية، ومن جواسيس الصهاينة تارة أخيرة.

أعاد قلم الكوهينور والعدسة المكبرة والألوان إلى أماكنها، ثم سمع جرس بابه يرن في تمام الثانية فجرًا.

وضع الصورة في غلافها ووضعها في صندوقه الأحمر المعدني، ثم خرج من غرفة التحميض صاعدًا السلالم الخشبية التي تئز من وزنه الثقيل.

خرج من القبو إلى الاستوديو، تخطى غرفة التصوير واصلاً إلى مكتبه ثم الواجهة الزجاجية التي انسدلت ستائرها السوداء، وعلقت عليها لافتة تعلن أن المحل مغلق.

أزاح الستائر فوجد إلياس يقف متلفتًا حوله، وفور أن لمح كيراز قال بابتسامة ودود:

- المعذرة يا خال، أردت أن أعطيك حصتك من الرمان لهذا الموسم. ألديك مساحة كافية لتخزينه؟

أجابه بلهجة فلسطينية تحمل لكنة أرمنية طفيفة:

- تفضل يا بُني.

مال إلياس ليرفع سلة ضخمة مليئة بالرمان من على عتبة

الاستوديو، بينما فتح كيراز له الباب ثم أوصده بعد أن دخل.

حين وصلا إلى غرفة التحميض في القبو، وضع إلياس السلة على الأرض فعانقه كيراز بقوة قائلاً:

- حمدًا للرب على سلامتك. هل وفِّقتُم؟

- لم ينجُ منهم أحد يا رفيق. غوارة تاخذهم كلهم!

- وأنتم؟

- لم يصِبنا خدش.

- الرفاق في مخبأ آمن؟

- أرسلتهم إلى دار أمي. سنختفي قليلاً حتى تهدأ الأوضاع.

- وأفراهام؟

- ابن الحرام لم يحضر.

- كيف وقد أكد لنا عابد أنه مدعو للاحتفال؟

- لا أدري، هذا ما كدر سعادتي بنصرنا الليلة.

- لا بد أن هناك مَن حذره، فهو لا يفوت الاحتفال بالدم.

- أتقصد أن بيننا خائنًا؟

- لا ضرر من الحيطة. قِس القماش سبع مرات، ثم قصه مرة واحدة.

استند إلياس إلى المكتب يتأمل أدوات التحميض وعلامات التيه ترتسم على ملامحه الدقيقة.

- ما خطبك يا بني؟

- كنت أعتزم الموت الليلة. ارتديت حزامًا ناسفًا.

- يا إلهي الرحيم! لماذا يا إلياس؟

- لأن هذا الثعبان ينزلق من بين يدَي كلما أحكمت قبضتي عليه. الليلة أقسمت أن أهلكه حتى وإن كان في هذا هلاكي.

- أطاوعك قلبك أن تحرم أمك من صلاة التجنيز عليك؟ ألا يكفي ما صار لـ...

- لهذا كنتُ أود أن أنهي الأمر. لا أقدر على البقاء حيًّا! آكل، أشرب، ألبس، أستحم، أقرأ الكتب، أشم عبير الزهور، وأنا أعرف أن هذا

المجرم حي. ليته قتلني معهم!
- وإن مت، مَن يثأر لآل المقدسي؟ مَن يعتني بأمك وغيدا والطفلين؟ مَن يسترد الدار؟
- تعبت يا خال.
- أعلم يا بني، ولكن شمسنا لن تبقى ساكنة خلف غيومهم إلى الأبد.
ربت كيراز على كتفه، ثم سكب له بعضًا من نبيذ الرمان الذي كان يحتسيه منذ قليل.
ارتشف إلياس من الكأس، فاستطعمه على مهل، ثم قال بابتسامة خافتة:
- أنا أشرب هذا النبيذ الآن بفضل ابنة شقيقتك. لولا وجودها لما تخليتُ عن تلك المهمة الانتحارية.
- نايري وصلت إلى القدس؟
- ونفذت مهمتها بنجاح.
- أي مهمة؟
- يبدو أنها أتت لاغتيال أحد الباشوات المسؤولين عن مذابح الأرمن.
- جريجور اللعين! كيف يوكل مهمة إلى ابنة شقيقتي من دون الرجوع إليَّ!
- لا تغضب، أنت تعلم حساسية وسرية عمليات هايك.
- إنها ابنة أختي وكل مَن بقي لي هي وكيغانوش من عائلتنا، فلا يحق لجريجور الذي بال على حجري أيامًا وليالي أن يلعب عليَّ الآن دور الزعيم السري!
ضحك إلياس، فخفتت حدة غضب كيراز فنظر إلى السلة ثم سأله:
- ماذا تحمل هذه المرة؟
- بندقية ومسدسين والقليل من الذخيرة وبعض الديناميت. هذا كل ما نملكه في القدس الآن.
- هذا لا يكفي لشجار في الشارع.

- نجمع المال لشراء المزيد من مصر.
- كم ينقصكم؟
- المال كثير، السلاح هو الشحيح يا رفيق. ولكننا نريد منك خدمة أكبر.
- وأنا تحت أمر الرفاق.
- نريدك أن توصلنا بنايري. ستشكل أفضل قناة تواصل منذ أن أسسنا حركتنا.
- تواصل مع مَن؟
- مع أفراهام.
- نايري قطعت التواصل معه منذ أن سلمتها زوجته إلى النازيين.
- بمَ تفسر إقامتها معه في الدار إذن؟ عابد تتبعها ورآها تنظر من نافذة غرفة ميلاد.
- الحكاية إذن أكبر من قتل باشا أو اثنين. يا إلهي، فيمَ ورطت نفسها تلك المتهورة!
- لا تقلق. سنبقي أعيننا عليها. لن أسمح بأن تصاب بأي مكروه طيلة إقامتها في القدس. لكني لن أتواصل معها إلا بعد مباركتك بالطبع.
- إن كان هذا سيفيد القضية، فمبارك قرارك. هيَّا، انطلق الآن حتى لا تتأخر أكثر، وأرسل سلامي إلى الرفاق. رعاكم الرب.

* * *

تسقط قطرة على جفنها فتفتح عينيها لتجده يربض فوق صدرها. لعابه لزج، أنفاسه ساخنة، رائحته مقيتة، شعره الأسود قصير، وأنيابه البيضاء تلمع تحت ضوء القمر.
الكلب الشرس نفسه يجثم فوق صدرها ليلة تلو ليلة، يزمجر تارة وينبح تارة أخرى.
يتقطر من فمه دم قانٍ ممزوج بلعابه القذر، من بين فكيه تدلت ذراع طفل، ومن بين قائمتيه ترى رأسين لطفلين توأمين خرجا من

الدنيا معًا كما أتيا إليها معًا.

ينبح الكلب، يلفظ الذراع المبتورة، ثم يفتح فمه عن آخره.

تحاول الصراخ، حنجرتها لا تستجيب.

قطرات الدماء واللعاب تتساقط متسارعة على وجهها، بينما يغرس مخالبه في كتفيها.

يرهقها صراخ لا تسمعه، تتعبها كلمات استنجاد تعافر للخروج من بين شفتيها ولكن لا فائدة.

ينقض عليها ليعض عنقها بوحشية تفاجئها كل مرة، على الرغم من توقعها كل ليلة.

شلل النوم يهيمن عليها هيمنة كاملة، وتعرف أن لا فرار منه إلا إذا سمعت صوتًا عاليًا ينتشلها من عذابات ما بين النوم والاستيقاظ تلك.

غرس أنيابه في عنقها، جذبها يمينًا ويسارًا حتى كاد يفصل رقبتها عن كتفيها.

انتشلها أزيز فتح باب الغرفة من شللها المؤقت، فتحررت من جاثومها واستيقظت.

شهقت بعنف كأن ثقل جبال الكون مجتمعة قد رُفع عن صدرها، ثم نظرت صوب الباب لتجد أفراهام قد دخل الغرفة يقول ويداه في جيبيه وهو يستند إلى الحائط ليتأملها:

- كابوس؟

- ماذا تريد؟

- الفطور.

- اخرج!

- أتريدين تأكيد شائعة أن اليهود بخلاء لا يكرمون ضيوفهم يا آنسة برطميان؟ هيّا، أنا وإيلي سننتظرك في الشرفة.

خرج فمسحت العرق الذي يغطي وجهها بطرف قميص نومها، ثم نهضت عن السرير متجهة إلى الحمّام الملحق بالغرفة.

وقفت داخل حوض الاستحمام أسفل المِرشة، وكادت تفتح الصنبور، ولكن ككل مرة انتابتها رهبة أن ينزل من المِرشة غاز سام يبيدها بدلاً من ماء منعش يبرد بدنها المحموم.

تخطت خوفها كما علمتها الدنيا، وفتحت الصنبور فنزل الماء البارد وتحممت بسلام.

اتجهت إلى الشرفة بعد أن وضعت زينتها الصباحية الرقيقة وثوبها الربيعي المبهج.

تصفح أفراهام جريدة هآرتس العبرية، بينما حدق إيلي إلى الخواء، يبصر هلاوس لا يلمحها غيره.

جلست على كرسي الخيزران، ثم تأملت هيئة إيلي فأدركت كم تغير. فقَدَ الوزن نفسه الذي كان عليه في برلين، فانطبق وجهه على عظمه، وقطنت الهالات السوداء أسفل عينيه.

ما زال أنفه بارزًا شامخًا، لكن عينيه مهزومتان، وما زال شعره كثيفًا ناعمًا لكن يتخلله شيب أبيض. كيف لشاب في مقتبل عشرينياته أن يشيب؟

الآن فقط أدركت أنه قد مرت تسع سنوات على آخر لقاء بينها وبين إيلي، وأن هذا الفراق لم تعوضه الخطابات التي تبادلاها بين مختلف المدن التي لجآ إليها. هي في برلين، وهو في باريس، هي في القاهرة، وهو في هوليوود، هي في بوينس آيرس، وهو في مشفى ميسون العام للأمراض العقلية.

اقتربت من إيلي وأمسكت يده مشفقة على حاله، فانتبه لها كأنه لم يلحظ دخولها من الأصل.

عانقته بشوق وهي تربت على كتفه ورأسه، فأسند ذقنه إليها من دون تعليق، حتى تركته من بين ذراعيها وسألته وهي تتحسس شعره الطويل:

- كيف حالك يا إيلي؟

قال أفراهام:

- حاله كحال أي مدمن بيرفيتين.

دعك إيلي عينيه، ومد يده ليأخذ فنجان القهوة من فوق الطاولة ويحتسيه، بينما قالت نايري:

- بيرفيتين؟ تلك الأقراص النازية اللعينة!

أجابها إيلي بابتسامته الساحرة التي لا تفارقه:

- يزعجك أنني مدمن أم أن الأقراص نازية؟

- يزعجني أنك تود أن تصير مثل جنود الإس إس؛ يتناولون قرصًا يفقدهم الإحساس حتى يواصلوا القتال من دون رحمة.

- اسألي أفراهام إذن لِمَ يعطي قرصًا لكل فرد من عصابته قبل اقتحام القرى الفلسطينية.

حدقت نايري إلى أفراهام الذي لم يرفع عينيه عن الجريدة وهو يقول:

- تقصد استرداد قرى إسرائيل التي احتلها العرب.

- يا إلهي! مهما اتسعت بك الأرض، ستظل حبيس عقلية الغيتو يا أفراهام. إن القدس كانت...

- اسمها أورشليم!

- عبث هو الحديث مع جاهل مثلك!

- جاهل ناجح أفضل من فيلسوف متشائم فشل في الانتحار أربع مرات في أسبوع واحد يا إيلي الصغير.

شهقت نايري وضغطت على رسغ إيلي وهي تقول:

- هل هذا صحيح يا إيلي؟

- أتشككين في دقة معلومات أفراهام؟

- توقف عن سخريتك الطفولية تلك وحدثني بجدية! لماذا تريد الانتحار؟

- لأنه لم يقدم القدر لجنسنا البشري أي هدية سوى الموت.

علق أفراهام بنبرة مرحة لا تناسب قلق نايري:

- أعرف صاحب هذه المقولة، شوبنهاور؟

- ليوباردي. ليت أباك اهتم بتثقيفك قبل تسليحك.
- اللعنة عليك يا إيلي!
كوَّر جريدته وألقاها أرضًا، فضحك إيلي ظافرًا بتعكير مزاج ابن عمه الصباحي.
نظرت نايري لأول مرة إلى مائدة الفطور لتجد طبقًا من الفلافل وآخر من الشكشوكة، وغموس حمص وإبريقًا من شاي المريمية وقهوة عربية وخبز الطابون.
- بحق الجحيم، أي فطور هذا؟
قال إيلي:
- وفقًا لأفراهام فهذا فطور اليهودي الأصيل على الرغم من أنني لم أرَ يهوديًّا واحدًا يطهو صنفًا من تلك الأصناف في أوروبا كلها.
لم يعلق أفراهام، بل اكتفى بأن ابتسم ببرود صوب إيلي وهو يقطع الفلافل بالسكين ويفرد الحمص على الفلافل كما تفرد الزبدة على التوست، ويضع فوقهما لقيمة خبز ثم يغرس فيها شوكته.
علقت نايري:
- العرب يأكلون الفلافل بيدهم.
- لستُ بربريًّا، حتى آكل بيدي.
مضغ هذا الهجين بصوت مزعج وهو يتأمل أناقتها، ثم سألها:
- إلى أين؟
- ليس من شأنك.
- لا تلومي إلا نفسك لو ذهبتِ إلى مكان مفخخ إذن.
- أتنوي تفخيخ حي الأرمن اليوم؟
- ستزورين كيراز؟
- ربما.
- الاختلاط به لن يفيدك. ملف المهمة كله مع جريجور.
انتبه إيلي للجملة فتوقف عن احتساء القهوة سائلًا أفراهام بحدة:
- ما شأنك بالأرمن؟

- أي شأن في إسرائيل هو شأني. ما من دابة تضرب الأرض إلا وعلمت بأمرها.

قالت نايري وهي تشعل سيجارتها:

- إذن لا بد أنك تعرف أن أيوب زهران يعيش في عاصمة البلد الذي ما من دابة تضرب أرضه إلا وقد علمت بأمرها يا قائد.

تلك النظرة النارية أخبرتها بأنها تمكنت منه، فابتسمت لتكيده.

- لماذا لم تخبريني بهذا الأمر أمس؟

- قررت أن أقلدك. فأنت تستأثر بالمعلومات كأنني عدوتك.

ضحك ضحكة مبالغًا فيها، ثم قال:

- لا تدعي قصاصك من بعض القادة المتقاعدين يوهمك بأنكِ قد تصيرين عدوة لي يا حبيبتي.

تحولت ابتسامتها الظافرة إلى غضب مكبوت.

أخذت نفسًا طويلاً من سيجارتها، ثم مالت إلى الطاولة لتخمدها في قرص الفلافل الذي كان يقطعه أفراهام في طبقه.

حملت حقيبتها ورحلت، فبقي أفراهام يتابع خروجها من الحديقة التي تطل عليها الشرفة بمزيج من الغضب والإعجاب حتى ابتعدت عن نطاق نظره كليًا.

سارت إلى آخر الشارع، ووقفت تنتظر مرور حافلة حتى تتمكن من عبور الطريق فارتطمت بها شابة سمراء ذات شعر أسود قصير تحمل سلة من البرتقال.

سقطت السلة فمالت نايري لتساعد الشابة المتشحة بالأسود على جمع برتقالها، وكلتاهما تعتذر إلى الأخرى.

بين البرتقال الملقى أرضًا، رأت ظرفًا أبيض رفيعًا، حملته الفتاة بعد أن لملمت حبات البرتقال كلها، ثم قالت بالعربية:

- هذا لكِ.

- كلّا، لم أرَ هذا الظرف من قبل.

- بل أنا واثقة بأنه لكِ. ولكن لا تقرئيه في العلن.

أعطتها الظرف بثقة جعلت نايري تنقاد إليها وتأخذ الظرف منها، ثم تنتظر صاحبة سلة البرتقال حتى ابتعدت عن الطريق.

انتبهت لصوت خطوات مسرعة خلفها، التفتت لتجد إيلي يقترب منها، فألقت الظرف في الحقيبة حتى لا يراه.

- لماذا تلحق بي؟

- ماذا تريدين من كيراز؟

- ابقَ بعيدًا عن تلك اللعبة القذرة يا إيلي.

- أفراهام يعاديه. وصديق عدوه هو عدوه.

- أتؤمن مثله بأنني لست جديرة بعداوته؟

- بل أومن بأن أفراهام توحش بعد الحرب، ولن يفكر مرتين في قتل أي كائن يعترض مخططه.

أمسك يدها فشعرت ببرودة كفه ورعشتها، ولمحت لمعة الدموع في عينيه.

- عديني بأنني لن أضطر إلى أن أدفنك أنتِ الأخرى.

رقَّ فؤادها لحاله، فعانقته وربتت على ظهره، وقالت بحنان احتوى قلقه:

- لا تخف! أيام أفراهام صارت معدودة.

٤
أذن فأر أرمنيا

تقول الأسطورة الأرمنية إن هايك المغوار قتل بعل الجبار في عام ٢٢٠٠ ق. م. لأنه طغى، فخلص البطل شعبه من بطشه، ثم شيَّد لهم عاصمتهم الأولى هايكشان، وأقام مملكته التي سماها «هايستان» حول جبل أراراط، حيث الزيتون والكروم والكرز والرمان والحمام والخضرة والماء.

من نسل هايك المبجل، أتى ملوك أرمنيا الآريون العظماء، الأسطوريون منهم أمثال هايك، والتاريخيون منهم أمثال تيجران العظيم.

تلك الأسطورة الشعبية الخالدة ألهمت ألبون ليؤلف مقطوعته الموسيقية الأشهر «هايك أبو هايستان».

بالطبع لم يقبل العثمانيون أن ينبثق شعاع ما، يُذكِّر أقلية تُعامَل معاملة مواطن درجة ثانية، بمجدهم، فحُظِر عزف تلك المقطوعة ومُنِع تداولها في أطراف المملكة العثمانية. لكن ألبون تمكن من تهريب بعض نسخها إلى شقيقه أزاد المقيم في برلين، وهكذا نجت تلك الأسطورة الفلكلورية المجيدة من براثن النسيان، وهكذا استطاع كيراز الاحتفاظ بنسخة أرسلتها إليه كيغانوش بعد انتقالها ونايري للعيش في برلين مع عمهما، فأصبح طقسًا مقدسًا أن يشغلها كل عام مع اقتراب ذكرى مذابح الأرمن.

هكذا أمضى إجازته في تمام السادسة صباحًا، يدندن مع الكورال الأوبرالي الملائكي الذي ينشد بالأرمنية، بينما يسقي زهور أذن الفأر الزرقاء اليانعة في شرفته.

تلك الزهور التي كان عبيرها آخر طيب شمه من أرض وطنه قبل أن يشرد، ولا يعرف أنفه من بعدها سوى رائحة الحرائق والجثث والعرق

والمرض والظلم والموت.
قطع ذكرى وطنه وشهدائه وزهوره، جرس باب الاستوديو الذي يحتل الطابق الأول من داره، فمد رأسه من شرفته المطلة على الشارع الرئيسي ليتفقد الطارق.
كان الرفيق عابد، يتلفت حوله بارتياب ملحوظ، فنزل كيراز إليه.
فور أن فتح الباب، ابتسم له عابد الشاب وقال:
- صباح الخير يا خال.
- ماذا تريد في هذه الساعة؟
- أرسلوني إليك لأسترد الرمان.
- ادخل!
دخل عابد مع كيراز إلى الاستوديو، وتبعه حتى غرفة التصوير الخلفية.
أجلسه كيراز على الكرسي المستدير المقابل لكاميرا اقتصت لعشرين فلسطينيًا من قبل، ثم سأله:
- أي رمان يا عابد؟
- إلياس أرسلني حتى أسترد منك السلاح.
- لماذا؟
- سننفذ عملية جديدة الليلة.
- الليلة؟
- نعم.
- أين؟
- غير مسموح لي أن أشارك أي تفاصيل معك يا رفيق. أنت تعلم هوس إلياس بالسرية.
بدأ كيراز يتحسس زر الكاميرا ويتفقد عدستها وهو يقول:
- مَن أرسلك يا عابد؟
- قلت لك إلياس.
- إلياس أم أفراهام؟

- كيف تجرؤ!
- أنت مَن أخبره بأننا سنفجر المطعم؟
- لست واشيًا!
- أنت الوحيد الذي تملص من المهمة ولم يذهب مع الرفاق.
- لأن دوري مراقبة الهدف فحسب.
- وإن كان دورك مراقبة الهدف، لماذا لم تخبرهم بأن أفراهام لن يأتي؟
- كيف لي أن أعرف أنه سيخالف عادته هذه الليلة؟
- مبرر منطقي. لكن ينفيه أنك لم تخبرنا بأن ابنة شقيقتي مقيمة مع أفراهام.
- وكيف لي أن أعرف شكلها؟ حسبتها مجرد امرأة تقيم في داره.
- أصارت داره يا عابد؟
- زلة لسان يا خواجة. ما لك تتحامل عليَّ اليوم؟
- كم دفع لك؟ يدفع لي مائتَي جنيه مقابل كل معلومة أعطيها له.
- مائتان!
- ليست تسعيرته المعتادة، لكن ينقدني هذا المبلغ لأنه مدين لي بحياته. هل أخبرك كيف نجا هو وإيلي من النازيين بفضل قريبي أزاد؟
- لم يخبرني شيئًا لأنه ليس صديقي. أنا أراقبه من بعيد وفقًا لتعليمات الرفاق وحسب. لست خائنًا.
- حسنًا، سأخبرك أنا كيف نجا أفراهام من الموت بفضل أسرتي، ولكن ليس قبل أن نتفق على نسبتي إن دللتك على مكان السلاح.
- ستسلمني السلاح مقابل المال؟
- ألا تقولون في المَثَل: اللي معاه فلوسه بنت السلطان عروسه؟ كم ستدفع لي ليصبح السلاح سلاحك؟
- أنت تخادعني يا خواجة. لن تشي بشباب المقاومة الذين تعتبرهم أولادك.

- وهل الوشاية هي الحل الوحيد للاستفادة من هذا الموقف يا حمار؟
- اليهود يدفعون للجواسيس فقط.
- ومن أجل المال تساعد هؤلاء اللصوص في قتل إخوانك؟
- نحن موتى بالفعل. لا تثملنَّك شعارات الفدائيين يا ختيار. هؤلاء المتوهمون يظنون أن قنبلتين ستخرجان المستوطنين من فلسطين. والله سيبيدنا الإنجليز والصهاينة عن بكرة أبينا، إنها مسألة وقت لا أكثر.
- وإن متنا فعلاً، أهكذا تود أن يكون ذكرك بعد موتك؟
- مَن سيذكرني يا خواجة؟ أمي ماتت بقنبلة في سوق الخضار، وأبي مات في تفجيرات باب العامود، وهأنذا أمامك، لا مال ولا بنون ولا يحزنون. متُّ بطلاً أو كيس خيش، هكذا ميت وهكذا ميت.
- أهذا رأيك الأخير؟
- نعم. إما تخبرني عن مكان السلاح، وإما تعطيني ثمن تستري عليك.
- لديَّ اقتراح ثالث، تخبر أفراهام بأنك فتشت الاستوديو والدار إنشًا إنشًا من دون أن تجد فارغ رصاصة واحدة، ثم نبيع نحن السلاح.
- لمَن؟
- لمَن يدفع أكثر.
- كم قطعة تملك؟
- فلتعدها بنفسك.
ترك كيراز زر الكاميرا واتجه صوب عابد، ومد يده قائلاً:
- أثبت لي حسن نيتك وأعطِني سلاحك.
- لا أملك سلاحًا.
- وما هذا البارز من عصعصك؟ ذيل؟
تردد عابد، لكنه انهزم في النهاية أمام إصرار كيراز، أخرج مسدسه المخفي في جرابه خلف ظهره قائلاً:

- هاك! ولكني سأبقي رصاصاته معي.

وضع رصاصاته في جيبه والمسدس في راحة كيراز الذي أخذه منه وقال:

- حسنًا يا ناصح. هيَّا بنا.

- إلى أين؟

- أتظنني أحمق حتى أخبئ السلاح في داري؟

انطلق عابد مع كيراز إلى أطراف المدينة من دون كلام حتى نزلا الوادي.

صفَّ كيراز سيارته، وطلب من عابد إكمال الطريق سيرًا على الأقدام، لأن المنحدر وعر يصعب نزوله بالسيارة.

نزل يتلفت حوله متربصًا بكيراز حتى وصلا إلى أسفل التل، حيث الشجر المتعانق الذي خبأت فروعه وظلاله شاحنة عتيقة متفحمة تشبه شاحنات نقل جنود الحرب العالمية الأولى.

وقف كيراز أمام الشاحنة المغطاة مؤخرتها بغطاء جبرديني أسود له سحاب، شد السحاب ففاحت رائحة الرمان وهو يقول:

- أزاد هرَّب إيلي وأفراهام في شاحنة أكبر من هذه ولكن بدل الرمان، كان بداخلها بيانو.

أشار إلى عابد قائلاً:

- السلاح خلف الصناديق.

تردد عابد للحظة، لكنه صعد إلى الشاحنة بعد أن قال لنفسه «ماذا سيفعل كيراز العجوز بمسدس فارغ؟».

فحص الصناديق في مؤخرة صندوق الشاحنة، بينما استكمل كيراز حكايته وهو يتفقد صناديق الرمان التي بالمقدمة من دون أن يصعد مع عابد.

- مرت شاحنة البيانو أمام أعين النازيين من دون أن تثير ريبتهم. أجروا تفتيشهم النمطي، راجعوا أوراق أزاد، فتشوا جيوبه، ثم صعدوا إلى الشاحنة. نظروا حول البيانو، بداخله، طرقوا

على جدران صندوق الشاحنة، لكنهم لم يفكروا ولو ثانية أن يفحصوا ألواح الأرضية الخشبية المزيفة، حيث كان أفراهام وإيلي متسطحين بينها وبين الأرضية الأصلية. هرَّبهما بنجاح، ولكن هناك مَن وشى به، ولذلك في طريق عودته إلى داره، قبض ضباط الإس إس عليه وشنقوه.

- لا يوجد أي سلاح هنا يا خواجة! أتراوغني؟

- السلاح هنا، ولكنك مثل النازيين، تطلعت إلى الأمام من دون أن تنظر إلى أسفل قدميك.

نظر عابد إلى أسفل قدميه من كثب، فوجد بين ألواح الخشب معدنًا يلمع فأدرك أنه وجد مراده، لكنه لم يلحق أن يخلع الخشب ليأخذ غنيمته، فقد انطلقت رصاصة من فوهة مسدس كيراز لتستقر في مؤخرة رأس الرفيق الواشي.

عابد انشغل بتفتيش الرمان ولم ينتبه إلى أن أول صندوق بجوار كيراز كانت به ذخيرة، انتشل كيراز منها رصاصة لقم بها المسدس الذي أخذه منه في الاستوديو، فقتل الخائن بمسدسه الشخصي هنا في الأحراش، فهو لم يَعُد قادرًا على حمل الجثة ونقلها من الاستوديو كما فعل مع فلاديمير، ركبتاه تؤلمانه.

راقبه كيراز وهو يسقط بين رمان طولكرم، تخرج من حلقه حشرجة حادة وهو ينظر إلى كيراز بغضب كأنه يريد توبيخه، لكن الأخير قال:

- أتمنى ألا تزعجك جيرة فلاديمير أسفل شجرة الطقسوس.

* * *

قطعت نايري سوق البازار، حيث باعة سلال الخوص والخضر والفاكهة الطازجة ودكاكين الصابون والإسكافيين والخياطين.

وصلت إلى باب النبي داود، ليكون محطتها الأخيرة قبل الخروج من حارة النصارى إلى حارة الأرمن.

مرت بكاتدرائية القديس يعقوب بحوائطها ناصعة البياض، التي انعكس عليها ضي شمس البكور الخجل فبدت كحمامة نقية، ثم بدير

البطريركية، حتى لمحت بداية الشارع الذي حفظت وصفه عن ظهر قلب.

كانت أصص زهور أذن الفأر الأرمنية تملأ شرفات الحارة العتيقة المبلطة بالحجارة.

على يمينها استوديوهات تصوير وصالات تدريب باليه ومحال آلات موسيقية، وعلى يسارها دكاكين إصلاح ساعات ومكتبات ومحال زهور، حتى وقفت أمام محل مدخله مطلي بالأزرق الفاتح، معلق عليه لافتة مكتوبة بالأرمنية والعربية: **زهور آفو**.

أمام المتجر كان يجلس مسنان يلعبان الشطرنج، يسب أحدهما الآخر ويتهمه بالغش، فقالت لهما بالأرمنية:

- صباح الخير. هل باقة أذن الفأر التي حجزتها موجودة؟

التفت إليها المسنان، وقال أحدهما:

- أرمنيتك ركيكة يا بنت. أتعرفها يا آفو؟

نظر إليها آفو العجوز، ثم سألها:

- ما كُنيتك؟

- برطميان.

قال آفو لصديقه:

- إنها ابنة شقيقة كيراز، عاشت في برلين طيلة حياتها، لذلك لكنتها ضعيفة.

- إذن أنتِ ابنة ألبون الملحن؟

- نعم.

- كنت من أكبر المعجبين بموسيقى أبيكِ.

قاطعه آفو:

- دع الفتاة تكمل ما أتت من أجله. اذهبي يا ابنتي إلى الداخل، ستجدين بابًا على يسارك، اطرقيه ثلاث مرات متتالية، ثلاث مرات فقط لا تنسي.

ابتسم لها ابتسامة طيبة، بادلته إياها ثم استأذنت لتدخل محل

الزهور.

نفذت تعليمات آفو، طرقت الباب ثلاث مرات، فسمعت حركة خفيفة ثم صوتًا خشنًا يسألها:

- مَن؟

- أتيت لاستلام باقة زهور أذن الفأر التي حجزتها منذ أسبوع.

سمعت مزيدًا من الحركة ثم خشخشة المفتاح وهو يدور بالقفل، ثم أزيز الباب يُفتح.

فتح لها الباب شاب في منتصف ثلاثينياته يرتدي مئزرًا وقفازين. سمح لها بالدخول ثم أوصد الباب خلفها.

دخلت الغرفة الضيقة ذات الإضاءة القوية التي كانت ممتلئة بالمزهريات والزهور وأدوات تشذيبها.

أعاد الشاب وصد الباب، ووضع مفتاحه في جيب مئزره، ثم ربَّع ذراعيه وأخذ يتأمل نايري بصمت وتَّرها، فكسرت سكون الغرفة وهي تسأله:

- أنت جريجور؟

- وأنتِ لست كيغانوش... كيغانوش تكبرني عمرًا وأنتِ بالكاد في العشرين من عمركِ.

- أشكركَ على إطرائك، في الواقع سأتم عامي الثامن والعشرين بعد شهر.

تفرست ملامحه الجامدة، وتيقنت أنه لم يقدر مزحتها، فأضافت بجدية:

- أنا شقيقتها الصغرى، نايري.

- كيغانوش لم تخبرني بأنها سترسل أحدًا مكانها.

- هذا لأن مَن راسلتك طيلة الفترة الماضية لم تكن كيغانوش، بل أنا.

- زيفتِ توقيع شقيقتك وسرقتِ ختم منظمتها؟

- ليست منظمتها وحدها!

فتحت حقيبتها، ثم أعطته الظرف الورقي.
فضه فوجد بداخله دبوس رمانة ماردين وعليه دم مراد باشا.
قالت متفاخرة:
- العملية تمت بنجاح تمامًا كما لو كانت كيغانوش هي التي نفذتها.
- كان من المفترض أن تسلمي نفسك للسلطات، حتى تلفت أنظار الصحافة العالمية كما فعل سوغومون في مقتل طلعت باشا. ولكن هأنذا أراكِ أمامي حرة طليقة. إذن العملية فشلت فشلاً يندى له الجبين!
- هذا ما حاولتُ فعله، ولكن الأمور تعقدت.
- المطعم انفجر وأُلصق مقتل الباشا بالمقاومة الفلسطينية. لم نستفِد شيئًا!
- كيف لم نستفِد من القصاص لأسرتي؟
- هذه استفادة شخصية لا تفيد قضية قومك!
أعاد الدبوس داخل الظرف وأعطاها إياه، فتوترت وقالت:
- سأكون حذرة في المهمة القادمة.
- ما من مهمة قادمة.
- لكنك قلت إن عباس باشا في حيفا.
- قلت هذا للعقل المدبر لجمعيتنا بعد وفاة أزاد، وليس لشقيقتها الهوجاء.
- لا داعي للتعالي يا جريجور. أعرف تفاصيل عمليتك الأولى في فيينا. وقفت في منتصف الشارع تضغط على زناد مسدس نسيت أن تحشوه بالرصاص من الأساس.
نظر إليها بحنق، لكنه لم ينكر ما قالته، فأردفت بنبرة أهدأ:
- أعرف أن عباس ما زال في حيفا. ألديك أحد غيري ينفذ المهمة، بعد أن أعدم النازيون كل أفراد المنظمة؟
- ليس هدفنا القتل لأجل القصاص، لا نريد سوى محاكمة دولية عادلة واعتراف عالمي بما فعله هؤلاء القتلة بقومنا.

- أعدك بأنني سأجعلهم هذه المرة يكبلونني بالأصفاد حتى نحصل على محاكمة أعظم من محاكمة نورمبرغ.

- الوضع ليس آمنًا في حيفا، وخالك سيقتلني إن أُصبت بخدش. لقد انجلى الإنجليز عنها أمس، بعد أن وزعوا منشورات تفيد بأن...

- سأذهب على مسؤوليتي الخاصة. سأقول لكيراز إنك لم تكن تعرف. كما أنه لا يدري بعد أنني في القدس، وأرجو منك ألا تخبره حتى أُنهي مهمتي.

زفر مستسلمًا أمام حماسها لقضية قومها، فاتجه إلى طاولة الأدوات الزراعية التي تتوسط الغرفة، وسحب من أسفلها ظرفًا ملتصقًا بباطنها وقال:

- احفظي كل ما في هذا الظرف، ثم أحرقيه قبل أن تخرجي. سيري حتى حارة اليهود، ثم خذي سيارة أجرة لتصلي إلى حيفا خلال ساعتين. لا تأخذي القطار تحسبًا لأي انفجارات تنفذها عصابات اليهود. ستجدين رفيقًا فلسطينيًّا ينتظرك عند دار عباس ليعطيك سلاحك، ستقولين له...

- معي سلاحي وفائض من الذخيرة.

- من أين أتيتِ بها؟ إذا رآكِ أحد أفراد حكومة الانتداب أو اليهود تحملين ولو رصاصة فارغة فسيعتقلونكِ.

- ماذا لو قلتُ لك إن اليهود أنفسهم هم مَن يوفرون لي السلاح، وإنني نفذتُ عملية الأمس تحت حمايتهم؟

لا تدري أي خطأ ارتكبت، فلقد تغيرت ملامح جريجور، ولمعت عيناه الداكنتان الواسعتان غضبًا.

- تعاونتِ مع الصهاينة؟

لم تُجِب، فسحب ظرف المعلومات منها بعنف وهو يقول:

- لن أسترد شرف أجدادي برصاص الاستيطان.

- لا تعطِ الأمر حجمًا أكبر منِ حجمه. أحد اليهود مدين لي بخدمة

شخصية لذلك ساعدني.
- لن ألطخ قضيتنا بعار لصوص وطني.
- وطنك!
- نعم! هنا تربيت وهنا زرع أبي الزهور. لي ثأر شخصي مع تلك الميليشيات اللعينة التي تقتل الفلسطينيين الذين ترعرعت معهم، وتشردهم من ديارهم كما شردنا العثمانيون من ديارنا الأولى. وإن كنتِ تريدين غض الطرف عن هذه الجريمة، فعارٌ عليك أن تجري في عروقك الدماء نفسها التي تجري في عروق كيراز، والتي جرت في عروق عمك الذي مات مدافعًا عن قوم غير قومه. هيًّا! عودي من حيث جئت!
- لم أسافر من برلين إلى القدس وأخاطر بحياتي بين هذه القنابل والفخاخ اللعينة حتى تحرمني أنت من قصاصي. سأنفذ هذه العملية بمساعدتك أو من دونها.
أعطته ظهرها منتشلة الظرف من على الطاولة، وفتحت حقيبتها لتضعه فيها، لكنه جذبها من رسغها فتفاجأ بها تستدير وترفع مسدسها صوبه وهي تقول بحدة:
- أعطِني المفتاح.
- لن تطلقي الرصاص عليَّ!
أطلقت رصاصة مرت بجوار أذنه واستقرت بإحدى المزهريات خلفه.
صرخ ألمًا بسبب الطنين الذي خلفه ضغط الرصاصة، فصاحت فيه:
- المفتاح! الآن!
ألقاه صوبها وهو يسبها، فألقت الظرف في حقيبتها وفتحت الباب، وخرجت مسرعة ثم أوصدته خلفها.
قابلها آفو عند مدخل المحل يسألها عن مصدر صوت الرصاص فأجابته باسمة:

- جريجور كان يختبر قدرتي على التصويب.

ثم أسرعت الخطى تبتعد عن المحل قبل أن يُكتشف أمرها.

وصلت إلى حي اليهود وأشارت إلى أول سيارة أجرة مرت من أمامها، فحدثها السائق بالعبرية:

- ثلاثة جنيهات.

- كثير!

- خذي القطار، ولكن صلِّي قبلها ألا يكون مفخخًا.

ركبت السيارة، ولم ينطلق السائق إلا بعد أن أخذ منها الجنيهات الثلاثة مقدمًا.

فتحت حقيبتها لتخرج ملف عباس باشا لدراسته، فوجدت الظرف الأبيض الذي أعطته لها صاحبة سلة البرتقال.

فتحته لتجد بداخله ورقة واحدة مكتوبة بأحرف عربية منمقة:

إلى رمانة ماردين الأبية

أعلم أن طريقة تعارفنا لم تكن الأمثل، وأعتقد أنك لا تتمنين التعرف عليَّ من الأصل، بسبب الأكاذيب التي لا بد أنها قيلت لكِ عني.

دعيني أخمن بعضها، أفراهام قال لكِ إن أبي إرهابي وأولاده ورثوا طباعه التخريبية، وإن أخي إدوارد فجَّر أباه بالديناميت. صحيح؟

لا أدري إن كان لديك ما يكفي من الحيادية حتى تصدقيني أنا العربي الغريب عنك، وتكذبي جارك وصديق طفولتك الذي دفع عمك حياته ثمنًا حتى ينقذه من رصاص هتلر.

لكني سأقترح عليكِ اقتراحًا بسيطًا، اذهبي إلى رابع غرفة في الطابق الثاني من الدار التي يستضيفك فيها بسخاء على أنها داره، ستجدين أن ستارتها التي طرزتها أمي بتطريزة صلبان بيت لحم الملونة بها حرق صغير من سيجارة دخنها أخي البكري ميلاد سرًا في مراهقته، ثم حاول أن يلقيها من النافذة قبل أن يمسكه

أبي بها متلبسًا. اذهبي إلى القبو، ستجدين رسومًا لشجرة برتقال وأغصان زيتون وأسماك وطيور على الحائط بحبر سرقه إدوارد في طفولته من مكتب أبي، وأخذ يعبث به مع أولاد أخوالي. أعتقد أن الأثاث كما هو. لم يستبدلوا صندوق الصدف العكاوي بغرفة نوم أبويَّ، ولا كراسي الخيزران الغزاوي بالشرفة، ولا خداديات الأرائك الخشبية التي طرزتها أمي وأخواتها لجهازها، ولا ملاءات وسجاجيد النول المجدلاوي، ولا حصائر الحولة. اذهبي إلى شجرتَي البرتقال في الحديقة، كان أبي قد ابتاع شتلتيهما من يافا قبل الحرب العظمى. أخي إسكندر كتب أسماءنا على جذع إحداهما، وقد وبخته أمي ومدته على يديه لأنه آذى الشجرة. لن تجدي اسمي على الجذع لأنني لم أولد في هذه الدار. أورباخ والد أفراهام هجَّر أبي وأمي وإخوتي منها قبل مولدي، لكن عائلتي وصفت لي كل شبر فيها. أعرف تفاصيل داري التي حُرمت من سكناها أكثر مما يعرفها أفراهام الذي استوطنها، مدعيًا أنها ملك لوالده، كأن الفَرس لا تعرف صاحبها، أو كأن للص أن يصير مالكًا لما نهبه!

قد تتساءلين لماذا أبالي برأيك على أي حال، سأقول لكِ لأنني وجدت نفسي بين الكلمات التي صحتِ بها حين تظاهرت بأنني أقبض عليك. أنا مثلك، أود الثأر لعظام أهلي واسترداد ما نُهب من وطني، ونحن نعتقد أنه يمكنك مساعدتنا في ذلك.

إذا غيرتِ رأيك بخصوص مصادقة الصهاينة واهتديت إلى طريق الحق، فستجدينني.

حظًّا موفقًا في اغتيالك لعباس باشا، لقد سمحنا لأنفسنا أن نخرب سيارته حتى نعطل هروبه من حيفا بعد أن علم بمقتل صديقه مراد، ليكن هذا تعويضًا بسيطًا عن تخديرنا لكِ أمس.

مع احترامي وتقديري

الرفيق المقدسي

ملحوظة: يؤسفني أنني أخذت منك نوفيلا «قلب الظلمات» قبل أن تنهيها. أحييكِ على اختيار عمل عظيم يضرب الجشع الإمبريالي في مقتل، ولكن هذه النوفيلا بالذات كانت عزيزة على قلب أبي، لأنها أول كتاب إفرنجي ضمه بنفسه إلى مكتبته التي ورثها عن أجداده، والتي كانت مفتوحة لأهل القدس ليقرأوا ويستعيروا منها ما يتمنون. آل المقدسي لم يرفضوا يومًا أن يعيروا كتبهم لأي قارئ، آمن أجدادي بأن الكتب أقدس من أن يحتكرها أي مثقف ويبقيها على رفوف مكتبته حتى يلتهمها التراب. لذلك إن أردتِ استعارة النوفيلا مرة أخرى يمكنك أن تطلبيها مني أنا، الوريث الأصلي لمكتبة آل المقدسي وليس من سارقها.

انتهت من قراءة الخطاب، وظلت تنظر إلى الورقة، متأملة كل حرف فيها ثم ابتسمت.

أخرجت سيجارة من حقيبتها، وضعتها في مبسمها فأشعلتها، ثم أحرقت بها طرف الخطاب.

راقبت النيران تلتهم الورقة، ثم ألقتها من نافذة السيارة.

٥

كرز موش

صفَّ كيراز سيارته أمام محل زهور آفو. أحكم إغلاقها ثم دخل ليجده جالسًا إلى مكتبه يجاوره جريجور الذي يضغط على أذنه ويطقطقها وهو يردد بصوت عالٍ بعض النغمات كمن يتدرب على عرض أوبرالي.

وقف كيراز أمامهما بهيئة رثة وقميص مترب وجبين متعرق ليقول:

- ماذا تفعلان يا أحمقان؟

أجابه آفو:

- نعالج الإصابة التي سببتها ابنة شقيقتك لولدي.

- نايري هنا؟

أجابه جريجور:

- رحلت بعد أن هددتني بمسدسها. أيرضيك؟

- لا تلجأ إليَّ بعد أن تواصلت معها من وراء ظهري.

- هذا ضروري. كيف تكون عملية سرية إذا سربت تفاصيلها إليك؟

- يا لك من محترف! أين هي الآن؟

- في طريقها إلى حيفا.

- في هذا التوقيت!

- حاولت منعها، لكنها أطلقت الرصاص عليَّ!

- شفاعتك يا عذراء! لو أصيبت بخدش واحد، فأنت المسؤول أمامي يا جريجور.

- لا تقلق. نصر الله سيلقاها هناك.

ظل يرمقه بالضيق نفسه، فتوتر جريجور وقال محاولاً تغيير

الموضوع:

- ما كل هذا الطين على ثيابك، أكنت تبحث عن كنز مفقود؟

- كنت أدفن عابد يا ظريف.

صاح آفو:

- بحق الجحيم يا كيراز! أنت تبحث عن فتيل المشكلات فتشعله ثم تضع الديناميت في فمك!

- خائن وشى برفاقه، ثم أتى إلى داري حتى يتجسس عليّ. ماذا تفعل لو كنت مكاني؟

- أُخبر رفاقه وأترك لهم حرية تقرير مصيره.

- فيفر قبل أن يجدوه وينخر في عظام المقاومة أكثر؟

قال جريجور:

- ماذا ستفعل الآن؟ لا بد أن اختفاء عابد سيثير ريبة أفراهام.

- لذلك أريد أن أخبئ سلاح الرفاق عندكما، إن كنتما لا تمانعان.

قال آفو:

- خذ يا جريجور عربة الزهور، وانقل السلاح إلى المخزن في الحائط المجوف.

ابتسم كيراز وهو يتابع جريجور ينهض ليحضر عربة البستنة وما يلزم، فهمس رابتًا على كتف صديق طفولته:

- ألم تشتق إلى يوم كنا نهتف فيه باستقلال هايستان وحريتها؟

- يا رفيقي أنت تشتاق إلى العزيمة وإلى الثورة، وأنا لا أشتاق إلا إلى طبق سجق مشوي بالرمان كانت تعده لي أمي كل أحد، وإلى صوت أبي وهو يوبخني لأني أسرفت في الشراب، وإلى شجاري مع أخي الفقيد لأني استعرت منه سترته من دون استئذان. أشتاق إلى يوم كانت زوجتي تطعمني فيه كرز موش المغسول بماء نهر الفرات. ألا يجوز ذلك لعجوز مثلي؟

- يجوز يا نديمي. لعن الرب السلاح والنيران والحرب والطغيان.

* * *

لم يكن لدى نايري ما يكفي من الوقت لتأمل معالم الطريق من القدس إلى حيفا.

قد تكون لفتت حواسها رائحة أشجار ليمون أريحاء أو أعجبها شكل الديار ذات الأسقف القرميدية الحمراء المتراصة على شط يافا. قد تكون رائحة صابون نابلس غزت أنفها، أو انشرح صدرها لمنظر أشجار زيتون نيسان.

لمحت كل هذا في نظرات خاطفة تتفقد بها الطريق، ثم تعاود التركيز على تفاصيل ملف عباس باشا.

روتينه اليومي هو الاستيقاظ، السير على قدميه مع خادمه إلى الشاطئ، يجلس على الرمال، يكتب مذكراته، خادمه يعد له غداءه على البحر، يأكل ثم يعود إلى داره يشرب شايه التركي المختمر، يطالع الأخبار في الإذاعة ثم ينام.

حياة هادئة مستقرة لا يستحقها سفاح متقاعد.

حفظت ملامح وجهه، وملامح خادمه، وملامح سائقه، وطراز سيارته وأرقام لوحتها.

أعادت الملف إلى حقيبتها أسفل مسدسها، ثم نظرت حولها لتجد جسرًا على بعد مائة متر من السيارة.

أوقف السائق سيارته قبيل الجسر، وأشار إليها أن تنزل.

تلفتت حولها، ثم قالت:

- لم نصل بعد إلى وادي النسناس.

- لا أدخل المناطق العربية. يمكنكِ الوصول سيرًا، لن يعترضوا امرأة.

نزلت من السيارة وهي تلعن سلالة السائق، ثم صفقت باب السيارة بعنف، فسبها هو الآخر ثم عاود طريقه بعيدًا عن الجسر.

لم تجد علامة مميزة تدلها على الطريق، لا ترى إلا ديارًا من الحجر الأحمر ذات أسقف قرميدية تتعانق على سطح جبل الكرمل الأخضر، ثم تتدرج برقة حتى شاطئها وميناءها.

لازمت حيد الطريق حتى لا تدهسها السيارات إلى أن سمعت

صوت جرس قادمًا من خلفها.
التفتت فرأت صبيًّا، خمنت أنه في العاشرة من عمره، يرتدي زيًّا مدرسيًّا وطربوشًا أحمر، وعلى ظهره حقيبته المدرسية، يقود دراجة خضراء في سلتها الأمامية قرطاس صغير.
توقف الصبي بجوارها وهو يسألها:
- تائهة يا آنسة؟
أجابته باللهجة المصرية:
- «أبخث» عن منزل بالقرب من جامع الجرينة. أيمكنك أن تدلني على الطريق؟
- سأوصلك بنفسي، فأنا أعرف كل الديار هنالك.
صعدت خلف الصبي وهي تشكره.
دس يده في القرطاس ثم بسط راحته لنايري فوجدته يقدم لها حبات خضراء مزغبة.
أخذتها منه، كان ملمسها طريًّا مخمليًّا، فشمتها وقالت:
- أهذا لوز؟
- لوز أخضر قطفته خالتي من شجرة دارها.
ذاقته، فتفاجأت من الحموضة الخفيفة التي لسعت لسانها مخلوطة بنعومة اللوز، بينما عبر الفتى الجسر وهو يسألها:
- ما اسمك؟
- نايري. وأنت؟
- عمّار. لستِ مصرية، صحيح؟
- فضحتني لهجتي؟
- قلتِ أبخث، لا أبحث. الحاء العربية تأتي من وسط الحلق. كرري معي، أبحححححث.
ضحكت.
- من أين أنتِ؟
- أرمنيا.

- بلد دراكولا؟
- تلك رومانيا.
- ألديكم يهود في أرمنيا؟
- أتكره اليهود؟
- اللصوص منهم فحسب.
- وما الذي سرقه منك اليهود يا عمّار؟
- سرقوا دار عمتي في طبريا منذ يومين، فانتقلت هي وزوجها وصبيانهما الخمسة للعيش معنا. ألم تقرئي الخبر في جريدة فلسطين؟

* * *

انتهى الأرمنيون الثلاثة من تخزين السلاح في مخزن المحل بغرفة تجهيزات باقات الزهور، داخل الحائط المزيف الذي اعتاد آفو أن يخبئ فيه أسلحة الفلسطينيين في أثناء ثورة ١٩٣٦، حتى يحميهم من مشانق الإنجليز.

أعاد جريجور كل شيء إلى مكانه خلف الحائط، حتى لا يصبح لافتًا للأنظار، بينما اتجه آفو إلى المطبخ في شقتهما التي تحتل الدور فوق المحل مباشرة ليعد لهما الفطور.

دخل كيراز يحمل عربة البستنة فوقها غطاء، فقال جريجور:
- ظننت أننا نقلنا السلاح كله.
- هذه ليست بنادق ولا مسدسات، إنها قنبلتي الذرية المدمرة.

أوقف العربة بالقرب من الحائط، ورفع عنها الغطاء كاشفًا عن عشرة صناديق معدنية حمراء صغيرة مكتوب عليها كلمة «Gevaert».

تأمل جريجور الصناديق، ثم قال:
- ما المدمر في ورق طباعة الصور يا عمي؟
- هذه العلبة تحتوي على أشرطة آلاف الصور التي ستقص على العالم حقيقة فلسطين كاملة.

- وماذا تنوي أن تفعل بها؟
- إذا مت، فسيأتي إليك شخص وسيسألك عنها.
- أي شخص هذا؟
- أقسمت إنني لن أكشف اسمه لأي مخلوق ولو سلخوني حيًّا. فنحن ندين له بأغلب المعلومات التي جمعناها عن العصابات اليهودية المسلحة.
- أخبرني على الأقل كيف سأعرفه.
- سيسألك عن أوراق الإلهة فيريتاس. عدني يا جريجور بأنك ستكافح غباءك ولن تنبس ببنت شفة عن تلك الصناديق إلا لصاحب كلمة السر.
- أعدك بأنني لن أتكلم عن الأمر ولو حتى بيني وبين نفسي.

٦
لوز حيفا

أمسكت نايري بقبعتها بيد، وبمقعد دراجة عمّار باليد الأخرى حتى لا تسقط عنها من وعورة المنحدر المؤدي إلى وادي النسناس.

طيلة الطريق، لعب عمّار دور المرشد السياحي وهو يشير إلى معالم المدينة فيقول: هذا المشفى العربي، هذه السوق القديمة، هذا أفضل مخبز في حيفا، هذا شارع اللنبي، هذا شارع الحجاز، هذا شارع العراق، هنا البلدة القديمة، وهذا الحد الفاصل بين الأحياء العربية وبين المستوطنات اليهودية التي انجلى عنها آخر إنجليزي مساء أمس، وهذا جامع الجرينة.

توقف أمام الجامع المبني على الطراز العثماني، فنزلت نايري عن الدراجة وشكرته وهي تفتح حقيبتها.

خبأت المسدس حتى لا يلمحه عمّار، وأخذت تبحث عن بعض الملاليم لتعطيها للصبي إكرامية كما جرت العادة الأوروبية، لكنها تفاجأت به يضع قبضتين من اللوز الأخضر في حقيبتها، وهو يقول مشيرًا إلى إحدى البنايات:

- هذه دارنا، وهذه...

قاطعه صوت ينادي من بعيد:

- عمّار!

التفت عمّار ومعه نايري إلى صاحب الصوت.

كان رجلاً في أواخر العشرينيات، رفيع القوام، فارع القامة، يخط وجهه شارب رفيع، يرتدي بدلة صيفية من قميص أبيض وسترة سوداء يتوّجها بحطة فلسطينية على رأسه فوقها عقال، ويقلب مِسبحة من تسع وتسعين حبة سوداء بينها شواهد حمراء.

اقترب الرجل ذو الخطى الواسعة وهو يضع المسبحة في جيب

سترته ويقول لعمَّار:

- أهربت من المدرسة مجددًا يا ولد؟

- الآنسة ضلت الطريق فأوصلتها و...

- أنا سأتولى أمر الآنسة، عُد إلى مدرستك على الفور!

ربت الرجل على كتف عمَّار، فقال الصغير لنايري:

- حين أرجع من المدرسة، تكونين أنهيتِ مشوارك؟

- أرجو ذلك.

- إذن ستتناولين الغداء معنا، أمي ستطهو مسخنًا بالزغاليل.

قاطعه الرجل:

- ستفوتك الحصة الأولى. تحرك!

نفذ الأمر، وركب دراجته الخضراء وودع نايري، فراقبته يبتعد عنهما، ثم التفتت إلى الرجل تسأله:

- أتقرب له أم...

- هل استلمتِ باقة أذن الفأر؟

حاولت أن تخفي اندهاشها فاكتفت بهز رأسها.

أومأ إليها لتسير معه. مشت وهي تحاول التظاهر بالهدوء، فشغلت نفسها بتناول حبات أخرى من اللوز الأخضر.

أخرج من سترته ورقة جرائد ملفوفًا بداخلها شيء صغير ومده نحوها. فضت الصفحة في حقيبتها بحذر لتجد مسدسًا، أعادته إلى الرجل قائلة:

- معي سلاحي.

- وفرتِ. الباشا كان سيهرب صباحًا ولكنني أفسدت الإطارات.

- أنت رفيق المقدسي أم رفيق جريجور؟

- لا تضيعي الوقت في الثرثرة. السائق أوشك على الانتهاء من تغيير الإطارات.

- أخبرني على الأقل ما اسمك؟

- بالنسبة إليكِ، أنا الرفيق الحيفاوي.

سارا حتى شارع ضيق بطيء الحركة.

الأطفال ممسكون بأيدي أمهاتهم في طريقهم إلى المدرسة، والرجال في أعمالهم، لا يوجد سوى بائع جائل يسير بعربة ممتلئة باللوز، وبائع بوظة عند آخر الشارع المنحدر يجذب التلاميذ إليه بحركات بهلوانية يفعلها ببسكويت البوظة.

وقف الحيفاوي يشير إلى باب منزل عباس باشا المزينة شرفته بالورد الملون قائلاً:

- سأحمي ظهرك.
- أنت فلسطيني؟
- هل أبدو لكِ خواجة؟
- لماذا تساعدني إذن؟
- ركزي على مهمتك. طلقة ثم تهربين. واضح؟
- ليست مهمتي الأولى. أستطيع تدبر أمري من دون مساعدة رجل.
- أعفيني من خطابك النسوي يا مدام فكرية صدقي. لديَّ مليون شيء آخر أنجزه.

نظر إلى حذائها العالي، ثم قال:

- بالله عليكِ كيف ستركضين بهاتين الإبرتين؟
- لِمَ لا تركز على المراقبة وتترك أمر التنفيذ لي؟

ابتسم ساخرًا، ثم ابتعد حتى الزاوية يستند إلى الحائط بين دار عباس باشا والدار التي تجاورها.

وقفت نايري قبالة سيارة عباس باشا السوداء التي يجلس السائق في مقعدها الأمامي ينصت للإذاعة بضجر.

خرج الخادم النحيل من البناية حاملاً ثلاث حقائب ضخمة، فنزل السائق يساعده على حملها ووضعها في صندوق السيارة.

في أثناء ذلك، خرج الهدف.

كان عباس باشا بطربوشه الأحمر وبدلته الكحلية ودبوسه الماسي المنقوش عليه ختم المملكة العثمانية.

تلفتت، لا أحد حولها سوى البائعين في آخر الشارع، وبعض النساء في شرفاتهن ينشرن الثياب أو يسقين أصص زرعهن.
مجال رمايتها آمن.
أومأ الحيفاوي إليها لتنفذ.
وقفت في منتصف الشارع تصيح:
- عباس!
رفع الباشا رأسه ينظر إليها، محاولاً التعرف على هوية الغريبة التي تناديه، فقالت له:
- أنا نايري ألبون برطميان.
أخرجت يدها من حقيبتها وإصبعها على زناد مسدسها.
من دون تردد، أطلقت رصاصتين أصابتا قلبه، فسقط على ظهره على الرصيف بجوار سيارته.
ذعر السائق فركض فرارًا بحياته، بينما أسرع الخادم يحاول أن يساعد سيده الذي انهمرت دماؤه وخرجت منه حشرجة موت بطيئة.
اقتربت نايري من الجثة فارتعد الخادم ورفع يديه مستسلمًا، لكنها لم تعلق، مدت يدها وانتشلت الدبوس الماسي عن صدر عباس الذي فارق الحياة، ثم ألقته في حقيبتها مع مسدسها.
نظرت حولها، وجدت الجميع ينظرون من النوافذ ليفهموا ما يدور، فوقفت في منتصف الشارع تصيح بالعربية:
- أنا نايري ألبون برطميان من منظمة هايك المنتقمة لعظام الأرمن.
ناداها الحيفاوي من مكانه بالزاوية وهو يراقب الشارع بعينين محترفتين:
- يا آنسة أمينة رزق، أمن الضروري أن تحيي الجمهور؟ قلت رصاصة ثم تهربين!
- لن أهرب! يجب أن أقدم نفسي للمحاكمة و...
استوقفها صوت غريب وظل شيء يمر بجوارها.

نظرت أمامها فوجدت برميلاً خشبيًّا يتدحرج مع الشارع المنحدر، فنظرت خلفها لم تجد صاحب البرميل، لكن بعد ثوانٍ سمعت الحيفاوي يصيح بذعر يتضاد مع لامبالاته التي يتشبث بها منذ أن قابلها:

- رصاصات باراك! هذه رصاصات باراك! احتموا!

ركض الحيفاوي صوب نايري، وجذبها نحو الجانب الآخر من الطريق بجوار جثة عباس باشا، وهو يقول لها:

- غطي أذنيك.

ارتطم البرميل بعربة بائع البوظة المرح فانفجر مصدرًا دويًّا أرعد قلب نايري.

انقلبت عربة البوظة، وتقطعت إلى أشلاء كحال البائع على قارعة الطريق.

صرخت النساء من الشرفات، وبكى الرُّضع.

وقف الحيفاوي ينظر صوب سطح أقرب دار إليه وهو ينادي بأعلى صوته:

- جاي يا رجال جاي! جاي يا زلام جاي جاي!

سمعت نايري صوتًا رخيمًا قادمًا من فوق السطح يرد عليه النداء بعزيمة:

- ثبّت يا فدائي! ثبّت!

سمعت نداء الفَزْعة الجماعية يتردد بالعزيمة نفسها من سطح بناية إلى أخرى حتى صاح فيها الحيفاوي لتهم بالحركة معه.

كان سينقلها إلى الجهة الأخرى من الطريق، لكن في ثوانٍ توالت عشرات البراميل تتدحرج، هذا يرتطم بسيارة فينفجر، هذا ينفجر ببناية، هذا ينفجر بأم نزلت من بنايتها حاملة رضيعها، وهي تركض خوفًا من الانفجارات.

خرج السكان الذين كان أغلبهم عجائز وربات ديار جلسن في ديارهن يلملمن أطباق الإفطار بعد أن غادر أزواجهن للعمل، بينما

ظهر من فوق أسطح البنايات شباب يحملون بنادق للدفاع عن المدينة.

خفتت الأصوات حول نايري كأنها أصيبت بصمم مؤقت، فلم تعد تسمع سوى طنين مؤلم، لكنها شعرت بالأرض تهتز أسفلها.

اضطرت إلى أن ترفع رأسها لتفهم ما يدور، فرأت شاحنات فوقها مكبر صوت، لم تسمع ما تذيعه، محملة بمدافع هاون حولها رجال ونساء أوروبيون، بعضهم يرتدي زيًّا موحدًا، وبعضهم الآخر يرتدي ثيابًا مدنية، لكن جميعهم مسلحون برشاشات، وبنادق حديثة.

صعد صدر نايري وهبط هلعًا، حين أدركت أنها تورطت في ساحة حرب لا ناقة لها فيها ولا جمل.

عاد إليها سمعها تدريجيًّا، سمعت صوت الطلقات، فنظرت صوب سطح البناية حيث الشباب الفلسطينيون الذين يستعملون بنادق لم ترَ طرازها إلا في الصور التي تتناول حقبة الحرب العظمى، ويطلقون رصاصات محسوبة ومحدودة على الميليشيات الصهيونية وهم يصيحون إلى بعضهم:

- نفدت ذخيرتي!

- لا أملك سوى رصاصتين!

- زناد بارودتي معلق!

استخدم الأوروبيون المسلحون شاحناتهم كساتر لهم من أسلحة الفلسطينيين الصدئة، لكنهم لم يبادلوهم إطلاق الرصاص، احتموا بمدافع الهاون.

بمجرد أن لمحهم الحيفاوي يُعِدون المدفع لإطلاقه، جذب نايري من يدها وركضا بأسرع ما يمكنهما ليبتعدا عن مجال القذيفة المحتملة.

طارت قبعتها وهي تركض كأن الموت يلاحقها للمرة المليون في حياتها، وإذ بها تسمع دوي القذيفة ثم صوت سقوط البناية وصراخ المدنيين.

النساء يَفرِرنَ من البنايات، ويركضن تجنبًا لسقوط حطام ديارهن

فوق رؤوسهن، لكن في آخر الشارع وجدا ما لا يزيد على مائة فلسطيني أكبرهم سنًّا لا يتخطى الثلاثين، يحملون بنادق تطابق بنادق أصدقائهم الذين سقطوا بين ركام أسطح البنايات التي هدمتها المدافع.

صاح أحد الشباب في النساء:

- اخرجن من مجال النار! احتمين في السوق!

دفعها الحيفاوي وسط جموع النساء فابتلعها الجمع بقوة الدفع بعيدًا عن رصاص الشباب الفلسطيني، لكنها راقبته يخرج مسدسين من جيبيه، ويجذب أجزاءهما وهو يصطف وسط رفاقه.

أطلق الشباب الفلسطيني رصاصهم.

صرخ قائد الميليشيات في جنوده بالعبرية:

- دافيدكا! دافيدكا!

كان آخر ما رأته نايري قبل أن تدفع خارج الشارع هو قنابل يدوية تلقيها الميليشيات على الشباب الفلسطيني، بعد ذلك لم ترَ سوى نيران ودخان ودم وأشلاء.

الانفجار الغاشم غطى على سمع النساء، لكنهن لم يتوقفن عن الركض.

كن سيكملن الطريق إلى السوق، ولكن ظهرت أمامهن شاحنة أخرى قطعت عليهن الطريق، وألقت صوبهن مزيدًا من قنابل دافيدكا، وإذ بدويها الغاشم يلتهم حشد النساء، وانفجارها يولد قذائف بترت ساق هذه وذراع تلك وقطعت عنق هذه وتلك.

نايري كانت محظوظة، تأخُّر انضمامها إلى الحشد حفظها من أن تكون في مقدمته، وحماها من أن تكون ضحية القنابل، ولكن من فوق الشاحنة، فتحت الميليشيات المسلحة الرصاص الحي من مدافعها الرشاشة، فمن كانت محظوظة للنجاة من القذيفة، ليس من الضروري أن تنجو من الرصاص.

لم تجد نايري حلاًّ سوى أن تركض إلى الرصيف، وتخرج من الحشد

محتمية بأقرب مدخل بناية.

ولجت أول شقة استجاب بابها لدفعها العنيف له، ثم أغلقته خلفها والتصقت به ترتعش وأسنانها تصطك ببعضها.

سمعت نبضها يدق بأذنيها، وشعرت بقلبها يطرق صدرها كأنه سينفذ من جسدها المتعرق.

نظرت حولها، الدار تبدو هادئة وآمنة، والمذياع يعمل ويخرج منه صوت ليلى مراد، ونسمات الربيع محملة برائحة الزهور تحمل ستائر الشرفة التي تقابلها وتراقصها، وتشم رائحة البن بقوة.

لم تفكر في كيف لرائحة البن ألا تطغى على رائحة الدخان والقذائف والجثث التي تفحمت بالخارج، بل فكرت في ذعر ربة الدار التي خرجت قبل أن تنهي غلي قهوتها.

طغى صوت ضحكات أشخاص يقتربون على صوت نبضها ولهاثها، فانتفضت من مكانها، ونظرت من العين السحرية للباب.

رأت رجلاً وامرأة من أعضاء الميليشيات يقتربان من الشقة وهما يتضاحكان.

انسلت إلى الغرفة التي على ميسرتها في لحظة فارقة قبل أن يقتحم الجنديان الشقة.

حاولت اختيار أآمن مفر. تقفز من النافذة التي أمامها؟ الباب يطل مباشرة على الصالة التي عبرها المسلحان للتو، فلو قفزت سيريانها.

تختبئ في الخزانة؟ ماذا لو فتحها المسلحان باحثين بداخلها عن الحلي أو المال؟

لا وقت للإمعان في التفكير، على ميسرتها سرير عالٍ ينسدل على جانبيه غطاء مطرز تطريزة حيفاوية مبهجة. انزلقت أسفل السرير متشبثة بحقيبتها، وأخذت تراقب من بضعة سنتيمترات التي يرتفع فيها غطاء السرير عن الأرض، دخول المسلحين وحركة بيادتيهما داعسين بنعالهما القذرة على السجاد ناصع البياض.

اقترب الرجل، بقيت نايري منبطحة على بطنها وهي تكتم أنفاسها،

وتشاهده يسحب غطاء السرير ويلقيه أرضًا بجوار خزانة الملابس.

كما توقعت، فتح الخزانة وأفرغها بهمجية ملقيًا كل ما فيها فوق الغطاء، بينما خلعت زميلته خوذتها، وجمعت الحلي والذهب بداخلها.

سمعت الرجل يسأل الشابة بالعبرية:

- وجدتِ شيئًا قيمًا؟

- الكثير من الذهب. يبدو أننا دخلنا منزل زوج يحب تدليل زوجته.

ضحك الرجل، ثم انتقى قميص نوم خليعًا من كومة الثياب، وجذب ذراع المرأة ووضعه على جسدها.

- دعيني أدللك أكثر منه يا روتيم.

- توقف يا يائير!

على إيقاع المدافع ودوي الانفجارات وأزيز الرصاص وصريخ النساء الهستيري، جذبها ثم قبّلها.

بينما تحترق المدينة، قررا أن يجددا نيران عشقهما الملتهب، فدفعها صوب السرير فوق الملاءة الحيفاوية.

فكرت نايري في الطريقة المثلى لاستغلال هذه اللحظة للهرب حتى سقط سلاح روتيم على الأرض.

واتتها تلك الفكرة: تسحب السلاح بحذر، تطلق الرصاص صوب المرتبة، فيموتان تلك الميتة النجسة ثم تفر بحياتها.

مدت ذراعها، بسطت كفها، لمست فوهة السلاح بسبابتها، زحزحته بحذر بإبهامها، قبضت على ماسورة البندقية، وبدأت تسحبها نحوها ببطء.

شعرت بالسلاح ينجذب في الاتجاه المعاكس!

اكتشفت أن روتيم أدلت ذراعها عن السرير، وقبضت على دبشك البندقية لتحملها عن الأرض، لكن فور ما شعرت بيد تجذبها في الاتجاه المعاكس لها، نظرت إلى أسفل السرير ورأت نايري.

- يائير، انظر ماذا وجدت!

تركت نايري البندقية، وأسرعت لتسحب مسدسها من حقيبتها، لكن روتيم جذبتها من ذراعيها، بينما جثا يائير على الأرض يجذبها من شعرها.

سحلاها متجاهلين ركلها بقدميها وسبابها لهما حتى أخرجاها من أسفل السرير.

مدت روتيم يدها صوب حقيبة نايري، لكن الأخيرة ركلتها بقوة فنزف أنف روتيم.

صاحت روتيم وهي تضع يدها على أنفها، بينما حاصر يائير حركة نايري بأن ضغط على فخذيها بركبتيه، وقبض على رسغيها بيديه وهو يبتسم لها ابتسامة غامضة، ثم قال:

- أنتِ بخير يا روتيم؟

- تلك العربية القذرة كسرت أنفي!

- اخرجي حتى يعتني بكِ الرفاق، وأخبريهم بأن يفتشوا الديار جيدًا ليتأكدوا من أنها خالية من حيواناتها.

- ليس قبل أن أقتل تلك العاهرة.

- دعي أمرها لي، سأستجوبها أولاً. قد تكون مع المقاومة.

خرجت روتيم من الشقة وهي تلعن العرب، فارتعبت نايري حين تركتهما بمفردهما.

ما بين الانفجارات والدوي والرصاص، كانت نظرة يائير الذي يعتليها هي أكبر خطر واجهته هذا الصباح.

صاحت فيه بالعبرية:

- انهض عني حتى لا أفجر مخك!

مزق ثوبها فتطايرت أزراره، وزادت دفقة الأدرينالين في بدنها.

لم تصرخ، تركته يميل إليها، فإذا بها تلطمه برأسها مصيبة أنفه وشفته، فرفع يده عنها ليضغط على جراحه النازفة.

هذا كل ما أرادته، أن يرفع يده عنها لثانية حتى تسحب مسدسها

من حقيبتها وتصويبه أسفل ذقنه فتنطلق رصاصتها مخترقة دماغه.
سالت دماؤه عليها وسقط فوقها فصرخت صرخة مدوية شعرت بأنها طغت على صوت قصف المدينة.
دفعت جثته عنها، ثم جلست ممسكة بمسدسها تبكي حتى اختلطت دموعها بالدماء على وجنتيها.
ألقت رأسها بين كفيها، وأسهبت في البكاء وهي ترتعش صارخة: «ليس مجددًا! ليس مجددًا!».
لا تعلم كم مر عليها من وقت حتى شعرت بيد توضع على يدها فانتفضت قابضة على مسدسها وهي تستدير.
كان الحيفاوي يربت عليها بوجه تملأه الجروح والخدوش والهباب والتراب، والدماء تتناثر على قميص بدلته الأبيض الممزق، وقد فقد حطته وعقاله وفردة من حذائه.
نظر إلى هيئتها وثيابها الممزقة، فاستعجل يسحب غطاء السرير الأبيض، ولفها به وهو ينظر إلى يائير الذي لطخت دماؤه سجادة الغرفة.
- قتلته في الوقت المناسب؟
- نعم.
بصق على وجهه وساعدها على النهوض ثم على القفز من شرفة الغرفة كما دخلها.
سارت نايري بجواره، لم تعد تسمع تبادل إطلاق الرصاص، خمنت أن كل المسلحين الفلسطينيين سقطوا بين فكَّي المدافع والقذائف.
لم تعد ترى أي عربي فوق الأسطح، جميعهم أوروبيون مسلحون.
الميليشيات المسلحة تقتحم البنايات، ثم يخرجون منها وهم يدفعون أمامهم سكانها.
رأت امرأة عجوزًا يحاول جندي أن يسحلها خارج دارها وهي تعانق شجرة لوز في حديقتها وتصرخ فيه:
- اهدموها فوق رأسي. لن أهجر داري!

رأت أمًّا تركض وتسأل كل شخص بالطريق:

- هل رأيتم ابني؟ أسمر ويرتدي قميصًا أزرق.

رأت امرأة تحاول إقناع الميليشيات بالسماح لها بالدخول قائلة:

- أريد فقط شال أمي، لن تحتمل هواء الليل.

رأت سيدة تحمل على ظهرها أباها القعيد وتمسك بيدها الأخرى طفلاً يحمل رضيعًا، وعجوزًا تتكئ على عكازها وتمسك بأيدي أحفادها الذين يبكون ذعرًا.

بآخر الشارع، أعداد مهولة من المصابين فقدوا أطرافهم أو غارقين في دمائهم. تتوقف سيارات الإسعاف، وينزل منها المسعفون لمعاونة الجرحى فيصابون برصاص الميليشيات الذي يقتنصهم من فوق البنايات.

لطالما ظنت أن الموت شبح صامت ومباغت لا تشعر به إلا حين يبتلعك، ولكن هذا الصباح اكتشفت أن الموت مسعور، جبار، مرعب، يجبر فؤادك على هجرك، وحواسك على التمرد عليك.

ظلت تسير إلى أن مرت بمخبز الحي فأدركت أن الحيفاوي لم يعد يسير بجوارها، نظرت إلى يمينها فوجدته جاثيًا على ركبتيه بجوار باب المخبز.

ذهبت إليه، كانت أمامه دراجة خضراء واقعة على الأرض حولها لوز أخضر منثور، وحقيبة مدرسية، وطربوش، ورغيف خبز، وبركة من الدماء اختلطت بالعجين.

اقتربت أكثر، وجدت ذراعًا قبضتها مليئة باللوز، مجرد ذراع شردت عن باقي جسدها.

هنا ذراع، وهناك رأس، وهنالك ساق، وثمة قدم. هكذا اكتشفت أن المخلوط بالدماء ليس عجينًا داميًا، بل أحشاء عمّار.

خلع الحيفاوي سترته وبسطها على الأرض وهو يقول همسًا:

- « وَلَا تَحْسَبَنَّ ٱللَّهَ غَٰفِلًا عَمَّا يَعْمَلُ ٱلظَّٰلِمُونَ إِنَّمَا يُؤَخِّرُهُمْ لِيَوْمٍ تَشْخَصُ فِيهِ ٱلْأَبْصَٰرُ ».

بدأ يلملم كل ما كان يومًا جزءًا من بدن عمّار الضئيل ويضعه فوق السترة المفرودة وهو يرتل آيات الذكر.

كان ساكنًا، يجمع الأشلاء كما يجمع البستاني باقة من الزهور، إلى أن توقف عند الرأس، فجثا أرضًا يحمله ويقبل الجبين ثم الجفنين ثم الوجنة الدامية وهو يهمس بصوت مرتعش:

- «وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ مُّسْفِرَةٌ ﴿٣٨﴾ ضَاحِكَةٌ مُّسْتَبْشِرَةٌ».

حمل الرأس ووضعه برفق مع سائر الأطراف.

راقبت يديه المخضبتين بالدماء والتراب تعقدان كُمّي سترته لتحولاها إلى بؤجة تحمل أشلاء الشهيد الصغير.

- قريبك؟

- ابني.

كتمت صرخة كادت تفر من بين شفتيها، فضغطت على فمها بكفيها بينما انهمرت دموعها تلقائيًّا.

بالثبات نفسه، قال الحيفاوي وهو يُحكم ربط البؤجة:

- تجيدين القيادة؟

هزت رأسها من دون أن تنطق، فأخرج من جيبه مفاتيح لطختها أصابعه بالدم وهو يقول:

- سيارتي بآخر الطريق، إن لم تفجرها القذائف، ستقودينها.

نهض حاملاً البؤجة وسارا حتى آخر الشارع من دون أن ينبس أيهما ببنت شفة.

كانت السيارة سليمة فيما عدا الزجاج الأمامي الذي تهشم.

تولت نايري تنظيف الزجاج عن المقاعد، بينما وقف الحيفاوي يحمل البؤجة بين ذراعيه.

جلس بجوارها ووضع البؤجة على صدره، يربت عليها ويقبلها بينما تفر الدموع من عينيه بصمت.

أدارت نايري المحرك وبدأت تقود وهي تنظر من آنٍ إلى آنٍ إلى البؤجة، وهي تفكر في أن هذا كل ما بقي من عمّار الصغير المضياف

الذي أطعمها اللوز، الصبي الذي كان من المفترض أن ينهي يومه الدراسي ليعود إلى أمه التي أعدت له المسخن.

٧
مشمش جبل موسى

اليوم، قرر كيراز أن يجوب القدس من شرقها إلى غربها بكاميرته المحمولة ويصورها.

التقط صليب كنيسة القيامة يتوهج أسفل شمس ظهيرة نيسان، بحيرة حزقيا الصافية، جرس كنيسة المهد، قبة المسجد الأقصى الخضراء، سلالم مسجد قبة الصخرة، قناطر الخضير بحجارتها العتيقة، أشجار الرمان، الأرز، الصفصاف، زهور الأقحوان واللبلاب والحنون.

الديار المقنطرة ذات القباب، مقهى باب العامود حيث يشرب الرجال الشاي والقهوة ويلعبون السيجا.

صالونات التجميل، النساء بهيات متغنجات بشعر مصفف ورائحة زكية وملابس عصرية أنيقة.

طاف القدس حتى غربت الشمس، وعاد إلى الاستوديو بكعبين متورمين.

اتجه إلى السرير بعد أن استكمل تشغيل سيمفونية «هايك أبو هايستان» التي أثارت بركان ذكريات مذبحة فشلت شيخوخته أن تمحوها عن ذاكرته.

كيف ينسى نساء طوز اللاتي اغتصبن؟ أو نساء جبال موش اللاتي قتلن أطفالهن ثم انتحرن، حتى لا يقعن أسيرات في قبضة العثمانيين تباع الواحدة منهن بنعجة؟

أينسى طلاب المدارس الذين قتلوا في خنوص؟ أم الأطفال الذين أغرقوا في نهر دجلة؟ أم جثث الرجال الذين ألقوا أعلى مجرى نهر الفرات من فوق ربى بوغاز كمخ؟ أم شعراء وأدباء القسطنطينية الذين شنقوا؟ أم حرفيي أرضروم الذين أبيدوا؟ أم أهالي الرها الذين

أبوا أن يتركوا ديارهم فضربوا بالمدفعية؟ أم مئات آلاف الموتى جوعًا وعريًا ومرضًا في جبال طوروس والصحراء حتى حلب؟

إن نسي نكبة شعبه، أينسى كفاح رفاقه؟

مَن حملوا معه السلاح هو وآفو في حرب البلقان؟ مَن بقوا معهما في موش يجابهون المدافع ببضع بنادق مسروقة؟ أم الذين اعتصموا بجبل موسى أربعين يومًا تحت الحصار؟

وقتها كان يخبر رفاقه بأن جيش تيجران الأرمني العظيم حُوصر مثلهم منذ قرون، إلا أنهم في النهاية انتصروا على جيوش لوكوللس الروماني واستعادوا مدينتهم.

لكن التاريخ لم يعِد نفسه، لم ينتصروا انتصار تيجران على لوكوللس، بل مات رفاق كيراز أجمعون، إلا آفو بفضل شجرة مشمش.

تلك الثمرة التي وقع لوكوللس الروماني في غرامها في أثناء حصاره لمدينة تيجرانوكورت الأرمنية، فقرر نقلها إلى روما ومنها إلى العالم كله، تجلت لهما في الجبل فأكلا منها ونجوَا من الموت جوعًا.

المقاوم لا ينسى شهداءه، كيراز يحفظ أسماء رفاقه كاملة إلى درجة أن إلياس كان يسأله منبهرًا:

- تذكر الأسماء الرباعية لرفاق ماتوا منذ أكثر من ثلاثة عقود يا خال!

- إن نسيتُ، خُنت.

وحتى لا يخون، يحيي مقاومة رفاقه مع الذكرى السنوية للمذبحة، فيتحدث عن تفاصيل استشهادهم، لكنه يمسك عن الكلام، وتمتلئ عيناه بالدموع عند استرجاع واقعة موت زوجته ميرال، التي لو لم تقتل حبلى في أثناء المذبحة، لكان لهما أحفاد في عمر إلياس وجريجور.

غاص في أحزانه متذكرًا حسن ميرال، وآمالهما التي أجهضت مبكرًا، حتى انتشله وقع خطوات حذرة وبطيئة تدخل غرفته.

لمح على الأرض ظلاً يقترب بخبث لرجل طويل يمسك مسدسًا.

مد كيراز يده صوب لمبة الجاز على طاولة السرير، وهمَّ أن يشعلها، فرأى الظل يتوقف خلف الخزانة من دون أن يظهر صاحبه.

ضحك كيراز، ثم قال:

- أتيت أخيرًا؟

سمع علو أنفاس حامل المسدس، وشعر بارتباكه.

- تعالَ، لا تخَف. أنا لا أحمل سلاحًا.

لم يتحرك صاحب الظل من مكانه.

- ستعيش وتموت جرذًا جبانًا يتنكر في لباس ليث يا أفراهام.

اندفع أفراهام كقذيفة مباغتة صوب السرير، ضاغطًا على كتف كيراز بيده ليلصقه بالسرير، بينما غرس فوهة مسدسه في جبينه البض وهو يصيح بفحيح ثعباني:

- أين الصور؟

- تسللت بنفسك إلى داري من أجل بضع صور؟ أتخافني إلى هذه الدرجة؟

- أخاف؟ أنا الذي يحمل المسدس!

- تحارب كاميرا بمسدس ولا تحسب حالك خائفًا؟

- لا تضيع وقتي، أنا...

- أنت لص يا أفي. هذا أكثر ما يحزنني. أزاد ونايري وكيغانوش خاطروا بحياتهم لحماية لص مسعور.

- لست لصًّا! أنا قائد و...

- أي قائد هذا الذي يواجه مصورًا هَرِمًا بجواسيس ومسدسات؟ أنت تغالي في العنف لأنك تعرف أن ما سرقته لن يدوم لك.

- أين الصور؟

- لن تجدها وإن قتلتني. حرصتُ على ألا تموت الحقيقة بموتي يا جرذي الصغير.

ضرب وجهه بكعب مسدسه، فنزف أنف كيراز بغزارة لكنه لم

ينكسر.

شد أجزاء سلاحه وغرس الفوهة أكثر في الجبين الذي احمر من ضغط المسدس عليه، فضحك كيراز قائلاً:

- يا فتى، لم أخف الرصاص حين كنت شاباً أمامه عقود من الزمن ليعيشها، أتظنني سأخاف تهديدك وأنا عجوز لم يبقَ في رصيده سوى أيام؟

- لا أهددك.

- اقتلني إذن، أم أنك تخاف انتقام نايري وكيغانوش؟

ابتسم أفراهام ابتسامة مستهزئة، ثم سحب وسادة وضعها على وجه كيراز فأطلق على وجهه خمس طلقات.

* * *

قطعت الميليشيات الطريق عن الجسر المؤدي إلى الأحياء العربية وطوقوه بالمدرعات.

كان الحل الوحيد للخروج من الأحياء العربية هو عبور المنطقة اليهودية للعودة إلى القدس، فقادت نايري السيارة بتوجيهات الحيفاوي.

لا تدري كيف وجّهها من دون أن يرفع عينيه عن شهيده الصغير، كأنه يحفظ مدينته في فؤاده ولن يضل طريقها وإن كان كفيفاً أصم.

ظل يرتل:

- «فَٱسۡتَجَابَ لَهُمۡ رَبُّهُمۡ أَنِّي لَآ أُضِيعُ عَمَلَ عَٰمِلٖ مِّنكُم مِّن ذَكَرٍ أَوۡ أُنثَىٰۖ بَعۡضُكُم مِّنۢ بَعۡضٖۖ فَٱلَّذِينَ هَاجَرُواْ وَأُخۡرِجُواْ مِن دِيَٰرِهِمۡ وَأُوذُواْ فِي سَبِيلِي وَقَٰتَلُواْ وَقُتِلُواْ لَأُكَفِّرَنَّ عَنۡهُمۡ سَيِّـَٔاتِهِمۡ وَلَأُدۡخِلَنَّهُمۡ جَنَّٰتٖ تَجۡرِي مِن تَحۡتِهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُ ثَوَابٗا مِّنۡ عِندِ ٱللَّهِۚ وَٱللَّهُ عِندَهُۥ حُسۡنُ ٱلثَّوَابِ».

أنهى تلاوته لآيات تصبره وتجبره على مصيبته، ومسح بظهر كفه المخضبة بالدم الناشف دمعتين هربتا منه في صمت، ثم قال بصوت خافت:

- اقتربنا من الأحياء اليهودية. سيعتقلونني فور أن نصل.

سأستأمنك على دفن عمّار من دون غسل. زوجتي نزحت مع من نزحوا إلى عكا. سأعطيكِ عنوان دار أخيها. أخبريها بمكان دفن عمّار، وبأن الصهاينة اعتقلوا نصر الله. هذا اسمي.

- لن يعتقلوك الليلة يا نصر الله. ستدفن ابنك بنفسك.

وصلت نايري إلى الحاجز الفاصل بين الأحياء العربية واليهودية في حيفا.

أخذت نفسًا عميقًا، ونظرت إلى المرآة، لا آثار دم ولا تراب ركام ولا سخام حرائق على وجهها، وقد لفت الملاءة على كتفيها وصدرها بأناقة عصرية كأنها شال عربي.

رأت نقطة التفتيش، مدرعة حولها ثلاثة مسلحين أوروبيين.

هدأت سرعة السيارة واقتربت على مهل، فانتبه المسلحون واقترب قائدهم يشير إليها كي تقف.

نظر إلى لوحة السيارة، ثم وقف بجوارها قابضًا على رشاشه يمد رأسه داخل السيارة الفارغة.

- هويتك.

فتحت نايري حقيبتها وأخرجت منها هوية، قرأها ثم قارن صورتها بوجه نايري.

ضرب الأرض ببيادته، ورفع ذراعه اليسرى إلى أعلى مغلقًا قبضته إلا من إصبعَي السبابة والوسطى وهو يقول بتعظيم:

- سيدتي، يشرفني خدمتك. أتريدين أي مساعدة؟

- أشكرك أيها الجندي.

- الحرية من أجل إسرائيل!

كررت وراءه وهي تستعيد منه هويتها:

- الحرية من أجل إسرائيل!

انطلقت قاطعة الأحياء اليهودية، وبكل نقطة تفتيش يتكرر السيناريو نفسه، حتى وصلت إلى مشارف القدس الشرقية.

أوقفت السيارة على حيد الطريق عند التل، وأسرعت تفتح

صندوق السيارة الواسع ليخرج منه نصر الله ومعه بؤجته، ولولا أنها ثقبت له ثقوبًا صغيرة في أريكة السيارة الخلفية لمات مختنقًا.

نهض يلهث متعرقًا، فمسحت له جبينه ووجهه بطرف الملاءة الحيفاوية، بينما انشغل بحمل البؤجة وتعديل وضعها بجانبه.

اتكأ على طرف الصندوق، بينما أخرجت من حقيبتها علبة سجائرها الفضية، عسى أن يقلل النيكوتين من وطأة الهلع التي سيطرت عليها منذ بداية هذا اليوم اللعين.

مدت يدها بالعلبة إلى نصر الله، فرفض قائلاً:

- لماذا حياكِ كل جندي في كل نقطة بالعبرية؟

- تجيد العبرية؟

- هذا ليس ردًّا على سؤالي.

فتحت حقيبتها، وأخرجت منها الهوية التي أعطتها لكل جندي.

فحص الهوية، ثم قال متفاجئًا:

- زورتِ هوية آبا لينمان؟

- إنها هويتها الأصلية، استبدلت بصورتها صورتي فحسب.

- كيف حصلتِ عليها؟ إن اليهود هنا يعتبرونها بطلة قومية.

- انتشلتها من حقيبتها.

- ألا تخافين أن يصل إليها خبر أن هناك أرمنية تنتحل شخصيتها؟

- لن يصل إليها الخبر، لأنني قتلتها وتخلصت من جثتها في القاهرة، ثم أخذت هويتها.

- أنتِ قتلت زوجة أفراهام؟

* * *

لستة أجيال، لم يُدفن أفراد عائلة نصر الله المسلماني خارج مقابرهم في حيفا، ولكن بما أنه لا يدري متى سيتمكن من العودة إلى مقابر أجداده، لم يكن أمامه حل سوى دفن عمّار في مقابر زوج خالته في القدس.

أوصلته نايري، ثم اتجهت إلى حي الأرمن، كي تطلع جريجور على

نتائج المهمة.

وصلت إلى الحي، لكن بمجرد أن اقتربت من شارع الاستوديو ورأت الدخان يملأ سماء الليل القاتمة ويطغى على الجو برائحته الملعونة، تبعثرت أفكارها.

ركضت حتى الاستوديو الذي تفحمت واجهته وتهشم زجاجه، وسقطت عنه لافتة «استوديو كيراز».

تجمدت في مكانها تراقب شباب الحي يخرجون متعرقين بوجوه مهيبة يربطون قماشًا حول الأنف والفم ويحملون دلاء المياه الفارغة، وقد أخمدت النيران بمجهوداتهم الشعبية.

على رصيف الاستوديو، جلس آفو يبكي بأنين مرتفع، فاقتربت منه لتسمعه يقول بصوت مفجوع:

- اغتالوا نجي عمري. اغتالوا صفي طفولتي وأنيس شيخوختي. اغتالوا كيراز!

سمعت النساء يصرخن، فالتفتت لتجد جريجور ومعه ثلاثة شباب، يحملون جسدًا ملفوفًا في ملاءة بيضاء ويبكونه.

ركضت نايري صوبهم وهي تصرخ:

- أهذا خالي؟

ترك جريجور الشباب يحملون الجثمان وعانق نايري التي انهارت وهي تصرخ:

- مَن الذي قتله؟

- صديق طفولتك الذي أعطاك رصاصه واستضافك في دار نهبها.

* * *

بمجرد أن تخطت البوابة وجدت أفراهام أمامها، يذرع الحديقة جيئة وذهابًا. يداه خلف ظهره، وعيناه تتأرجحان في محجريهما كبندول الساعة إلى أن لمحها فصاح مبتهجًا:

- يا إلهي، لقد بحثتُ عنكِ في كل مكان. ظننت للحظة أنك...

قطع حديثه إسراع نايري صوبه وصفعها له بكل ما أوتيت من قوة.

انغرست أسنانه في شفته السفلى فجرحت، همَّت نايري أن تصفعه الصفعة الثانية، لكنه قبض على عنقها ودفعها حتى ارتطم ظهرها بشجرة البرتقال.

تفاجأ بشعوره بأن فوهة مسدسها تنغرس في بطنه، فنظر إليها مستنكرًا ردة فعلها، لكنها صاحت فيه بعنف:

- ارفع يديك القذرتين عني!

ظل يرمقها بغضب عارم، لكنه أذعن لها وحرر عنقها من قبضته وقال:

- وصلتِ إلى مرحلة أن ترفعي مسدسك عليَّ؟

- وصلت إلى مرحلة إطلاق ميليشياتك عليَّ؟

- لم أكن أعلم أنهم سيهجمون على حيفا اليوم. ولكن صدقيني، أنا لن أقبل بهذه المذلة. غدًا سأقابل بنيامين و...

انتبه لصوت أنين مكتوم يخرج منها فتوقف عن الثرثرة.

اقترب منها بحذر كأنها قنبلة على وشك الانفجار، فقال:

- هل أصبتِ؟ أقسم إنني لم أكن أعرف. لم يبلغوني. لو عرفتُ ما تركتك تذهبين. ولكن انظري إليكِ، دائمًا ما تنجين من براثن الموت، بدأتُ أومن بأنك مضادة للرصاص والقنابل كما كنتِ تزعمين في طفولتنا.

لم تتوقف عن البكاء، جلست على الحشائش تستند إلى جذع الشجرة، فجلس أمامها وهو يقول:

- ما الأمر؟

- أحد جنودك حاول اغتصابي يا أفراهام.

- ما اسمه؟ صفيه لي، أقسم لكِ إنني سوف...

- لقد قتلته. لم أعد أنتظر من الرجال أن يحققوا لي قصاصي.

مد يده ليلمس وجهها، لكنها أبعدتها قائلة:

- أهذا ما تفعله أنت ورجالك هنا؟ تغتصبون النساء!

- لم ألمس امرأة عربية. أهذا ما جعلك تنهارين؟

- شاهدتُ أبًا يلملم أشلاء ابنه من زقاق مظلم يا أفراهام.
زاد بكاؤها، فوضع يده على كفها ومسح دموعها بالأخرى وهو يقول:
- لا تعقدي تلك المقارنة.
- كيف وقد جعلتموني أعيش تفاصيلها اليوم؟
- أطفالهم لا يستحقون شفقتك.
توقفت عن البكاء وسحبت كفها من يده بسرعة، ثم نهضت وهي تقول:
- إذن، ما الفرق بينك وبين هتلر!

* * *

فتح عينيه فوجده معلقًا من سقف غرفته.
صندوق حديدي ذو قضبان واسعة بداخله جثة أزاد، معذبًا وجراحه تقطر دمًا يسقط على وجه إيلي.
قطرة فوق الجفن، قطرة على الجبين، قطرة على الوجنة، ثم قطرة على شفتيه.
يسمع نعيق غراب، يحرك إيلي مقلتيه حيث الصوت، فيلمح الغراب واقفًا عند إطار النافذة المفتوحة.
يسمع رفرفة جناحيه ثم يراه محلقًا من النافذة حتى القفص. يتسلل من بين القضبان ويقف على رأس أزاد.
يعرف ما سيفعله الغراب، وما يفعله منذ تسع سنوات.
ينقر رأس أزاد فيزداد انهمار الدماء المتساقطة على وجهه الذي نتأت عظامه.
- إيلي، ماذا تفعل؟
صوت نايري انتشله من هلاوسه السمعية والبصرية فاستعاد زمانه ومكانه.
كان مستلقيًا على السجادة في غرفة المكتبة التي يعكف بها ليلاً ونهارًا. تدور الجراء الزغبة من حوله، أحدها يجذبه من رجل سرواله،

وثانٍ من كُمه، بينما يربض ثالث فوق الخطابات الخمسة التي كتبها إيلي لنايري طيلة الحرب العالمية الثانية من دون أن تواتيه الجراءة لإرسالها إليها، بالإضافة إلى خطاب سادس كان يكتبه منذ قليل بينما يجلس يورام يراقبه.

وقفت نايري أمامه تشاهد فوضاه، كوب الويسكي مسكوب على السجاد، كُتب مفتوحة حوله، حبر مسكوب على المكتب، مسند الكتابة مقلوب على وجهه، ثم سألته:

- فيمَ تحدق؟

أشار إلى السقف بإصبع ترتعش:

- جثة العم أزاد.

نظرت نايري إلى يورام، ثم قالت بالعبرية:

- اخرج، أنا سأنتبه له.

نهض يورام وخرج في صمت، فأغلقت نايري الباب خلفه، ثم وقفت بالقرب من رأس إيلي وهي تقول:

- انهض!

- أعصابي لن تستجيب. انتظري ساعة حتى ينتهي مفعول القرص.

- اللعنة يا إيلي! الأوطان تحترق وأنت هنا مخدر.

- وهل ستخمد نيران الأوطان إن استفقت؟

جثت على ركبتيها تهمس إليه:

- أفراهام قتل كيراز الليلة.

تاهت عيناه وفرت منه دمعة، ثم قال:

- كيف؟

- أطلق الرصاص على رأسه ثم أحرق الاستوديو.

زاد انهمار دموعه، ثم قال بصوت مرتعش:

- وما دخلي؟

- أفراهام سرق الاستوديو قبل أن يقتله، أهناك أي رسائل متبادلة بينك وبين كيراز؟

- لا أعرف عما تتحدثين.
- اللعنة يا إيلي! أخبرني حتى أتمكن من حمايتك في الوقت المناسب، فنهاية أفراهام تقترب ووقتها سيتوحش وينهش كل من حوله.
- متى ستوقفينه عند حده؟
- في الوقت المناسب.
نظر إلى عينيها لأول مرة منذ أن دخلت الغرفة، فلاحظ هيئتها، وزينتها السائحة، وملامحها الجامدة، وعينيها المحمرتين من حرقة الدموع.
- ماذا أصابك؟ تبدين كأنك...
- كأنني شهدتُ على مجزرة لعينة؟
- أهلاً بكِ في جحيمي.
- شاهدت حيفا تسقط. كان الوضع ألعن من جحيم دانتي.
- لا تقلقي، ستفقدين إحساسك وعقلك كلياً بعد ثاني مذبحة.
- هل شاركت في أي أمر مماثل؟
- نعم، شاركت.
- ألم تعدني بأنك لن تحمل السلاح في القدس؟
- لم أحمل السلاح. لكنني أقيم في دار أعرف أنها مسلوبة من صاحبها. لست فردًا في عصابة مسلحة، لكنني أنعم بالغنائم التي ينهبونها ثم أقول لنفسي كل ليلة أنت لم تطلق رصاصة على فلسطيني واحد، عسى أن أتمكن من النوم. ولكني لم أذُق نومًا هانئًا لليلة واحدة منذ سبع سنوات.
قبض على يدها فجأة، ثم قال بنبرة مستنجدة:
- أنقذيني من هذا الشقاء! فلنرحل معًا!
- إلى أين؟
- إلى الجحيم. لا بد أنه أرحم من هنا.
نام على فخذها فربتت على رأسه، لكن دموعه لم تتوقف عن

الانهمار من عينيه الجامدتين وهو يحدق أمامه.

الآن، أصبح يرى كيراز، بملامح وجه شوهها الرصاص الغادر وجسد فحّمته النيران، لكنه يبتسم ابتسامة مقبضة بأسنان بيضاء ناصعة لم تتأثر بميتته المفجعة.

الموتى الذين يطاردون إيلي ليمان زادوا واحدًا.

٨

أخيليا برلين

إن سقطت حيفا في ليلة واحدة، فكم ساعة ستحتاج إليها ميليشيات الصهاينة لإسقاط القرى الصغيرة التي لا يحمل أهلها سوى بارودتين أو ثلاث؟

سيطرت تلك الفكرة على بال إلياس في أثناء جلوسه بدار أمه في بيت لحم. أيوب يجاوره، وجاسر يجلس على طرف المكتب بجوار غيداء، والعراقي يتأمل الشارع من النافذة.

كان قد حوَّل غرفة مكتب جده الراحل تاجر البندورة إلى غرفة لقيادة العمليات، وأحضر إليها ماكينة شفرة مورس التي امتلكها خاله منذ ثورة البُرَاق.

تابع غيدا وهي تفك الرسالة التي أرسلها إليهم مَن تبقى من شباب مقاومة حيفا.

- العملية من تنفيذ اللواء الكرملي من الهاجاناه. استهدفوا الأجزاء الشرقية من المدينة، وقصفوا المشفى العربي بعد أن نهبوا كل المعدات الطبية، واستهدفوا الإسعاف، ثم دفعوا المدنيين الذين لم يستشهدوا نحو الميناء في قوارب محدودة الأعداد متجهة إلى عكا.

- كم كان عدد الهاجاناه؟

أرسلت غيدا الإشارة. انتظروا بضع دقائق ثم أتتهم الإجابة، فكت الشفرة وردت على إلياس:

- ما لا يقل عن ثلاثة آلاف مسلح.

ضرب جاسر كفًّا بالأخرى وقال:

- يا الله! هذا عشرة أضعاف شبابنا في حيفا.

قال أيوب:

- اسأليهم عن الأسلحة يا غيدا.

- صادروا جميع الأسلحة من رجالنا، وفتشوا كل فرد تفتيشًا ذاتيًا قبل أن يخرج من المدينة.

أمسك إلياس رأسه كأنه على وشك الانفجار، ثم قال:

- وجيش الإنقاذ؟

- لم يظهر أحد.

ساد صمت ثقيل، فسألها إلياس:

- أي أخبار عن نصر الله أو نايري؟

- رأوا نصر الله بين صفوف المقاومة، ثم لا يعلمون ماذا جرى له.

قال أيوب:

- أنهي الإشارة يا غيدا.

ضرب إلياس على يد مقعده وقال:

- يجب أن نرد عليهم بعملية. الليلة. قبل أن نُشيّع جثامين شهدائنا.

قال أيوب:

- فلننتظر عودة نصر الله أولاً.

قالت غيدا ببحة مكلومة:

- إن لم يكن استُشهد.

طرق العراقي على زجاج النافذة، التفت إليه الشباب فأومأ إليهم ليقتربوا.

رأوا سيارة تصطف في الشارع قبالة الدار، ثم لمحوا سائقها ينزل منها، ثم يستند إلى بابها بإرهاق شديد.

صاح إلياس:

- إنه نصر الله!

كان في حالة يدمي لها القلب.

التراب والدم تحت أظافره، وعلى ملابسه، وبين طيات عنقه. الخدوش تكثر على وجهه ورقبته ورسغيه وكفيه. ثيابه ممزقة، وعيناه ذابلتان، وصوته خافت يحتاج إلى سمع خارق لتبين كلماته. أعطاه إلياس ثيابًا نظيفة، وطلب من أمه أن تعد له المسخن

بالزغاليل الذي يحبه، ولكن بمجرد أن سمع كلمة مسخن حتى سقط نصر الله على ركبتيه.

فاضت دموعه، هاج صراخه، تمردت عليه دقات قلبه وصارت تسبق أنفاسه.

اجتمع الرفاق حوله يربتون على رأسه وكتفه، عانقه إلياس، وأمسك جاسر يديه الخشنتين، وقال له أيوب وهو يربت على ظهره:

- صلِّ على النبي يا أخي. دخلوها بوعد بلفور وستستردونها بوعد الله. والله لتعودنَّ إلى حيفا.

- راحت حيفا وراحت الدار وراح الولد. لملمتُ بدنه ودفنته في مقابر غير مقابر أبيه.

شهقت غيدا شهقة اهتزت لها الجدران، بينما انهمرت دموع الرجال. حتى العراقي الذي لم يُبدِ يومًا أي تعبيرات، فرت منه دموعه.

نظر نصر الله إلى أعلى مناجيًا السماء:

- فوضتُ أمري إليك يا الله. يا ربي ولدي يجاورك فألهمني الصبر. «رَبَّنَا وَلَا تُحَمِّلْنَا مَا لَا طَاقَةَ لَنَا بِهِۦ وَٱعْفُ عَنَّا وَٱغْفِرْ لَنَا وَٱرْحَمْنَآ أَنتَ مَوْلَىٰنَا فَٱنصُرْنَا...».

ربت إلياس على ظهره، وقال كاتمًا دموعه:

- سننتقم منهم يا رفيقي. سأذهب إلى كيراز الآن وآخذ السلاح ونذهب إلى...

- قتلوه. قتلوا كيراز هو أيضًا وأحرقوا الاستوديو.

ضربت غيدا على صدرها من الصدمة، بينما أخذ جاسر وأيوب يحوقلان.

قال إلياس ضاغطًا على فكه بعنف:

- مَن الذي قتله؟

- أفراهام. جريجور استجوب الحي كله حتى وصفوا له شخصًا بمواصفات أفراهام.

- هذا الضبع لن يطلع عليه صبح.
نهض أيوب يسأله:
- معك ذخيرة في الدار؟
- ثلاث رصاصات.
- لن نحتاج إلا إلى واحدة.
نهض جاسر يستعد للتحرك معهما، لكن أيوب قال:
- ابقَ هنا، إن سقطنا، أنت تكمل. الصفعة القادمة في حيفا مهما كان الثمن.
مسح نصر الله دموعه، وحاول أن ينظم أنفاسه وهو يقول:
- انتظروني، سآتي معكما.
قال إلياس:
- لقد فعلت ما يكفي اليوم.
- لا يجوز أن...
- بل يجوز. وفر طاقتك لتسقط مَن أسقطوا حيفا.

* * *

خافت نايري النوم.
تعلم أن المشاهد البشعة التي شهدتها في حيفا ستتسلل إلى سريرها، وتجثم عليها ليتخطى الأمر كابوسًا بغيضًا، ويصبح حلقة شلل نوم لعينة ومؤلمة.
فعلت ما في وسعها لتتهرب من النوم، استحمت، وأعدت قدحًا من القهوة أخذته إلى السرير، وجلست بثوب نومها الصيفي تقرأ الخطابات الستة التي كانت ملقاة بجوار إيلي:
٢٨ كانون الثاني ١٩٣٩
عزيزتي نايري
لقد نجحت حيلة العم أزاد، ووصلنا إلى باريس.
أعي أن لا فرصة لمشاركتك هذا الخطاب إلا حين أقابلك وجهًا لوجه، أو حين يسقط النظام النازي بأكمله، حتى لا أترك دليلاً

على أن عمك يعاون اليهود الأشرار أعداء الدولة كما يصفنا جوبلز في الإذاعة.

وددتُ فقط أن أسجل شعور خروجنا من برلين. فررنا من براثن النازية، وهأنذا أكتب إليكِ مرتديًا قميصًا نظيفًا، أدخن سجائر جلواز في شارع بوليفار سان جيرمان، وأحتسي القهوة في مقهى باريسي كشاب حر ليس مضطرًّا إلى وضع نجمة داود على ذراعه أو إضافة حرف «ل» على أوراق هويته.

في باريس، لا يبالي النادل إن كنتُ يهوديًّا أو مسيحيًّا أو حتى محمديًّا، كي يسمح لي بالجلوس إلى طاولة، كل ما يهمه أنني أملك ثمن كأس نبيذ وشريحة لحم.

لم أطلب شيئًا بالطبع، أجبرني أفراهام على الرحيل، فما معنا من المال بالكاد يكفي لطريقنا الطويل إلى المدينة الذهبية.

لخاطري، لا تتوقفي عن عزف طقوس الربيع. أعلم أنك لا تهوين فوضوية مقطوعات إيجور سترافينسكي، لكني لم أسمع في حياتي مَن يعزف تلك المقطوعة العفوية أفضل منكِ.

سيكون هذا سلواني في الغربة، تخيل أصابعك الرقيقة وهي تعزف لي على البيانو الأسود.

قبل الختام، الليلة تمكنتُ من مباغتة أفراهام وتسللت إلى مكتبة ديلامين التي تحلمين بزيارتها. اشتريت روايتين مغلفتين تغليفًا جلديًّا فاخرًا. لم أقبل بشراء كتب المكتبة الزرقاء الرديئة، أريد كتبًا ستتمكن من النجاة من الحرب معي.

اخترت «البؤساء» و«أحدب نوتردام»، قرأهما لنا عمك حين كنا في عطلة الصف الخامس في فيينا، أتذكرين؟ سأعيد قراءتهما وسأفكر فيكِ.

مع حبي

إيلي

ملحوظة: هل شقيقتي بخير؟ هلَّا تحرصين على أن تشرب شاي

الأخيليا في ميعاده لتتخلص من أرقها المزمن؟

* * *

١٠ شباط ١٩٣٩

عزيزتي نايري

عرفنا مصاب العم أزاد من شاب نمساوي على متن السفينة المتجهة إلى وهران، أعارنا جريدته.

قرأت الخبر خمس مرات كلمة تلو كلمة، وأنا أحاول أن أخدع نفسي، وأقول لا بد أنهم يقصدون صحفيًّا أرمنيًّا آخر يُدعى «أزاد برطميان»، وليس العم أزاد بطلي وقدوتي.

كم أكره هذا العالم يا نايري. كيف يصيبكما مصاب كهذا ولا تجدان صديقًا يضع يده على كتفيكما؟

ليته لم يساعدنا، ليت أبي لم يلجأ إليه منذ البداية، ليتنا أُحرِقنا جميعًا داخل المعبد مثل مَن ماتوا في ليلة الكريستال.

ليتنا لم نولد يهودًا في ألمانيا.

ليتنا لم نولد من الأصل.

تعازيَّ الحارة.

مع حبي

إيلي

* * *

٢٠ شباط ١٩٣٩

عزيزتي نايري

أشعر بأنني سأظل أكتب خطابات لن تصل إليك حتى آخر عمري.

أود أن أطمئنك عليَّ وأفراهام، وصلنا إلى هوليوود بخير، ولكن لو كنتِ وآبا معنا لكنتُ في أفضل حال.

خالي وفر لنا وظيفة مساعدي مصور سينمائي، نحمل له المعدات وننظفها.

هوليوود مزيفة للغاية يا نايري. الممثلون فظاظ، والمنتجون استغلاليون، والمخرجون مستبدون، والمؤلفون ماكرون.
العنصرية أيضًا متفشية في هذا الوطن، حتى إن خالي أعطانا في ليلتنا الأولى مسدسًا، وقال إذا بقيتما خارج المنزل لوقت متأخر ورأيتما شخصًا يرتدي ملاءة بيضاء وعلى صدره دائرة حمراء بها صليب، اهربا منه، أو أطلقا عليه الرصاص.
ظننته يخيفنا كما كانت جدتي تهددنا بعفريت الديبوق كلما تقاعسنا عن التحضير لشعائر الشبات، لكنه قال بجدية إن هناك جماعة عنصرية تُدعى «كو كلوكس كلان» تطوف ليلاً لقتل اليهود والملونين والمثليين والمهاجرين.
نعم، النازية موجودة في أمريكا قبل أن تنشأ في ألمانيا.
دعكِ من هذا الموضوع الكريه، سأروي لكِ أمرًا مثيرًا.
في أثناء تغطيتنا لكواليس فيلم «مرتفعات ويذرنج» تعرفتُ على مخرجه، ويليام وايلر، هو أيضًا يهودي من أصل ألماني.
عرض عليَّ أن أصير مساعدًا أول لمصور فيلمه القادم.
لا أدري إن كان سبب العرض هو تأثره بحكايتي، أم محاباة لقوميتي، أم أنه حقًّا يرى فيَّ موهبة.
وافقت لأنني أرى في هذا المجال البشع مستقبلاً باهرًا، أحب الأفلام حتى وإن كان صناعها مستذئبين.
أفراهام رفض البقاء في هوليوود وتقدم للخدمة في الجيش، أعتقد أن ما شهده من عنف وقتل واضطهاد في برلين أفقده حاسة التذوق الفني.
أخبرني قبل أن يرحل بأنه واجب كل يهودي أن يكرس كل مجهوداته لإسقاط هتلر.
لا أتفق معه، لا يمكن محاربة الموت بالموت والكراهية بالكراهية والدم بالدم. سأحارب النازيين بأن أبقى حيًّا، دافئًا، شبعًا، سعيدًا، أصنع فنًّا خالدًا.

أتظنين أنني سأصير يومًا ما مصورًا سينمائيًّا عظيمًا يذكره التاريخ؟

مع حبي
إيلي

* * *

٧ كانون الأول ١٩٤١
عزيزتي نايري
صرت مصورًا سينمائيًّا. أعمل حاليًّا على فيلم جديد من إخراج ويليام وايلر الذي صار أبي الروحي.
صار لي اسم متواضع لكنه واعد كما يقول وايلر، وكل يوم أتذكر العم أزاد، أي نعمة أنا فيها الآن هو دفع ثمنها بروحه، لذلك أحاول أن أستمتع بكل لحظة أعيشها تكريمًا له.
بدأت أعتاد عنصرية هوليوود، وأتكيف مع فسادها، لا حل آخر إن كنت أنتوي الاستقرار هنا.
الأجواء مشحونة بعد واقعة بيرل هاربر، أظن أن أمريكا ستعلن الحرب رسميًّا وتنضم إلى الحلفاء.
وايلر يظن ذلك أيضًا، يخبرني بأنه سيكون لنا دور، ليس كمحاربين ولكن كمصورين، لأن قسم الجيش أوكل إلى جون فورد مهمة تكوين وحدة التصوير الميداني يقودها خمسة مخرجين لكل فريق مكلف بتصوير نصر الجنود في المعارك، وتسجيل بشاعة النازيين الألمان والفاشيين الإيطاليين والدكتاتوريين اليابانيين.
وايلر اختارني مصوره الأول.
وافقت، لكن بيني وبين نفسي أشعر بالمرارة لمجرد التفكير في رؤية الصليب المعقوف مجددًا. سماع اسم هتلر أو أحد أعوانه يهيج أمعائي، ويذكرني بمنظر جثتَي والدَي في هذا الزقاق اللعين، وبالصورة التي نشرت لأزاد في الجريدة، وبما أصاب آباء

وبالدمار الوحشي الذي شهدناه ليلة الكريستال.
دعك من الحرب وسيرتها الكريهة الآن. صارت لديَّ مكتبة متواضعة في شقتي، ليست بعظمة مكتبة عمك بالتأكيد، لكني راضٍ عنها، لأن كل كتاب فيها يحمل مغامرة سأرويها لكِ حين ألقاك.
ما زلت لا أعلم متى سأتمكن من إرسال تلك الخطابات إليكِ، أخاف أن يعرف النظام النازي أن يهوديًا يراسلك، خصوصًا أنه لا شك أنهم يضيقون الخناق عليكم منذ إعدام العم أزاد، لذا، سأكتفي بكتابة تلك الخطابات حتى يحين الوقت وأقرأها لكِ بنفسي.
لديَّ سؤال، أما زلتِ تعزفين مقطوعة طقوس الربيع؟

مع حبي
إيلي

* * *

٣٠ أيار ١٩٤٥
عزيزتي نايري
لم أكن أنتوي كتابة هذا الخطاب، ولكنها تعليمات الدكتور لوريل، قال إنني أشكل خطرًا على حياة العامة ولن يسمح لي بالخروج إلا حين أتم علاجي، وكتابة هذا الخطاب جزء من العلاج.
أكتب إليكِ من مشفى ميسون العام في لونج آيلاند، حيث يعالجون الجنود الذين أفقدتهم الحرب عقولهم مثلي.
أفراهام ما زال يخدم الولايات المتحدة اللعينة، وقد أوكلت إليه منذ فترة مهمة عسكرية في واشنطن احتاجوا فيها إلى يهودي يجيد الألمانية.
أفراهام لم يزُرني إلا مرة واحدة، لذلك شعرت بالوحدة حتى وجدت المخرج جون هيوستن الذي صورت معه وثائقي معركة

سان بيترو.
أتى وفريقه لهذا المشفى ليوثق تأثير الحرب في عقولنا.
يا لها من مفارقة، بعد أن كنت صانع الفيلم، صرت أنا المحتوى!
إليكِ مفارقة أخرى، أتعرفين ما اسم الفيلم؟ «ليكن نور» كما في الآية الثالثة من الإصحاح الأول في سفر التكوين: «وقال الله: «ليكن نور»، فكان نور».
سألته لماذا اخترت أن يكون اسمه مستوحى من التوراة؟ قال لأن هذا الفيلم سيكون النور الذي حل على اليهود بعد ظلام الحرب!
اللعنة على البروباجندا الأمريكية!
لا تصدقي الأفلام الدعائية التي تذاع بالسينمات، خصوصًا التي تحمل اسمي، إنها زائفة وأغلبية مشاهد المعارك من إخراجنا.
فيلم «لماذا نحارب» مهزلة، فيلم «معركة سان بيترو» أضحوكة، فيلم «معركة ميدواي» خدعة، فيلم «معسكر اعتقال نازي» عار!
لم نكبد العدو خسائر خرافية كما يشيع الحلفاء، مات منا الكثير، دفنا الكثير، لملمنا أشلاء الكثير.
رفاقي من المصورين ومساعدي المخرجين وعمال الصوت والإضاءة قُتلوا وقصفوا وبترت أطرافهم وشوهت وسامتهم.
لِمَ أرسلوا شباب هوليوود إلى الحرب؟ لِمَ خدعونا وقالوا إننا سنذهب لنوثق النصر الأمريكي المشرف؟
لقد هلكنا!
تظنين أن برلين لعينة من كثرة الجثث في الشوارع العامة؟ لو حضرتِ معي معركة جوية واحدة ضد الكاميكازي اليابانيين، لعرفتِ معنى الجحيم.
د. لوريل يأمرني بإلقاء تلك التفاصيل وراء ظهري، يقول: لقد انتهت الحرب يا فتى!

الجاحد التافه لم يرَجثة في حياته، ويظن أن من حقه أن يعظني لأنه يرتدي بالطو أبيض!
بهذه البساطة يا لوريل؟ ألقي ثلاث سنوات من تصوير الجثث، مونتاج الدم، تحميض القتل، تلوين الدمار، وراء ظهري؟
أمحو من ذاكرتي أطفالاً يصرخون تحت الركام؟ نساء قُصفت ديارهن فركضن في الشوارع عاريات من الذعر؟ قرى لا يوجد بها سوى عجائز لأن شبابها ومراهقيها اقتيدوا إلى الحرب كعبيد الإغريق؟
ألديك قرص يا طبيبي العزيز يمحو الألم من ذهن الإنسان وينزع الهلع عن فؤاده؟
تحملتُ كل ذلك، وحدها صورتك كانت تذكرني بالحياة المدنية ونعيمها بعد أن صرت مصورًا حربيًّا يحمل الكاميرا بيمينه والبندقية بيساره.
كنت حزينًا وكئيبًا، لكني لم أفقد عقلي إلا بعد أن استسلمت ألمانيا، وقرر جورج ستيفنز اللعين أن يأخذني معه لتوثيق لحظة تحرير معسكرات الاعتقال النازية.
توقعنا أننا سنصور فيلمًا عن معتقلي مصنع العمل بالسخرة هذا، إلا أنه لم يكن معسكر اعتقال، كان مصنع موت يا نايري!
غرف أفران ضخمة بداخلها عظام وبقايا أعضاء متفحمة، غرف كانوا يخبرون المعتقلين بأنها حجرات استحمام جماعي، يجبرونهم على خلع ملابسهم بالخارج ثم الدخول، تغلق عليهم الأبواب ثم تفتح المرشات المنتشرة بطول وعرض الغرفة لتمطر عليهم غازًا حارقًا أو غازًا سامًّا يبيدهم.
هكذا تفننوا في قتل قومي يا نايري، ومَن وجدناهم أحياءً منهم، كانوا أكياس عظم لها أعين خاوية إن طرقت على جفنها لن تجدي روحًا تجيبك. فرط الجوع وقسوة العمل ووحشية التعذيب جعلتهم مسوخًا متناسخة الملامح، لا تكادين تفرقين

الرجل عن المرأة من بينهم.
ما الذي فعله قائد الكتيبة الأمريكية المغوار لتكريم موتانا؟
أمر الضباط النازيين الذين كانوا يديرون المعسكر بأن يجمعوا جثثنا.
لم يكن هناك سوى عشرين ضابطًا نازيًّا في المعسكر وخمسة أطباء، الباقون إما فروا وإما قتلوا وإما انتحروا.
لعلكِ تتساءلين كيف لخمسة وعشرين رجلاً أن يدفنوا عشرات الآلاف من الجثث التي لم يكترثوا لمعرفة هويتها؟
حفروا خندقًا عميقًا، وأحضروا جرافة من القرية المجاورة حتى يجمعوا الجثث ويلقوها فيه.
هذا مصير قومي!
عظام في فرن، جلد سائح في بالوعة، أعضاء جثة أكلها زملاؤها من فرط الجوع تحت أنظار ضباط المعسكر، أو كومة من الجثث حملتها الجرافات كما تحمل جيف البهائم.
كان أفراهام معي في هذه الواقعة، التقت دروبنا أكثر من مرة في أثناء تصوير المعارك.
هو أيضًا تغير، لم يصبح هشًّا مثلي، بل على النقيض، توحش، سعرته الحرب.
بُهت من مشهد الجرافة التي تحمل جثث قومنا مثلي، اندفع وأنزل السائق النازي عن الجرافة وأخذ يضربه بكعب بندقيته بعنف جنوني حتى هشم جمجمته.
لم يحاول أحد إيقافه، كان مشهدًا ممتعًا للأمريكان، الفأر المهمش يفتك أخيرًا بالقط الشرس.
لكن أتعرفين ما لم يمتعهم؟ مشهد سحبي لبندقيتي وإطلاقي للرصاص عشوائيًّا على كل مَن حولي من أمريكان ونازيين.
لا أذكر أي شيء آخر عن هذا اليوم.
استيقظت بعدها لأجد نفسي أخرس في مشفى المختلين هذا،

وقد أخبروني بأنني قتلت سبعة نازيين وأصبت أمريكيًّا بخدش في فخذه.
فقدت النطق منذ أن صوَّرت المعسكر النازي. يقول لوريل إن السبب نفسي وليس عضويًّا، وإذا اتبعت تعليماته فسأعاود الكلام كالبلبل.
أحرزت بعض التقدم بعد كثير من جلسات التنويم المغناطيسي والحلقات النفسية القائمة على الثرثرة والبكاء وتناول بعض العلاجات الكيميائية والنباتية.
بالأمس أعطتني الممرضة كوب شاي قالت إنه شاي الأخيليا سيساعدك على النوم، فتذكرت شقيقتي وبكيت كطفل ضل الطريق عن داره.
أتجرع الكثير من الويسكي حتى أنام، يجبرونني في الصباح على التنزه ولعب البينج بونج، وسماع الجاز والرقص مع الممرضات، وكل أسبوع يعرضون لنا فيلمًا لتشارلي شابلن على بكرة شريط ٨ مللي.
حين سألت الدكتور لوريل ما الغرض من أفلام شابلن، أجابني بأن الضحك والمزاح هما المخرج من الأزمات.
حسنًا يا دكتور لوريل، إليك مزحة، ذهب الإنجليز لقصف مقر الجيستابو في كوبنهاغن فقصفوا مدرسة كاثوليكية للبنات بسبب خطأ في الإحداثيات. الحلفاء الأبطال قتلوا ثماني وثمانين طفلة وإحدى عشرة راهبة.
إليك مزحة ثانية يا طبيبي، أمريكا طلبت من اليابان عقد هدنة سلام، وحين تأخرت طوكيو عن الرد، قررت أن تضرب مدينتين نائيتين بقنبلة ذرية فقتلت ربع مليون ياباني مدني بأبشع طريقة يمكن للعقل البشري إدراكها!
مزحة أخيرة يا لوريل لخاطري، مات ملايين اليهود بأكثر الطرق مهانة، فلبستم عباءة البطولة المزيفة وأخذتم لقطة سينمائية

باهرة، وأنتم تحررون معسكرات الاعتقال النازية في آخر الحرب.
جُمِع العلماء النازيون الذين وصلتم إليهم قبل أن ينتحروا أو يقعوا في قبضة السوفييت، ثم كيف عاقبهم بلد الحرية والكرامة والمساواة؟

أعطاهم الجنسية الأمريكية، مَلَّكهم ديارًا، منحهم حقوقًا مدنية لم أستطع أنا وابن عمي الذي يحارب في جيشكم الحصول عليها، ثم أنشأتم لهم معامل متطورة، وقلتم إن التكنولوجيا النازية هي التي ستجعلنا نصل إلى القمر.

اللعنة عليكم وعلى القمر وعلى هذا الكون برمته!

لا يوجد خير أو شر في هذا العالم، توجد قوة غاشمة تجعل منك سيدًا وتجعل الآخرين عبيدك.

انظري إلى أطماع البشر بعد الحرب، صرنا ثعابين جشعة ستبتلع بعضها حتى نبلع الكون برمته ونفنى.

أفراهام أبرق إليَّ هذا الصباح بأن مهمته انتهت في واشنطن، وأنها كانت أكثر مهمة مذلة يمكن أن يكلف بها يهودي، وقد أتاه أمر من الجمعية اليهودية بأن نترك هذا البلد اللعين.

سنهجر هذا العالم الغربي مدَّعي الإنسانية والتحضر برمته، وسنذهب إلى دار عمي أورباخ، في القدس.

مع حبي
إيلي

* * *

٢٢ نيسان ١٩٤٨

عزيزتي نايري

لماذا أكتب إليكِ خطابًا بينما يمكنني أن أقولها لكِ وجهًا لوجه، أحبك.

لم أرغب في كتابة ما دوَّنته للتو، والآن لا رغبة لي في محوه، ولكن ما كُتب قد كتب.

أحببتك منذ أن رأيت الشمس تنعكس على النمش الذي يفترش أنفك. كم كان عمرنا آنذاك؟ خمس سنوات؟

أحببتك حين دافعتِ عني أمام هذا العنصري الذي نعتني بقاتل المسيح. كنتِ أبية، جريئة، وجنتاك مخضبتان بحمية الحق، وصوتك يعلو بإغاثة المظلوم. كان عمرك عشرة أعوام وقتها.

أحببتك حين استعرتِ مني رواية «حول العالم في ثمانين يومًا» ثم أعدتِها إليَّ من دون خدش أو ثنية واحدة، ومعها علبة سكاكر هدية شكر وعرفان. كنا في الحادية عشرة من عمرنا.

أحببتك حين علمتني ونحن في عمر الثانية عشرة أن أعتني بكلاب الطرقات وقططها، وأن أتبنى جِراءها وهِرَرها، وأعطف على جميع كائنات الرب.

أحببتك حتى حين طلبتِ مني أن أسأل ماتيوس يوسفيان إن كان مرتبطًا. أكنا بالسادسة عشرة من عمرنا حينها؟

أحببتك حين رأيتك تمسكين يده، حين قبلتِه خلف شجرة التفاح، حين حدثتني عن افتتانك به لساعات، حين صححتُ لكِ أبيات الشعر الغرامية التي ألفتها له في ذكرى ارتباطكما الأولى.

أحببتك حين ظننتك ستكونين لي، حين عانقتك في أحلامي، وقبَّلتك في هلاوسي، وأنجبت أطفالي في خيالاتي، وأحببتك أيضًا حين لم تحبيني، حين لم أرتقِ لأن تفكري فيَّ كحبيب، وحين تركتك تسعدين مع غيري.

حبي لكِ يا نايري هو الثابت الوحيد في مواجهة كل متغير قابلته في حياتي اللعينة.

أحببتك في وحدتي، في اضطهادي، في يُتمي، في ظلمتي، في خوفي، في غربتي، في جنوني، في تشاؤمي.

يقول سورين كيركجور إن قدرنا في هذه الحياة أن نبلغ أعلى درجات السأم من العالم. وأنا بالفعل سئمت من أن أحبكِ في

صمت، من أن أحبكِ من على مسافة تقي قلبي أن تكسريه إذا رفضتِ أن أقدمه لكِ.

سئمت من الخوف من أن تكون عاقبة اعترافي لكِ بعشقي السرمدي أن أخسركِ إلى الأبد. ولكن تبًّا لخوفي ولكتماني ولجبني ولقلقي. إن القدر منحني فرصة أخيرة بقدومكِ إلى القدس لأقولها لكِ، أحبكِ يا نايري من كل قلبي الذي لم أعد أملك سواه، فقد أفقدتني الحياة عقلي وداري وأسرتي وهويتي.

مع يأسي

إيلي

طوت نايري الخطابات الستة، ووضعتها بجانبها على طاولة السرير، وقد فرت منها دموعها.

لم تعرف كيف تتقبل ما قرأته للتو، وماذا ستقول له حين تراه في الصباح، ولكن صوت حركة بالخارج جعلها تتوقف عن التفكير وتنظر من النافذة بقلق.

* * *

لا وقت للحنين إلى الدار الفسيحة التي لم يطأها إلياس في حياته إلا مرة واحدة حين كان مراهقًا ليشهد لحظة مقتل أبيه بجوار مكتبته.

لا وقت لتأمل الدار ولا ملء صدره برائحتها، صعد فوق السيارة التي يقودها أيوب، وقف فوق سطحها، ومن سطحها تسلق سور الحديقة التي كان ينام فيها إخوته مفترشين العشب ومتلحفين بالسماء، ثم حط على قدميه بخفة كالقط.

هرول إلى غرفة إيلي في الدور الأرضي، عابد كان قد أخبره من مراقبته الطويلة والدائمة للدار، أنه يُبقي نافذته مفتوحة صيفًا وشتاءً.

كانت بالفعل مرفوعة إلى آخرها، وقف عندها وأطل منها برأسه، وجد إيلي نائمًا على جانبه الأيسر على السرير.

بحذر، عبر من النافذة ودخل الغرفة. تقلب إيلي في سريره محدقًا

أمامه، تجمد إلياس في مكانه، يده على طرف مسدسه المثبت بحزامه، ولكن إيلي لم يرمش، ولم يتحرك، بالكاد يتنفس.

لم يعرف إلياس إن كان إيلي ينام مفتوح العينين أم أنه في حالة من حالات الخدر والثمالة، المهم أنه أكمل طريقه بالحذر نفسه، وخرج من الغرفة بسلام.

صعد السلالم حاسبًا كل خطوة حتى لا يئز الخشب ويُنتبه له.

وصل إلى الطرقة، يعلم أن أفراهام أخذ غرفة والديه الرئيسية وجعلها غرفته، لذلك شقَّ طريقه بخطى واثقة، وفتح الباب مصوبًا مسدسه للسرير الذي يعلم أنه على اليمين لكنه لم يجد أفراهام، كانت هذه اللحظة التي سمع فيها صوت أسمهان آتيًا من غرفة المكتب بآخر الطرقة يليه وقع خطوات تقترب.

كاد يلتفت، لكنه شعر بيد توضع على كتفه فكان رد فعله التلقائي أن جذب صاحب اليد ودفعه صوب الحائط، مصوبًا مسدسه نحو ذقنه.

في هذه اللحظة، تبين أن صاحب اليد هو نايري.

نظرت إليه من دون مقاومة، تركت له مساحة ليتدارك الموقف ويهدأ، حتى رفع يديه عنها وأغلق الباب.

همست إليه بالعربية:

- ماذا تفعل هنا؟ لقد أخبرتُ جريجور بأن هذا الثأر ثأري يا مقدسي.

جذب يدها ووضع مسدسه في راحتها.

- إن كان ثأرك، فاقتليه الآن.

- ليس قبل أن أصل إلى الذين شرذموا عمّار.

- تعرفين عمّار؟

- نصر الله لم يخبركم؟

- إنه في حالة يرثى لها.

- قريبًا ستصيرون جميعًا في الحالة نفسها إن لم نوقف هؤلاء

السفاحين.

- فلنبدأ بأفراهام إذن و...

- أفراهام هو الطعم الذي سأستخدمه لصيد حيتان محيط الصهاينة كلهم.

- وما دخلك أنتِ بالصهاينة؟ هذا عملنا نحن.

- لا أراكم ناجحين فيه. كم قائدًا مرموقًا اصطدتم حتى الآن؟

- وأنتِ التي ستجعلينا نقتل بن غوريون يا آنسة؟

- نعم.

- وما المقابل؟

- ما المقابل الذي ساعدكم خالي من أجله؟

رفع حاجبيه يتدبر كلامها، يفكر؛ أيتجاهل اقتراحها المنطقي وينقاد وراء ثأره الشخصي ويقتل أفراهام على الفور، أم يصبر عسى أن يكون تحالفها معهم خطوة تقربهم من انجلاء الصهاينة عن فلسطين؟

زفر وقال:

- تعرفين مكتبة سارجسيان خلف محل زهور آفو؟

- نعم.

- سأنتظرك هناك في السادسة صباحًا. أحضري معك مسدسك.

٩

بكاكين دنشواي

نظرت نايري إلى مرآة الحمّام، وجهها شاحب، عيناها محمرتان من حرقة الدماء وأرق الليل وكوابيس النوم، وشعرها منسدل على وجنتيها فاقدًا تمويجاته اللامعة.

استنكرت ذبولها، وخفوت بريقها، ورعشة أعصابها التي لم تهدأ منذ ما مرت به أمس.

غسلت وجهها كأنها تنفض عنه الضعف والخوف، ثم وقفت تنشفه بعنف.

وضعت زينة بسيطة، واتشحت بثوب أسود حمّالته رفيعة، وظهره مكشوف، فوقه سترة سوداء تستر كل ما كشفه الثوب البسيط.

عقصت شعرها إلى الخلف، وارتدت قبعة تنزل منها شبكة حداد سوداء، ثم دست مسدسها في حقيبتها الصغيرة، وارتدت قفازيها وخرجت.

* * *

بمجرد أن فتحت باب مكتبة سارجسيان الأرمنية ووقفت بين أرفف الكتب، رقّ قلبها لرائحة الورق، فأدركت أنها لم تدخل مكتبة منذ سنوات.

كان لرائحة الكتب تأثير يشبه تأثير عناق صديق طفولة التقته في الغربة، بعد غياب سنوات موحشة.

ملأت صدرها بتلك الرائحة المؤنسة، ثم وقفت تمسح المكتبة بعينيها. كانت ذات طابقين يربطهما سلم خشبي، وفي آخر المكتبة كومة من الكتب المرصوصة في عشرة صفوف، ينشغل صبي مراهق بتلميعها وترتيبها.

اقتربت منه نايري فانتبه لصوت كعبها، والتفت إليها بابتسامة بشوش يسألها بالأرمنية:

- صباح الخير، كيف لي أن أساعدك يا سيدتي؟

- السيد ليفون سارجسيان موجود؟

- أنا ابنه. أتبحثين عن كتاب معين؟

- أبحث عن نوفيلا «قلب الظلمات» لجوزيف كونراد.

استبدل بابتسامته البشوش المرحبة ملامح جادة، وهو يقول:

- تفضلي معي يا آنسة برطميان.

قادها إلى السلم، صعدا إلى الدور العلوي المنتهي بباب يُرفع إلى أعلى. أخرج المفتاح من جيبه، فتحه ودفعه إلى فوق وصولاً إلى العلية التي كانت مخزنًا، بمنتصفه طاولة مستديرة بالكاد تظهر ملامحها وسط أكوام وصناديق الكتب.

على كرسي الطاولة كان إلياس جالسًا، أمامه مرمدة ممتلئة بأعقاب السجائر، وسبرتاية نحاسية وبكرج قهوة وفنجانان بَدَّاويان، وكيس بن.

كان يسكب في فنجانه قهوة ذات رائحة منعشة توقظ الميت، حتى انتبه لوصول نايري.

استقبلها بابتسامة مشرقة وصلت إلى عينيه العسليتين المحرومتين من النوم، ونهض يسحب الكرسي المقابل له كما يليق برجل نبيل حتى تجلس عليه.

خرج ابن ليفون وتركهما يجلسان قبالة ضوء البكورة النافذ من نافذة العلية المستديرة، ثم أوصد الباب خلفه.

جلست تضع ساقًا فوق الأخرى، وتابعته يخرج ساعته الذهبية المتدلية من جيب سترته ويقول:

- تحترمين مواعيدك مثل خالك.

- ألم تنتهِ صيحة ساعات الجيب؟

- إنها ساعة أبي. مات وهي في جيبه، ثم ورثها عنه أخي ميلاد فمات

أيضًا وهي في جيبه، ثم إدوارد م...
- دعني أخمن، مات وهي في جيبه.
- نعم، وهأنذا أنتظر دوري.
- ومَن سيرثها من بعدك؟
- آمل أن تفنى لعنة الساعة بفنائي.
لم يرُق لها مزاحه، لا ترى في الموت مادة للسخرية.
- قهوة؟
هزت رأسها موافقة بابتسامة خفيفة، وأخبرته بأنها تفضلها سادة. لقم البكرج بالبن ووضعه على السبرتاية المشتعلة، ثم ترك نفسه هنيهة يتأمل نايري، ثيابها السوداء، زينتها البسيطة، حسنها الأوروبي، حدادها الصامت.
- المعذرة. لم أقدم لكِ تعازيَّ. خالك كان بمنزلة أب لي وللرفاق أجمعين.
- لهذا أردت أن تقتل أفراهام؟
قسم البكرج بين فنجانه وفنجانها، ثم قدم لها قهوتها وهو يقول:
- هذا أحد الأسباب.
- لتسترد دارك؟
- الدار مستردة ولو بعد حين.
- إذن، لماذا تخاطر بنفسك وتتسلل بتلك الطريقة الرعناء لقتله؟
- لأن هذا الضبع المسعور يطلق رصاصه علينا، منذ أن كان في التاسعة عشرة من عمره.
- أفراهام لم يكن بالقدس في هذه السن، كان يقيم مع أمه في برلين.
- أتى في زيارة صيفية، أول زيارة له بعد أن سلب أبوه أورباخ دارنا. عزم أبي على أن يتسلل إلى داره ليسترد مكتبته مستغلاًّ سفر آل لينمان إلى يافا للتمتع بشواطئها. اللعنة عليهم، جعلوا صاحب الدار يتسلل إليها. لكن أورباخ عاد مبكرًا، فوجد والدي يجمع كتبه فأراد أن يُعلِّم ابنه درسًا قيمًا، لقم سلاحه وأعطاه إياه وقال له أرِني

ماذا يفعل الجندي المخلص لإسرائيل بالمتسللين؟ بهذه البساطة قتل أبي بين أرفف مكتبته بطلقة في منتصف رأسه من المسافة صفر أمام عينيَ، ثم سلموني إلى الإنجليز قبل أن آخذ عزاء أبي.

انزعج إلياس من تغير نبرة صوته. استنكر المرارة التي غزت فمه وخنقت حلقه فازدرى حزنه وشعوره بالقهر.

توقف عن الحديث، رأى انعكاس هزيمته في عينيها الزرقاوين المتأثرتين بمأساته، فلام نفسه على إسهابه في السرد وعدم تمسكه بالغموض كما كان ينتوي.

تظاهر بانشغاله بشرب قهوته، فجارته نايري وارتشفت من فنجانها من دون تعليق.

أنهى الفنجان، ثم قال مستعيدًا نبرته الساحرة التي ابتدأ بها الحديث:

- أود قتله لأنه قتل كيراز ومن قبله إخوتي وأعمامي في الناصرة ومن قبلهم أبي، هذا ملخص درس تاريخ مآسي آل المقدسي الذي أثقلت كاهلك به يا آنسة برطميان.

- يمكنك أن تدعوني نايري.

ابتسم لها وهو يضم صدره إلى الطاولة، ويعقد أصابعه قائلاً بهدوء فاتن:

- حسنًا يا نايري. عرفتِ لماذا أود قتل أفراهام، جاء دورك.

- لي ثأر شخصي.

- أود أن أعرفه.

- لم يخبرك كيراز بما فعله وزوجته بنا وبأعضاء منظمة هايك؟

- ليس بالتفصيل. كان كتومًا.

- وأنا لا أختلف عنه.

أخرجت علبة سجائرها، وضعت السيجارة في مبسمها فأشعلها لها إلياس بكياسة.

نفثت دخانها، ثم أردفت:

- يمكنك أن تثق بي من دون ضمانات، كما أثق بك يا إلياس.
- أنّى لكِ بتلك الثقة؟
- الحرب أكسبتني حدسًا يفرق بين المخلص والخائن.
- وحدسكِ لا يخطئ أبدًا؟
- إن أخطأ واكتشفت أنك خنت ثقتي، صدقني لن أتركك تنعم بما جنيته من وراء خيانتي.
- نصر الله لم يكن يبالغ إذن، يبدو حقًّا أننا أمام أسطورة.
- أسطورة لأنني لا أترك ثأري؟
- بل أسطورة لأنك قتلتِ آبا لينمان.
- أرجو ألا تنشروا تلك المعلومة. لو علم أفراهام أنني قتلت زوجته سيجعل مني عبرة لفلسطين كلها.
- لن أسمح له بإيذائك. صرتِ رفيقة لنا الآن.
ابتسمت بامتنان، فبادلها الابتسامة نفسها.
انفتحت نفسه على النيكوتين فأشعل سيجارة مثلها، نفث دخانها على مهل، ثم سألها:
- لماذا قتلتِ آبا لينمان بعد أن دفع عمك حياته لإنقاذها هي وأسرتها من النازيين؟
- أعلم أنك تود معرفة كل شيء، لكن الوقت ليس مناسبًا بعد.
- لماذا كل هذا الغموض يا نايري؟
- لأن لديَّ مهمة محددة أتيت من برلين لأنفذها ونشر أي معلومات شخصية عني قد توقعني في شَرَك أعدائي. فإن كنت تنتوي أن نتعاون لنحقق ثأرنا، فيجب أن تتفهم وتحترم حساسية وضعي. متفقان؟
- متفقان. على الرغم من أن هذا يتعاكس مع فكرة أنكِ تثقين بي من دون ضمانات كما زعمتِ.
- الثقة درجات يا إلياس. لم تكتسب ثقتي الكاملة بعد.
تقبل صراحتها بصدر رحب فضحك، ثم أخرج ساعته من جيبه،

وقال وهو يتفقد الوقت:

- تعرفين عاقبة التعاون معنا، إذا وصل الخبر إلى الصهاينة؟

- ماذا؟ القتل؟

- ألعن، الاعتقال.

- أعلم حجم مخاطرتي.

- حسنًا. كل ما نريده منك هو التجسس على أفراهام. تحركاته، خططه، مواعيده. كل ما قد ينفعنا لاغتياله ورفاقه القتلة. لكن هناك رسومًا بسيطة للانضمام إلينا. طلقة في رأس قائد صهيوني.

- صهيوني من اختياري أم من اختياركم؟

- اختيارنا. وقد اخترنا لكِ دورن حاييم. قائد اللواء الذي هاجم طبريا. فجَّر بنفسه دار أسرة زوجة نصر الله فارتقى منهم أربعة عشر فردًا، ثم هجَّر باقي القرية.

- لديكم خطة؟

- سيأتي لمقابلة جاسوس له في مطعم البحر، بعد مقابلة الجاسوس سيتنزه كعادته في الحديقة المقابلة للمطعم. أنا سأقتل الجاسوس وأنتِ تقتلين دورن.

- متى موعد التنفيذ؟

- بعد ساعة.

- لديك سلاح؟

- ألم تحضري مسدسك كما قلتُ لكِ؟

- بلى، لكني لا أملك إلا رصاصة واحدة.

- كم رصاصة تحتاجين إليها حتى تقتليه؟

أدرك توترها وفهم صعوبة طلبه، فقال بابتسامة مطمئنة:

- أنا وأيوب سنؤمِّنك. لكن إن كنتِ تريدين التراجع، فلا بأس. سنعتبر أن هذا اللقاء لم يتم من الأساس.

أخرجت السيجارة من مبسمها وأطفأتها في المرمدة، ثم قالت:

- معكما سيارة حتى نهرب بعد تنفيذ العملية؟

ابتسم كأنه كسب رهانه على بسالتها، مد يده نحوها ليصافحها وهو يقول:

- أهلاً بكِ في منظمة الزيتون المسلح.

* * *

في اللغة العبرية، كلمة ديبوق تعني التشبث.

بعكس جميع الأولاد الذين كانت تخيفهم أمهاتهم بعفريت الديبوق الذي يستحوذ على جسد الميت، حتى يُحيي نفسه ويعبر إلى عالم الأحياء، كان أفراهام يرى فيه رمزًا يهوديًّا لصمود ومثابرة لا يعترفان بالموت.

منذ يومين، كتب قصيدة عن هذه الفكرة الشاعرية، لكنها لم تلقَ استحسانًا من الجمعية اليهودية، ولا من مفكري ومثقفي اليشوف.

مجتمعه اليهودي الذي كان يغرقه بالإطراءات والهتافات والتصفيق والتهليل، بعد كل قصيدة يؤلفها وكل أنشودة عسكرية يلحنها ويتغنى بها جنود الميليشيات، صاروا يستهجنون أعماله الشعرية، ويستنكرون أيديولوجيته الحربية.

تلك المسألة كانت تؤرقه، هذا الذي كان يغط في الشخير في ليالي الحرب أسفل لظى قنابل جيوش المحور، أمسى يسهر الليالي لأن النقاد يذمون ديوانه الأخير في الصحف العبرية.

خرفان ناكرة للجميل، هكذا أصبح يرى أبناء مجتمعه وقادة الجمعية.

نكران الجميل هذا كان نقطة ضمن عدة نقاط أعدها ليشكو منها إلى بنيامين عزلماني، حلقة الوصل بين قادة الميليشيات الصهيونية وبين جمعية الاستعمار اليهودية الفلسطينية.

جلس أفراهام في صالة الاستقبال على الكرسي الجلدي المزعج يتأمل اللوحة الزيتية المعلقة فوق رأس سكرتيرة بنيامين صاحبة الوجه الدميم. كانت لوحة «عودة المتطوع اليهودي من حروب التحرير» للألماني موريتز دانييل أوبنهايم التي يتفاخر بنيامين

ويستشهد بها للتدليل على قوة الجندي اليهودي عبر العصور.

استغرق في التأمل في تفاصيل اللوحة وهو يفكر في ضرورة أن يزين حوائط داره بلوحة يهودية أصيلة حجمها أضعاف حجم تلك اللوحة، حتى انتبه لرنين هاتف مكتب السكرتيرة.

أجابت سريعًا، ثم أنهت المكالمة وهي تقول لأفراهام متململة:

- السيد عزلماني سيقابلك الآن.

انزعج من أنها لم تنهض وتفتح له الباب كما اعتادت أن تفعل، فتمتم بصوت تعمد أن يكون عاليًا بما يكفي حتى تسمعه:

- عاهرة بدينة!

تركها ترمقه بصدمة مخلوطة بالغضب، ودخل المكتب الفسيح، وصفق الباب خلفه بفظاظة.

كان بنيامين جالسًا على كرسيه الضخم، أمامه مكتبه الأضخم، وخلفه مكتبته الأكثر ضخامة.

انزعج من صفق أفراهام لبابه الزجاجي الجرار وجذبه للكرسي المقابل لمكتبه وجلوسه عليه واضعًا ساقًا فوق الأخرى بغطرسة من دون أن يلقي عليه التحية، بل أشعل سيجارته بعود ثقاب ألقاه على الأرض كالهمجي.

زفر بنيامين ذو الخمسة والخمسين عامًا، وقال:

- ما الخطب يا لينمان؟

- هذا سؤالي لكم. ما الخطب؟ كيف للهاجاناه أن يُسقطوا حيفا من دون مشاركة رجالي!

- ألم تكن إجابتي واضحة حين تحدثنا عن هذا الأمر بعد دير ياسين؟

- قلت إنك ستقصي رجالي عن العمليات الصغرى. هل عملية تطهير الفصح عملية صغرى؟

- حدث تعديل بسيط. أنتم مستثنون من العمليات العسكرية.

نفث أفراهام دخانه منتظرًا بنيامين أن يكمل جملته، ولكن حين

مرت بضع ثوانٍ من الصمت صاح فيه:

- كلها؟

هزَّ بنيامين رأسه مؤكدًا وهو يسحب الدخان من غليونه.

- بعد كل ما قدمتُه لليشوف؟

- لا تغتر يا ليئمان، كلنا قدمنا أقصى ما عندنا لإسرائيل.

- وكلكم تعاملون معاملة الأبطال، بينما تركتموني ورجالي نتحمل التنكيل والإهانة. تقولون لي يا أفراهام نريدك أن تترك زوجتك في برلين، وتنضم إلى الجيش الأمريكي. نريدك أن تستقر في أورشليم. نريدك أن تشنق هذين الضابطين الإنجليزيين في نتانيا. أن تغتال هذا السفير، أن تفخخ هذا القطار، أن تهدم هذا الجسر، أن تفجر هذه السوق، ثم تدينون أفعالي وتنعتونني ورجالي بالإرهابيين. رضيتُ أن أكون كبش فدائكم. رضيت أن يكرهني أبناء جلدتي ويسلموا رجالي إلى الإنجليز. ثم تتغنون وتقولون إنكم الجنود المجهولون. إن كنتم أنتم، يا حملة النياشين ويا متصدري المؤتمرات والصحف والتكريمات، مجهولين، فماذا أكون ورجالي؟

- تكونون ميليشيات يا أفراهام. نحن الآن نشكل جيشًا نظاميًّا رسميًّا يليق باسم دولتنا الجديدة. زمن عمليات الاغتيالات والتفخيخات انتهى.

- انتهى لأننا خلصناكم من الإنجليز.

- صدقت. خلصتنا من الإنجليز، والآن نحن في مواجهة العرب وجيوشهم التي نحاربها بمفردنا.

التفت أفراهام حوله بأداء مسرحي، وهو يقول:

- هل هناك صحفيون حولنا؟ مَن تخادع يا بنيامين؟ أنا وأنت نعلم لصالح مَن ستنتهي هذه الحرب. سيُعلن قيام الدولة، سيصير بن غوريون رئيسها، أو على أقل تقدير رئيس وزرائها، ستتخذون ميكي ماركوس رئيسًا لجيشها. وأنت ستنعم بالثروة والمال في الكيبوتس. ولكن ماذا عنا؟ ماذا عن السواعد التي قدمت لكم تلك المدن

والقرى على طبق من فضة حتى تصير لكم أرض ولواء وحكومة وجيش؟

- ستنحل عصاباتكم يا لينمان. تلك حقيقة يجب أن تتقبلها كما تقبلها باقي قادة الميليشيات.

- باقي قادة الميليشيات قبلوا قرارك هذا؟

- قبِله العقلاء منهم.

- تقصد المتقاعسين عديمي الذكورة! أي جندي هذا الذي يترك بندقيته تصدأ؟

- لم أرَ في حياتي شخصًا يتشبث بالقنابل والرصاص مثلك!

- لأنني أعرف الحرب. خضتها بينما كنت أنت وشعبك تشاكسون فلاحي العرب. لم يخرج الأمريكان من فرنسا إلا بعد أن استسلم النازيون وسلموها إليهم. هل استسلم العرب وسلموكم إسرائيل حتى تُحل الميليشيات اليهودية؟ هل بترتم عنق كل فلسطيني وعقرتم بطن كل فلسطينية حامل في مشروع فدائي سيلقي قنبلة عليكم تشرذمكم إلى ألف قطعة؟!

- هذه مهمة البلماخ الآن.

- البلماخ! أتمازحني يا بنيامين!

- لينمان، كفى! أنا أتوسط لك أمام الجمعية لخاطر ذكرى أبيك فقط.

- بموت أبي يموت مستقبلي العسكري؟ ألهذا جردتموني من جنود الحراسة حول داري؟ إلى هذا الحد تتمنى الجمعية التخلص مني؟

- تصرفاتك لا تسهل عليّ تزكيتك أمامهم. إن أجمعوا على عدم رضاهم عنك فلن أملك خيارًا سوى اتباع رأي الأغلبية الذي قد يقتضي...

- يقتضي اغتيالي؟ أتظنون إن مت سينتهي الأمر؟ ورائي ألف رجل سيحولون مدينتكم الموعودة إلى جحيم، ستكون نيرانه عليكم ألعن مما كانت على الإنجليز.

- نعرفهم يا ليبمان. لدينا قائمة بأسماء عصاباتك السرية الجديدة. أسميتها الديبوق، صحيح؟

برز العِرق الذي يتوسط جبين أفراهام، وكذلك عظام فكه من فرط ضغطه عليها.

نفث بنيامين دخانه متلذذًا بعجز أفراهام عن الرد، فقال:

- لقد حذرني أبوك منك يا أفراهام. كان يصفك بقنبلة مؤقتها خرِب، وفتيلها قصير.

- هكذا كان يحب أن يمتدح جسارتي.

- لك ما تظن. ولكن إن كنت حقًّا تحترم اسم أبيك فلا تقارن به رعونتك وغباءك. إسرائيل مقبلة على مرحلة حرجة ستحدد مكانتها بين باقي الدول. لا مساحة للتهور والتمرد. توقف عن تجنيد الرجال لعصابتك الشخصية. لا تخلق الفرقة بين جنود اليشوف.

أطفأ بنيامين غليونه، فوضعه جانبًا، ثم عقد أصابعه قائلًا:

- سأتظاهر بأنني لم أسمع تهديدك الفارغ هذا. ولأثبت لك حسن نيتي، يوسي موشيه سيتكرم باستضافتنا يومين في قصره بحيفا للاحتفال بنجاح العملية، وسيكون مرحبًا بك بيننا. اجلس وسط القادة العسكريين وأنصت إليهم وانهل من حكمتهم. صدقني، لو كان أبوك حيًّا، لطلب منك الأمر نفسه.

* * *

سارت نايري على قدميها عشرين دقيقة حتى وصلت إلى الشارع المنشود.

مرت بجوار واجهة مطعم البحر الزجاجية، كان خاليًا إلا من طاولتين، واحدة قريبة من الباب يجلس إليها إلياس يرتشف الشاي، ويغمس كعك القدس ذا السمسم بزيت الزيتون والزعتر، وأخرى في أقصى المطعم يجلس إليها رجل يرتدي جلبابًا أبيض، وعلى رأسه حطة وعقال، ويتلفت حوله متوترًا.

أومأ إليها إلياس خلسة، ففهمت أن الجالس بالداخل هو الجاسوس.

أكملت سيرها حتى وصلت إلى الحديقة المقابلة للمطعم، حيث أربعة مقاعد خشبية لا يجلس عليها في تلك الساعة المبكرة سوى أيوب المنوفي.

كان جالسًا أسفل شجرة البرقوق بقميص ربيعي خفيف يأكل شطيرة من نصف رغيف طابون، وعلى يمينه سلة من الخوص تبرز منها أرغفة خبز متنوعة وبضعة قراطيس.

اقتربت منه نايري، ومالت إليه مقبلة وجنتيه وهي تقول:

- صباح الخير يا أبي.

جلست بجواره، فقال لها:

- أي أحمق سيصدق أن صاحب بشرة داكنة مثلي ابنته بيضاء شق اللفت مثلك؟

- في الواقع أبي كان يشبهك كثيرًا. لو عاش حتى الشيخوخة لكان صورة طبق الأصل منك.

- شيخوخة!

ابتسمت، بينما سحب من السلة النصف الآخر من رغيف الطابون وقدمه لها.

فتحته فوجدته محشوًّا بجرجير وبيض مسلوق غريب الهيئة وخليط جبن فج الرائحة.

- أي شطيرة هذه!

- مِش وجبن قريش وبيض مدحرج.

- كيف وجدتَ المِش في القدس؟

- إنها مميزات الوحدة العربية.

ضحكت ضحكة متوترة، ثم أغلقت الرغيف وكادت تعيده إلى مكانه، فقال:

- كُلي!

- ليس من روتيني أن آكل المِش والبيض قبل أن أفرغ مسدسي في رأس أحدهم.

- روتينك أن تجلسي متخشبة متلفتة حولك تتكلمين بصوت مرتعش وتقرضين أظافرك فتكونين أول من يشك فيه الناس حين يستجوبهم المحققون؟

أخذت نصف الرغيف وقضمته، فتابع:

- في مجدي، كنت أجلس القرفصاء على الأرض، أمصُّ القصب، أطلق رصاصي على الإنجليز وأخبئ المسدس في رغيف، ثم أكمل مص القصب بالهدوء نفسه. لا أحد سيشك في شخص يأكل القصب على حيد الطريق في أنه نفذ عملية اغتيال للتو.

- أعلم. كنت أتابع أخبارك طيلة إقامتي في مصر.

- أين أقمتِ؟

- في عابدين.

- لي كثير من الذكريات هناك.

- قالوا في الجرائد وقتها إنك كنت تلتقي ورفاقك في شقة بعابدين، ومن هناك أتيتم بفكرة أن تُسمُّوا أنفسكم منظمة القمح المسلح. هل اخترت أن تُسمِّي منظمة الرفاق هنا منظمة الزيتون المسلح تيمنًا بمجدك في مصر؟

- ارفعي عينيك ببطء، الخروف وصل.

نفذت نايري تعليمات أيوب، ونظرت أمامها بعفوية مقصودة، فرأت دورن حاييم كما وصفه إلياس لها، يرتدي قبعة فيدورا بنية على بدلة ناصعة البياض متكئًا على عصا أنيقة ويعض على سيجار.

تلفت حوله، ثم دخل المطعم.

أنهى أيوب شطيرته، ثم أخذ من السلة بيضة مسلوقة، ضربها بجبينه فتهشمت قشرتها، قشرها فوق السلة، وأنهاها في قضمتين، ثم قال:

- بعد أن تنفذي، ادخلي بهدوء إلى البناية رقم سبعة. ستجدين

بآخر طرقة الدور الأرضي شقة بابها ذهبي. رني جرسها مرتين متتاليتين. إلياس سيلقاكِ هناك بعد أن يقتل الجاسوس.

- حسنًا.

أخذت قضمتين من الشطيرة، ثم قالت:

- أعلم أن الوقت ليس مناسبًا، لكن تلك الشطيرة حقًّا لذيذة.

- كانت لتعجبك أكثر إن أكلتِها بخبز بكاكين دنشواي.

نظر إلى ساعة يده وأخذ منديلاً مسح به كفيه، ثم أخذ تفاحة قضمها، ونايري تسأله:

- كيف هربت من الإنجليز؟ نشروا صورتك مذبوحًا في الصحف. كيف نجوت من الذبح؟

- الآن!

- ماذا؟

- تحركي نحو المطعم الآن.

ألقت الشطيرة سريعًا في السلة، فقال:

- بهدوء! اتركي مسافة بينك وبينه لا تقل عن مترين، حتى لا تتناثر دماؤه عليك.

أخرجت المسدس من حقيبتها ووضعته على سطح السلة أسفل الرغيف بسرعة، ثم حملت السلة بيد مرتعشة.

لمح أيوب اضطرابها فقال:

- انظري إليّ. لو كنتِ حقًّا تابعت أخباري لعلمت أنني لم أترك يومًا رفيقًا لي من دون أن أحمي ظهره.

ربت على كتفها، ثم نزع عنها قبعتها ذات الشبكة السوداء، ووضعها بجواره على المقعد مبررًا:

- لافتة.

نهضت فتابعها تحمل السلة حتى ساعدها، ثم تركتها تتدلى عند مرفقها.

مشت ببطء كما نصحها، حتى وقفت في المسافة بين المطعم

والبناية رقم سبعة.
لمحت دورن يخرج من المطعم، يسير بالتؤدة والهدوء نفسه وهو يصفر على إيقاع نشيد الأمل.
ظلت واقفة مكانها تتظاهر بأنها تبحث عن شيء في سلتها إلى أن مر دورن من أمامها، نظر إليها فصفر لها مغازلاً حسنها اليافع، ثم أكمل طريقه.
ابتعد نصف متر، نظرت نايري إلى أيوب الذي ما زال يأكل التفاحة من دون أن يرفع عينيه عنها.
ابتعد مترًا، قبضت نايري على مسدسها وإصبعها مستعدة للضغط على الزناد.
ابتعد مترًا ونصف المتر، أوقفت المسدس داخل السلة من دون أن تخرجه منها، رفعته بضعة سنتيمترات، ووجهت فوهته صوب رأس دورن.
ابتعد مترين، أخذت نفسًا عميقًا، ثم أطلقت رصاصتها الوحيدة.
اخترقت الرصاصة رأسه، سقط على وجهه، صرخ الناس وأصيب الشارع بحالة من الهرج والمرج.
تركت نايري المسدس يسقط في قاع السلة فوقه الخبز والبيض والخضراوات والمِش.
سمعت صوت رصاصة أخرى من المطعم، لا بد أن إلياس قتل الجاسوس.
ماذا لو كان العكس، ماذا لو صوت رصاصها أرهب الجاسوس فقتل هو إلياس؟
نظرت أمامها، رأت أيوب يومئ إليها برأسه أن تتحرك إلى البناية.
سارت يرطمها هذا وذاك، معتقدين أن صوت الرصاص هذا بداية هجوم ميليشيات يهودية على الحي.
حافظت على رباطة جأشها حتى دخلت البناية، وكادت تصعد درجات سلمها المؤدية إلى طرقة الدور الأرضي، لكنها استشعرت

حركة من خلفها.

لم تلحق أن تلتفت، وُضِع كيس قماشي أسود على رأسها، فسقطت منها سلتها وهي تحاول أن تنزع الكيس عنها، لكن الذي باغتها دفعها صوب الحائط وأحكم قبضته على رسغيها خلف ظهرها بيد، ووجَّه مسدسه نحو مؤخرة رأسها باليد الأخرى ثم قال بعبرية أشكنازية:

- نعرف ماذا فعلتِ.

- لم أفعل شيئًا.

- كم رفيقًا معك؟

- لا رفاق لي.

- كاذبة!

شعرت به يسكب سائلاً فوق الكيس فاختل توازنها وثقل رأسها، وسقطت أسيرة بين ذراعَي هذا المختطف العبري المجهول.

١٠
فلفل عكا

جفناها ثقيلان، لكن رأسها أثقل.

أنفاسها بطيئة، أطرافها متخدرة، لكن صوت الشاب المتحدث بالعبرية حفَّز غددها لتفرز دفعة كافية من الأدرينالين جعلتها تنتفض من خدرها، وتنتبه لما يدور حولها.

خمنت وهي تستفيق أنها اقتيدت إلى مكان خاوٍ، وإلا ما كانت لتسمع صدى كل كلمة تقال حولها.

اشتمت دخان سجائر ورائحة زيت زيتون ثقيلة فخمنت أنهم اقتادوها إلى معصرة زيتون.

استعادت الشعور بأطرافها. كانت مقيدة بحبل خشن في الكرسي الخشبي الذي أجلسوها عليه، ورأسها يستند إلى الحائط، ويداها مربوطتان إلى الأمام من عند رسغيها.

لم ترد أن تتلفت حولها بذعر أو تصرخ مستنجدة، لن تُشعِر مختطفيها بالهلع الذي اهتاجت له أمعاؤها.

ظلت ثابتة على تلك الوضعية، حتى سمعت الشاب صاحب الصوت نفسه الذي اختطفها من البناية:

- هل استيقظت الأميرة النائمة؟
- انزع الكيس عني.
- لماذا قتلتِ القائد دورن حاييم؟
- ما دليلك؟
- أنا الذي يطرح الأسئلة هنا. ما اسما رفيقيك؟
- قلت لك لا رفاق لي.
- ساعدك اثنان. واحد في مطعم البحر قتل عميلنا، والآخر كان يجاورك على المقعد أسفل شجرة البرقوق. كلاهما هرب وتركك،

فلماذا تحمينهما؟
- لم أقتل دورن.
- حسنًا، لنسألك سؤالًا آخر: لماذا قتلتِ آبا لينمان؟
هذا السؤال وحده غيَّر مسار ذلك الاختطاف الغامض كليًّا.
- مَن؟
- آبا لينمان. زوجة أفراهام لينمان. شقيقة إيلي لينمان البكرية. آبا دوليف لينمان. ما زلتِ تجهلين مَن أقصد؟
- لا أذكرها.
- دعيني أنعش لكِ ذاكرتك إذن.
سمعت حركة في زاوية الغرفة فأدركت أنهما ليسا بمفردهما.
بل حين أطرقت السمع، توقعت أن الغرفة بها أكثر من رجلين، خصوصًا أنها سمعت صوت أداة معدنية ثقيلة، يضرب سطحًا قريبًا جدًّا من مقعدها، ففهمت أنه يهددها بمطرقة.
- كم إصبعًا سأضطر إلى أن أكسرها حتى تتذكري؟
- أرِني وجهك!
- دعكِ من آبا لينمان، أريد أسماء رفاقك الإرهابيين وأوصافهم وأماكن مقابلتكم.
- انزع هذا الكيس اللعين عني!
صوت المطرقة يقترب، يضرب طاولة لم تكن تدري أنها تجلس أمامها.
صاحب المطرقة يقف أمامها على الطرف المقابل للطاولة، هذا ما اكتشفته حين شعرت بكفه الخشنة تجذب يديها المقيدتين، وتفك كفًّا واحدة منهما حتى يبسط أصابعها على الطاولة ويضرب المطرقة بجوارها، فترتعش الطاولة وتشعر بذبذبات الضربة أسفل يديها.
- هيًّا يا آنسة برطميان. أعطينا أسماءهم وسوف نتركك من دون أن نمس منك شعرة. بل سنحميكِ حتى من أي محاولة منهم للانتقام منك. سنعيدك إلى برلين على نفقتنا. فقط أعطينا

أسماءهم.

وضع الرجل المطرقة على كفها برفق فقط ليهددها بثقلها، ويترك لخيالها تصوُّر مدى الضرر والألم الذي قد تسببه لها.

- سنبدأ بالعُقل، ثم الكف، ثم الرسغ، ثم المرفق، ثم عظام وجهك الملائكي هذا. ترى كم ضربة ستتحملها جمجمتك قبل أن تنكسر؟

صاحب المطرقة ضرب الطاولة مرة أخرى على بعد سنتيمترات من خنصرها، فانتفضت في مكانها وسال عرقها على صدرها وصرخت.

- توقف! توقف!

شعرت بالصمت يخيم على المعصرة، توقف صاحب المطرقة عن الحركة، بينما قال المستجوب:

- ستعترفين؟

- ماذا؟

- ستعترفين؟

- لا أسمعك، أنت بعيد.

اقترب منها، ووقف إلى يسارها قائلاً:

- ستعترفين بأسماء رفاقك الـ..

هذا كل ما أرادته، أن يقترب منها بما يكفي حتى تميز مكانه من صوته وترطمه برأسها فتصيب أنفه، وتجعله يترنح إلى الخلف.

صاح المحقق بلهجة شامية هجينة بين السورية والفلسطينية:

- يلعن الساعة! أنفي!

ضحك صاحب المطرقة، وترك يدها المحررة من قيدها فنزعت بها كيس الخيش عن رأسها لتكتشف حقيقة محيطها.

كانت في معصرة زيتون مهجورة كما خمنت، تجلس على كرسي خشبي منخفض، تقابلها طاولة معدنية على أقصى طرفها حقيبة يدها ومسدسها وقبعتها.

الذي كان يستجوبها بالعبرية هو جاسر الحلبي الذي تذكره من ليلة تفجير مطعم حنون القدس، وهو يلعب دور المضيف، وحامل

المطرقة كان أيوب، وفي الزاوية وقف إلياس يدخن سيجارته ويراقب ما يدور.

بسط أيوب يده صوب جاسر قائلاً:

- ادفع الجنيه.

- الرهان على أن تلكمني، وهي لم تفعل ذلك، كانت مجرد رطمة.

قطع إلياس شجارهما قائلاً:

- يا رفاق!

أومأ إليهما بأن يلتفتا إلى نايري، كانت تتابع مزاح جاسر وأيوب وهي تلهث وتتصبب عرقًا والدموع تجتمع في مقلتيها.

اقترب منها أيوب يفك قيدها، وهو يقول بفخر:

- كنت أعلم أنك ستجتازين الاختبار.

لم تعلق، بقيت ثابتة تحدق صوب إلياس حتى انتهى أيوب من فك قيدها، فانتشلت حقيبتها ومسدسها وقبعتها، وخرجت بأقصى سرعتها من المعصرة.

عبرت من المخرج لتجد نفسها في منطقة خضراء، تمتد فيها أشجار الصنوبر إلى ما لا نهاية، وبينها وبين أسفلت الطريق ما لا يقل عن كيلومتر.

ابتعدت إلى أقصى ما يمكنها عن المعصرة، ولم تعد تحتمل تهيُّج معدتها، فتقيأت ثم أخذت تسعل كأنها ستبصق قلبها من حلقها.

جثت على ركبتيها، وصدرها يعلو ويهبط من فرط الذعر، وزاد لهاثها فشعرت بأنها ستختنق.

شهيق، زفير، شهيق، زفير.

أخذت تملأ صدرها بندى الزهور البرية من حولها.

حاولت أن تشتت نفسها بأن تنصت لحفيف أوراق الأشجار التي تحيط بها، وتركت دموعها تفر من عينيها بهدوء.

هدأت، دموعها بردت حمى الذعر التي أشعلت بدنها، حينها فقط شعرت بألم شديد فوق حاجبها، فوضعت يدها لتكتشف أنها

جرحت نفسها حين رطمت رأس جاسر.

رفعت رأسها لتنتبه فجأة لوجود رجل ضخم كتمثال جرانيتي فرَّ من المتحف، على بُعد بضع خطوات منها يفترش العشب أسفل جذع شجرة صنوبر ويأكل قالب شوكولاتة.

شهقت لأن وجوده أفزعها، خصوصًا أنه يحدق إليها، ويتابع أكثر لحظاتها ضعفًا.

مسحت دموعها، وأخذت نفَسًا عميقًا وهي تقول بنبرة جاهدت ألا تخرج منها مرتعشة:

- كنت السائق ليلة انفجار المطعم، صحيح؟

هزَّ رأسه إيجابًا وهو يكسر مكعبات قالب الشوكولاتة.

- ما اسمك؟

لم يُجِبها، استأنف أكل الشوكولاتة، وظل ينظر إليها، فقالت:

- أنت أيضًا تعرضت لهذا الاختبار المشين؟

هزَّ رأسه مؤكدًا.

- أكانوا يعرفون أنك أبكم وقتها؟

نهض عن مضجعه يسد بظله الضخم عين الشمس، وسار صوبها، عرض عليها باقي قالب الشوكولاتة بنظرة يملأها تطييب الخاطر.

أخذت منه القالب، فربت على كتفها ثم رحل، ولكن ما كادت تنقضي دقيقة على رحيله حتى سمعت وقع خطوات أخف من خطوات العراقي يدعس العشب، فالتفتت خلفها لتجد إلياس يقترب منها.

ما زالت سيجارته بين شفتيه حتى وقف أمامها يتابعها وهي تنهض على ركبتيها.

سمح لنفسه بأن يضع يده على جبينها ليتفقد جرحها، لكنها دفعته بعنف وصاحت:

- لا تلمسني! مَن تحسب حالك حتى تختبرني بتلك الطريقة الخبيثة؟

- إنه البروتوكول المتبع. كل فرد بهذه المنظمة تعرض للاختبار نفسه و...

أرته رسغيها، كانت تملأهما الندوب الغائرة الداكنة موضع قيود معدنية قديمة، ثم خلعت سترتها كاشفة عن فتحة ثوبها الخلفية الواسعة التي تظهر منها ندوب خلفها جَلد متوحش لظهرها، وفتحة أخرى أمامية تكشف عن مواضع حرق سجائر على صدرها.

قالت بصوت لا تعلم إن كان يرتعش من الغضب أم من القهر:

- أمضيت عامين في معسكر اعتقال نازي أتعرض لأنواع من العذاب والذل والمهانة لن يستوعبها عقلك المحدود، كي أشي بزملائي في منظمة هايك، لكنني فديتهم بجسدي وبكرامتي. ثم تأتي أنت أيها الساذج المدلل الذي يحسب نفسه زعيمًا لمجرد أنه يحمل بضع رصاصات لتختبر ولائي؟

لم يعلق، اكتفى بخلع سترته وإلقائها أرضًا، وإنزال حمَّالتي سرواله عن كتفيه، ثم فك أزرار قميصه ورميه فوق سترته، ومن بعده فانلته القطنية البيضاء، ليقف أمامها عاري الجذع يتدلى على صدره مفتاح معدني كبير مربوط بخيط متين خلف علامة زرقاء على جلده، ومن فوق المفتاح صليب ذهبي صغير لمع أسفل الشمس.

استدار دورة كاملة يستعرض علامات جَلد على صدره وبطنه وظهره، وندوب طعن وطلقات رصاص على كتفيه وجانبيه، وندوب حروق قديمة متفرقة على مرفقيه.

- أتحسبين حالك المصلوبة المعذبة الوحيدة؟ اعتقلت أربع سنوات في عكا أنام على بلاط يزيد تقرحات جروحي ولا آكل سوى الفلفل، أنا ونصر الله والعراقي. والإنجليز اعتقلوا أيوب في سجن الأجانب في مصر ومن قبله سجن الحضرة. إن كنتِ يتيمة فنحن كذلك. وإن كنتِ فديت رفاقك بنفسك، فكذلك فعلنا من أجل بعضنا، وسنفعل الأمر نفسه من أجلك. لا أفضلية لمعاناتك علينا، فكلنا حرمنا من حقوقنا في حياة طبيعية، فيما عدا جاسر الوغد الذي

ينعم بحنان أمه وأمان أبيه، ولم يتعرض للاعتقال مرة في حياته.

- السافل المحظوظ!

ضحك إلياس ضحكة مقتضبة خففت وطأة الموقف، فبادلته نايري ابتسامة خافتة.

- قد تكون طريقتنا قاسية، لكنها محاولة يائسة لحماية كفاحنا، ومع ذلك ما زلنا نقع في شَرَك الخونة. في صباح مقتل كيراز، اكتشف أن بيننا خائنًا، كان رفيقًا عزيزًا وجارًا قريبًا لطالما عرفت أسرتي أسرته، وفي لحظة يأس خاننا وتسبب في مقتل كيراز. وانظري إلى أيوب، لقد دفع عنقه ثمنًا للخيانة.

- هناك مَن باعه للإنجليز حتى يذبحوه؟

- شقيقه ابن أمه وأبيه هو الذي ذبحه، والإنجليز استغلوا هذا حتى يحسنوا وضعهم بعد أن قطع رقاب قادتهم، وجعلهم يفرون كالدجاج من مصر. نحن في عصر الخونة والجواسيس الخبثاء، فاعذرينا.

أخرج من جيبه نوفيلا «قلب الظلمات» التي لم يتسنَّ لنايري إكمال قراءتها ليلة تفجير شقائق نعمان القدس.

مد يده بها إليها، وقال:

- إن وددتِ الانسحاب سأتفهم على الرغم من أنني سأنقهر لخسارة آنسة كريمة وأبية مثلك.

ابتسمت ابتسامة أعادت إليها حيويتها، ثم أخذت منه النوفيلا بامتنان.

ناولها سترتها وقبعتها لتعيد ارتداءهما، ثم أخرج منديله من جيبه، وأخذ يمسح خط الدم الضئيل فوق حاجبها.

في هذه الأثناء، كان أيوب يقف خارج المعصرة يدخن غليونه وهو يراقب ما يدور ويقرأ شفاههما كلما أمكن.

تلك المهارة التي تعلمها من أخيه البكري الأصم، في زمن لم يكن للأخ فيه أن يسلم عنق أخيه للمشنقة، أفادته في فهم ما يدور

بينهما.

خرج جاسر من المعصرة على هذا المشهد، نايري من دون سترتها، وإلياس من دون قميصه يتحسس وجهها.

قال جاسر وهو يضغط على أنفه النازف بمنديله القماشي:

- أجئت في وقت غير مناسب؟

- استغفر ربك يا ظنان.

- ماذا فاتني إذن؟

- قالا عليك مدلل لأنك لم تُعتقل ولم تخسر عزيزًا في هذه الحرب.

- كذب! لقد مات ابن شقيق زوج عمتي في تفجيرات سوق خضار نابلس.

- أنت لم تكن تعلم بوجوده سوى يوم العزاء يا مخادع. والآن هيًا!

مد أيوب يده له مرة أخرى باسطًا كفه، فزفر جاسر مستسلمًا، ثم أخرج من جيبه جنيهًا أعطاه لأيوب وهو يسب الرهان ويلعن شراسة نايري.

وضع أيوب الجنيه في جيبه، ثم نظر إلى ساعة يده، ونادى إلياس قائلاً:

- يا أخينا! هيًا! سنتأخر على جنازة الخواجة كيراز.

* * *

كم قدحًا تجرعه أفراهام من البيرة والرّم منذ أن عاد من مكتب عزلماني؟

لا يذكر، ولا يبالي، لكنه شرب ما يكفي حتى تشوشت رؤيته وهو يجلس في شرفة مكتبه يراقب الحديقة والشارع والمارة، إلى أن لمح صورة مهتزة لنايري تعبر من البوابة.

دخل من الشرفة وسار حتى ردهة الدار بخطوات مترنحة ليستقبلها.

- أين كنتِ؟

- في جنازة كيراز. القدس كلها خرجت تشيع جثمانه كما يليق ببطل مثله.

- ما البطولة في الموت في حريق سخيف؟

- وجدوا فوارغ خمس رصاصات في غرفة نومه. ترى، مَن اغتاله؟

تهرَّب من الإجابة بابتسامة خبيثة، فخلعت قبعتها محبطة وغاضبة وتخطته، لكنه جذبها من رسغها مستوقفًا إياها وهو يقول:

- أنا لم أقتل كيراز.

- سئمتُ من أكاذيبك.

- لم أكذب عليكِ يومًا. أنتِ الوحيدة التي لم أُخفِ عنها حقيقة.

- يا لي من محظوظة، أنا الوحيدة التي تعلم مدى وضاعة أفراهام لينمان.

- لا! لا تتكلمي عني مثلهم. أكره حين تتجمع السكاكين على الكبش.

- إن كنتَ الكبش فمَن الذئب؟

- أنا الذئب، أنا الجزار، أنا السكين لكني لستُ الكبش. لن أقبل صفة الذبيحة مرة أخرى.

لم تعد تطيق كلماته، ولا رائحة الكحول المنسلة من فمه الواسع. حاولت تخليص رسغها منه، لكنه أحكم قبضته أكثر، واستأنف كلماته الثملة:

- أتدرين أي صفة أخرى لن أقبلها؟ المنبوذ! المهجور! المُقصى! توقفوا عن اضطهادي!

- مَن يضطهدك يا أبي! لقد قتلت الجميع!

- من أجل مستقبل أفضل لإسرائيل. سترين بنفسك في الحفل. ستجدين هؤلاء القادة يتفاخرون بسقوط حيفا. لو لم أرهب لهم العرب ليلاً ونهارًا لما حققوا هذا النصر.

- ماذا تقصد بالحفل؟

- بنيامين عزلماني. الخنزير الذي ما كان يعرف الرصاص من نوى البلح لولا أبي. يقول إنه سيحسن إليَّ ويتفضل بدعوتي لاحتفال قادة الهاجاناه!

- متى؟
- يوم الأحد. لن أذهب.
- كيف تفوت فرصة كتلك؟ يجب أن تحضر.
- أتنصحينني لصالحي؟
- وما وجه استفادتي من ذهابك أو عدمه؟
- سأفكر في الأمر.
- ستأخذني معك إن ذهبت؟

اقترب منها أكثر، وأحاط خصرها بذراعيه وهو يملأ عينيه من حسنها، ثم قال بنظرات شبقة:

- اشتقتِ إلى ليالينا في برلين؟

لم ينتظر منها إجابة، مال إليها ليقبلها، لكنها أرجعت رأسها ودفعته، ومع ذلك لم يخلص خصرها من قبضتيه، وقال بمرارة:

- كنتِ تحبينني.
- وكنت تستغلني.
- كيف تقولين هذا، وقد كرست قصائدي للتغزل في عشقنا؟
- قصائدك هذه باعت الكثير من النسخ تمامًا كما بعتني. كم فرصة واتتك لتختار بين حبي لك ومكانتك في المجتمع اليهودي ولم تختَرني؟ أي امرأة تقبل أن تمضي عمرها مع رجل تخلى عنها بالطريقة التي تخليت بها عني يا أفراهام؟
- امرأة محبة بصدق. الحب يعلم المرء التسامح.
- إذن، فكلانا لا يعرف الحب.
- إلى متى سأظل أكفر لكِ عن خطيئتي؟
- إلى أن تُصدق أنني لم آتِ إلى هنا لاستعادة قصة حبنا الفاشلة. والآن اتركني، قبل أن تقبل على فعل أهوج يقطع آخر خيط تفاهم بيني وبينك.

تدبر جملتها ثم حررها من قبضتيه، فتخطته صاعدة إلى غرفتها، وتركته وحيدًا يدندن:

- نحن جنود مجهولون، بلا أزياء رسمية، بظلال الموت وبالإرهاب محاطون، قد وهبنا أنفسنا لأجل القضية، وحده الموت قادر على إيقافنا.

١١
سرو القدس الشرقية

قبل الحادي والعشرين من نيسان ١٩٤٨، لم يبكِ نصر الله في حياته سوى مرتين؛ الأولى وهو في السابعة عشرة من عمره، يوم الأربعاء التاسع والعشرين من نيسان ١٩٣٦، في تمام الساعة السابعة مساءً حين وصل إليه خبر استشهاد أبيه الحاج موسى في الثورة العربية الكبرى. والمرة الثانية كانت في التاسع من نيسان الجاري، حين وصل إليه نبأ مجزرة دير ياسين.

فجعته الوحشية الصهيونية فلم يصدق أنه يسمع عن نساء وطنه الحوامل وقد بقرت بطونهن، والشيوخ يُذبحون، والأطفال يتمزقون، والديار تنفجر، والأشجار تحرق.

علقت بوجدانه واقعة بعينها، حكاية أن الأهالي ألقوا أطفالهم من نوافذ الديار المنخفضة حتى يختبئوا بين الأشجار فرارًا من مصير آبائهم. لكن الصهاينة بعد أن قتلوا أهالي القرية، عثروا على خمسة وخمسين طفلاً ممن نجوا من الموت، ووضعوهم في شاحنة قمامة من النوع القلاب، وداروا بها على كل الشوارع اليهودية، يقلبون الأطفال من الشاحنة على الأرض وينكلون بهم للترفيه عن الأطفال الصهاينة، كأنه عرض سادي في السيرك يسمحون فيه لأولادهم بضرب أطفال العرب ورجمهم وسبهم والبصق عليهم وانتشال ثيابهم، حتى وصلت الشاحنة إلى مشارف الأحياء العربية، وتركوا الأطفال الذين لا حول لهم ولا قوة يهيمون في الشوارع بحثًا عن رحيم يضمهم إلى داره، حتى تبنتهم جميعًا السيدة هند الحسيني.

حين سمع نصر الله تلك الحكاية، تخيل تفاصيل المعاناة التي فتكت بسلام أطفال في عمر أولاده، فبكى على القرية التي لم يزُرها يومًا كما بكى على أبيه.

ثم الآن، كانت المرة الثالثة بعد أن لملم أشلاء صغيره في الحادي والعشرين من نيسان.

صار يكره نيسان مثلما يكره الصهاينة، ذلك الشهر الذي كان يرتبط معه بنسيم الربيع وبذوبان الثلج وبتفتح الزهور وبخضرة الأشجار وبزقزقة العصافير، أصبح الآن لا يحمل له سوى رثاء أبيه، ومذبحة دير ياسين، وسقوط حيفا، وتشرذم عمّار.

بكى مجددًا في سريره، بينما يغط العالم في شخيره.

يلوم نفسه، أكان يجب حقًّا أن يدع عمّار يذهب بمفرده بالدراجة إلى المدرسة هذا الصباح من دون أن يوصله كما اعتاد؟

لماذا أمِن لفكرة أنه ذهب إلى المدرسة، ولم يشك في أن عمّار يقف عند الفرن ليبتاع الكعك البلدي كما يفعل كلما ذهب إلى المدرسة بمفرده؟

أكان من الصحيح أن ينضم إلى الرفاق ليدافع عن مدينته حتى ينفد منه الرصاص وينجو بمعجزة من قنابل الدافيدكا قبل أن يطمئن على عمّار؟

لماذا حرص على أن يحمل رضيعته فاطمة وأطفال شقيقته ويوصلهم إلى القوارب في الميناء قبل أن يذهب إلى عمّار؟

لماذا لم ينصت لزوجته حين صاحت فيه، وقالت له دعك مني ومن شقيقتك، اركض وابحث عن عمّار؟

لماذا أمِن لأن مدرسة عمّار خارج نطاق القصف، وأنه يمكن أن ينتظر النجدة؟

إنها تلك التفاصيل التي تكرر نفسها في ذهنه فتسلبه نومه وتنهش روحه.

ركام داره، ودار الجيران، ومحال الأصدقاء. الأسفلت وما فوقه من دماء وأشلاء.

قصف السوق التي كان من المفترض أنها نقطة التجمع الآمنة للمدنيين.

فرار المدنيين من كل حدب وصوب خصوصًا بعد قصف السوق، رآهم يتدافعون، يتلاحمون، ينصهرون في كتلة واحدة مذعورة تركض صوب الميناء كأنه يوم الحشر.

الميناء، ذاك الذي كانت تطل عليه دار أبيه، يرى على صفحة بحره حمرة الشمس في الشفق ويرى صورة القمر في المساء وأضواء السفن تنير البحر وزماميرها تزغرد كأنها تزف المدينة في ليلة رأس السنة، لا يصدق أن هذا البحر نفسه بلع سكان الحي.

اندفع طوفان الحيفاوية حتى كسروا البوابة، وانطلقوا صوب البحر، كأن جيش فرعون يلاحقهم.

عشرات الآلاف يركضون صوب البحر متوقعين معجزة كمعجزة موسى. ولكن لم يشق لهم البحر.

شهد نصر الله على ذلك وهو يُركب زوجته ورضيعته وشقيقته وزوجها وأولادهما الخمسة إلى القارب المتجه إلى عكا.

كانوا محظوظين، ركبوا القوارب الأولى وأبحروا بسلام، لكن تلت ذلك مشاهد من الجحيم.

ذعر الأهالي من قلة القوارب، فتسابقوا على النجاة؛ الزوج يدعس زوجته، والأم تدفع أبناءها، والإخوة يتناطحون على القوارب إلى أن تمتلئ فوق سعتها فتنقلب، ويغرقون جميعًا.

القوارب لا تنتظر أحدًا، تبحر فيغرق مَن يغرق، ويتيه على رصيف الميناء مَن يتيه.

في طريق عودته إلى المدينة من الميناء وهو يخطط للذهاب إلى عمّار ليأخذه من المدرسة ويهرب به برًّا ليلاقي باقي أسرته في عكا، أوقفه أكثر من رجل وصل إليه خبر قصف المدينة فترك أعماله وهرع إلى داره يبحث عن أهله.

- أرأيت زوجتي؟ سمراء ذات عينين زيتونيتين وشعر أسود طويل؟
- أرأيت أمي؟ ترتدي ثوبًا حيفاويًّا أبيض.
- أرأيت أبي؟ كهل لديه ندبة مكان طلقة أطلقها عليه الإنجليز في

ثورة ١٩٣٦.

ظلت أصوات الغرقى والقتلى تطارده وهو في غرفة النوم التي أعدتها له غيدا في دار والدة إلياس، حتى سمع الباب يُفتح، واستشعر يدًا توضع على كتفه.

فتح عينيه ونظر إلى يساره ليجد إلياس يجلس بجواره على السرير وهو يقول:

- يا رفيق، أفق!

- أي مدينة أخرى سقطت؟

- بل نحن مَن أسقط أحد رجالهم. دورن حاييم مفجر أقارب صهرك.

ابتسم ابتسامة مُرة خافتة، ثم هزَّ رأسه، فأضاف إلياس:

- إنه انتصار بسيط. أتيت لأخبرك بأننا سنضرب مجرمي حيفا ضربة أكبر من تلك التي ضربناها لسفاحي دير ياسين.

نهض نصر الله عن السرير، وقال بصوت حشرجه البكاء:

- كيف؟

- نايري أرسلت إلينا إشارة من مكتبة سارجسيان. هذا الأحد سيجتمع قادة الهاجاناه في قصر يوسي موشيه، احتفالاً بمجزرتهم.

- أعطِني حزامًا ناسفًا وسوف...

- لن تموت يا رفيقي.

- أتعز عليَّ الشهادة؟

- أعز على فاطمة أن تعيش يتيمة كما عشنا.

- لن أقبل أن يضحي أحدكم بحياته من أجل ابني.

- عمَّار ابننا كلنا. سنفتك بهم من دون أن نزهق روح واحد منا.

* * *

كان جريجور من أيتام الأرمن الذين ظلوا يبكون على صدور أمهاتهم اللاتي متن عطشًا في الصحراء. ولكنه كان أكثر حظًّا من أقرانه، فقد وجده كيراز الأرمل وآفو الذي فقَدَ زوجته وأبناءه الثلاثة في طريق

فرارهما إلى حلب، وقرر أن يتبناه.

لذلك شعر جريجور بأنه تيتم للمرة الثانية حين اغتيل كيراز، خصوصًا وهو يشاهد آفو يشيخ ألف عام فتظهر لتجاعيده تجاعيد، ولشيبه شيب ولاعتلال صحته اعتلال، لأنه فقَدَ قرين كفاحه.

جريجور نفسه يقسم إن مقدمة رأسه شابت لحظة أن حمل جثة كيراز المتفحمة.

فر دمعه حين استرجع تفاصيل تلك اللحظة اللعينة، لكن لا عزاء له في فاجعته سوى أن جنازة كيراز شيعت كما يليق بفدائي ثائر لم يقبل بأن يُظلَم أخوه الإنسان.

رأى المعزين يبكونه كما لو كانوا جميعًا أيتامًا تبناهم كيراز مثل جريجور.

الأرمن من الأرثوذكس والكاثوليك، الفلسطينيون المسلمون والنصارى، المغاربة اليهود والمسلمون، كل الغرب سواء كانوا من المقاومة يعلمون تفاصيل بطولة كيراز، أو كانوا من سكان القدس الذين لا يعرفون عن كيراز سوى أنه مصور خلد ذكرى أعراسهم ومناسباتهم.

هكذا، جلس جريجور فجرًا على كرسي كيراز المفضل أمام محل زهور آفو أسفل شجرة السرو، يشرب نبيذ الرمان ويتأمل طرقات القدس الهادئة، ويراقب بقايا استوديو كيراز المحترق، حتى رأى شابًّا لا ينتمي إلى هذا الحي، بل إلى هذا البلد كله.

كان طويل القامة، هزيل البنية، له لحية صهباء مبعثرة وأنف بارز وعينان زرقاوان وشعر طويل.

اقترب منه يحمل حقيبة جلدية، ويرتدي قميصًا مبقعًا بالحبر الأزرق والنبيذ الأحمر، ثم وقف أمامه يقول بصوت متحشرج وعينين دامعتين:

- مرحبًا، أنت جريجور؟

- وأنت ابن خال أفراهام، لا؟

- بل ابن عمه. اسمي إيلي.
- نورت حي الأرمن يا إيلي.
أمسك جريجور زجاجة النبيذ من عنقها، وضربها بجذع شجرة السرو فتهشمت.
قفز صوبه يجذبه من قميصه، يرطمه بالحائط ويرفع يده التي تحمل عنق الزجاجة الحادة منتويًا أن يذبحه بها، لكن إيلي صاح:
- أتيت لأبحث عن أوراق الإلهة فيريتاس!
علق جريجور يده في الهواء، لكنه لم يحرر إيلي من قبضته.
- ماذا قلت؟
- أوراق الإلهة فيريتاس. كيراز أخبرني بأنني سأجدها معك.
- كيراز يعمل معك أنت؟
- هل نبرة التحقير هذه ضرورية؟
- ولماذا يعمل معك أنت؟
- لأنني أنقل إليه كل ما يصل إليَّ من معلومات عسكرية. كيف تظن أنه علم بشأن تجمع منفذي مذبحة دير ياسين في مطعم شقائق نعمان القدس؟
- ولماذا يثق بك أنت دونًا عن باقي الصهاينة؟
- لأنني يهودي ولست صهيونيًّا. أتمانع ألا تخنقني؟
خفف وطأة قبضته على عنقه، لكنه لم يبعد عنه طرف الزجاجة، فشهق إيلي ثم زفر وقال:
- منذ أن كنا في برلين وكيغانوش ونايري تقولان لنا إن كيراز يحاول دحض أكذوبة الصهاينة ليثبت للعالم أن فلسطين ليست أرضًا بلا شعب. كان يصوِّر البلد من النهر إلى البحر، ويوثق أهلها بتجارتهم وزراعتهم وصناعتهم ومدنيتهم وتقاليدهم، ثم صوَّر المظاهرات العربية، ثورة البراق وثورة السادس والثلاثين و...
- أعرف نضال كيراز. ما لا أعرفه هو ما دخلك به.
- كنت أعمل مصورًا ميدانيًّا للبروباجندا الأمريكية طيلة الحرب،

وحين أتيت إلى هنا كلفتني الجمعية بالعمل نفسه، أصور وأوثق معارك الميليشيات في القرى والمدن.

- تقصد مذابحهم.

- لم أكن أعرف أنها مذابح. كنت أظن أن ما يدور هنا حرب بين خير اليهود وشر العرب، حتى شهدتُ الحقيقة بنفسي، ثم تواصلت مع كيراز. اتفقنا أن يصور هو العرب ويثبت وجودهم، وأنا أصور الصهاينة وأثبت بشاعتهم.

- ثم؟

- ثم نقدم الصهاينة للمحاكمة كما حدث للنازيين في نورمبرغ. لديَّ صديقة جزائرية مقيمة في فرنسا، سآخذ تلك الصور والأفلام إلى جانب ما سجلته كتابة في مذكراتي، ووالدها سيساعدنا على تكوين قضية نعرضها على المحاكم الدولية.

تركه جريجور، وألقى الزجاجة المكسورة على الأرض، فتنفس إيلي الصعداء.

- لماذا لم يخبرنا كيراز بأنك تتعاون معنا؟

- حتى لا يقتلني أفراهام! أليس الأمر بديهيًا؟

- حسنًا يا أحمق. ما دام كيراز وثق بك، فلا خيار أمامي إلا أن أحذو حذوه. ولكن إذا اكتشفت أنك مراوغ لا عهد لك مثل ابن عمك، لأطاردنك ولأجدنك حتى وإن اختبأت في بطن الحوت، ولأمحون ظلك من على الأرض.

- من المستحيل فيزيائيًا أن يكون لي ظل على الأرض، إن كنت مختبئًا في بطن الحوت.

لم يتمالك جريجور أعصابه أمام استفزاز إيلي وسخافته، لكمه فاختل توازن الأخير وسقط إلى الخلف.

استند إلى شجرة السرو، ورفع رأسه إلى أعلى حتى يوقف نزيف أنفه، ثم قال كأن شيئًا لم يكن:

- حسنًا، وإن كنت حقًا مخلصًا لقضيتكم، فماذا ستفعل؟

- سأعتبرك رفيقًا وسأفديك بروحي. هذا ما كان كيراز ليفعله.

١٢
شاطئ حيفا

بعد أن أرسلت نايري البرقية إلى دار إلياس من مكتبة سارجسيان، أصر ليفون على أن تستعير رواية اسمها «وطن نايري» للكاتب الثائر الأرمني يغيشي تشارنتس.

أخبرها ليفون بأنه لم يرشحها لها لأن عنوانها يحمل اسمها الأرمني العريق فحسب، بل لأن كيراز قد أهداه إياها، بالإضافة إلى خمسين كتابًا آخر هدية للمكتبة في بداية تأسيسها.

لساعتين ونصف الساعة، كانت مدة الطريق من القدس إلى حيفا، غاصت نايري بين صفحات الرواية الوطنية التي خط فيها كيراز ملاحظاته، وترك علامات على الجمل التي أشعلت قلبه حماسًا.

انضجعت في الكرسي الأمامي المجاور لأفراهام، قدماها الحافيتان تستندان إلى مقصورة السيارة، تضم مبسم سيجارتها بشفتيها الكرزيتين، وعيناها لا ترتفعان عن الكتاب. أنقذتها القراءة من محاولات أفراهام لتجاذب أطراف الحديث معها عنوة، فما من حجة للعزوف عن الكلام مع أحد الأوغاد أفضل من أن تخرسه قائلاً بحدة:

- صَه! أقرأ!

فرغت من قراءة الرواية مع وصولهما في سيارة أفراهام الأوستين البيضاء الفارهة التي لا تختلف كثيرًا عن باقي سيارات القادة المصطفة في ساحة السيارات حول قصر يوسي موشيه.

استقبلهما يوسي وزوجته ميراف اللذان كانا يتنافران في كل شيء. هو كهل طويل الهامة، منتفخ الكرش، كثيف الشعر أشيبه يتبعثر حول رأسه المستدير كغزل البنات، بينما كانت ميراف شابة في عمر نايري، نحيفة، قصيرة، سمراء، شعرها الأسود معقوص إلى أعلى

بأحدث تصفيفة.

قدَّم أفراهام نايري على أنها رفيقته الحسناء التي وصلت إلى القدس حديثاً، بينما تصافح ويوسي بترحاب مصطنع وابتسامات زائفة، حتى قال لهما يوسي بعد أن نادى الخادم:

- سيصحبكما إلى غرفتكما. أنا واثق بأن إطلالتها ستعجبك يا أفراهام.

وأي إطلالة كانت!

تلك الشرفة الفسيحة التي تكفي لإقامة أسرة كاملة أطلت على ركام الحي العربي في حيفا.

وقفت نايري تستند إلى السور الرخامي الأبيض يجاورها أفراهام الذي دس يديه في جيبيَ سرواله ومط شفتيه يتأمل المنظر.

واجهات محترقة، زجاج مهشم، بنايات نصف مهدومة، ثقوب رصاصات اخترقت الجدران، بقع متفرقة من الدم أبت الأرض أن تتشربها.

هذه كانت حال قائد لواء كرملي لميليشيات الهاجاناه يوسي موشيه، مقدمة قصره تكسوها خضرة الربيع، وسياج شجيراته تزدهر بزهوره، وسماء حديقته صافية زرقاء، وأرضيته نظيفة لامعة، وجدرانه تخرج منها موسيقى كلاسيكية تطرب النفس، أما خلفية القصر، ما وراء هذا الازدهار الصهيوني المترف، فخراب رمادي عربي صنعه جنوده.

زفر أفراهام:

- يوسي اللعين!

- منظر الخراب يجرح مشاعرك يا أفراهام؟

- ما يجرح مشاعري أنه لم يكن لي دور في هذا النصر.

تركها في الشرفة تستهزئ بتذمره المتغطرس، وعاود الدخول إلى الغرفة يفتح حقيبة ثيابه وهو يقول:

- أتأتين معي إلى الشاطئ؟

نظرتها الحادة كانت كافية ليفهم رفضها، ابتسم ابتسامته الباردة، ثم أخذ ثوب استحمامه والمنشفة وخرج.

بعد أن رحل عن الغرفة، أخرجت نايري كاميرا مينوكس مصغرة.

كان الوقت مواتيًا لتحوم في القصر بالكاميرا التي لا يزيد طولها على سبابة كفها، وعرضها على إصبعيها مضمومتين.

كلما التقاها أحد الخدم، تظاهرت بأنها تأخذ جولة استكشافية في القصر، ثم باغتتهم وصورت المداخل والمخارج والطرقات والسلالم والممرات، كأنها ترسم خريطة للقصر بالصور، حتى سارت في طرقة بالطابق الثاني، ومرت بجوار غرفة فُتح بابها فجأة وخرج منها يوسي.

ألقت الكاميرا في جيب ثوبها الصيفي بخفة من دون أن يلاحظها يوسي.

قابلها بابتسامة مضيافة، بادلته بواحدة مثلها، وراقبته وهو يغلق الباب بمفتاح وضعه في جيبه قائلاً:

- أضللت الطريق إلى غرفتك؟

- نعم. تعرف حال النساء، لسن خبيرات بالطرق.

- لا لوم عليكِ، فالقصر أفسح من مزرعة الخيل. ستحتاجين إلى خبرة عسكرية حتى تحفظي مداخله ومخارجه.

- لقد سمحتُ لنفسي بأن آخذ فيه جولة سريعة، تفاصيله حقًّا باهرة. ما جنسية المهندس الذي شيّده؟

- كيف لي أن أعرف، لم أنتقل إليه سوى منذ ثلاثة أيام.

هكذا فهمت نايري، ويوسي يسير معها إلى آخر الطرقة ليرشدها إلى السلالم، أن هذا القصر البهيج ذا الطوابق الأربعة والحديقة الغناء والتماثيل الرخامية كان غنيمة عمليته العسكرية في حيفا.

- هل رأيتِ البيانو في الردهة يا آنسة... المعذرة، ما كانت كُنيتك مجددًا؟

- شوارتز، روث شوارتز.

- آه. كُنية أشكنازية بديعة. أنتِ من برلين مثل أفراهام؟

- نعم.
- أتقيمين معه بالقدس؟
- وصلت منذ بضعة أيام.
نزلا السلم ووصلا إلى الغرفة التي خصصها لها، فقال بالابتسامة المرحبة نفسها:
- ما كنت أتخيل أبدًا أن تصير لأفراهام حبيبة غير زوجته آباء لكن يبدو أنه لم يتحمل سفرها الطويل. ما أبأس حياة الرجل من دون امرأة.
توقفت نايري عن السير، وحدقت إلى يوسي مستنكرة كل كلمة في جملته الفجة.
انتبه لانزعاجها، فضحك بتوتر وقال:
- اعذري وقاحتي، يبدو أنني أسرفت في الشراب.
لم تعلق ولم تبسط ملامحها التي انقبضت غيظًا، فقال يوسي وهو يجذبها بطريقة أبوية من مرفقها حتى تستأنف سيرها معه:
- لم تُجيبيني بعد، ما رأيك في البيانو؟
- لا بأس به.
- كان هذا أول ما اشتريته لابنتي بعد فرارنا من برلين. النازيون كانوا يكنون كراهية عجيبة للبيانو، فكان أول ما يحطمونه في أي منزل يهودي يقتحمونه.
- ربما لأن هتلر فشل في عزف البيانو في طفولته.
- فشل في الموسيقى، وفشل في الرسم، وفشل حتى في إبادتنا. انظري كيف سيذكره التاريخ وكيف سيذكرنا نحن.
حاولت أن تكتم ابتسامتها الساخرة، بينما أسهب قائلاً:
- أطلتِ عليكِ الحديث، ولكن لديَّ سؤال أخير أحب أن أطرحه على كل يهودي وافد إلى أرض إسرائيل. ما رأيك في وطنك الجديد؟
- حار! بشرتي لم تخلق لتحمُّل شمسه.

- أليس هذا أفضل من ثلوج وأمطار ألمانيا الكئيبة؟
- أحبذ الغيوم التي تحوم فوق داري في برلين عن دفء شمس أي دار تستضيفونني فيها. عن إذنك.

تركته ينظر إليها مستنكرًا إجابتها التي لا تليق على هوى أي صهيوني، ودخلت الغرفة.

أخرجت من حقيبة يدها كتاب «وطن نايري»، وأخذت سكين طبق الفاكهة التي وضعها الخادم لهما على طاولة السرير كأنهما في فندق لعين.

فتحت الكتاب عند منتصفه، شقت مربعًا كبيرًا فيه أفرغت منه بقايا الورق، ثم دست فيه الكاميرا وورقة كتبت عليها بضع ملاحظات تخص خريطة القصر، ثم أعادت غلق الكتاب، ولفته بشريطة شعر أحكمت عقدها.

أخرجت من حقيبة سفرها التي لم تفرغ محتوياتها بعد، ثوب سباحتها الأحمر، وحقيبة أنيقة من الخوص، وضعت بأرضيتها منشفة صغيرة، ثم الكتاب الملغم بالكاميرا والملاحظات، وفوقه منشفة أخرى وثوب صيفي وصندوق صغير فيه مستحضرات تجميلها، ثم منشفة أكبر.

خلعت ثيابها، وكادت تضع ثوب سباحتها، وإذ بباب الغرفة يُفتح عليها فجأة.

اندفعت لتجذب غطاءً على السرير تستر به بدنها، ولكن لم يسعفها الوقت، مَن فتح الباب من دون استئذان كان قد دخل الغرفة بالفعل.

حدقت نايري العارية إلى تلك الفتاة السمراء ذات العينين الداكنتين والشعر المموج القصير التي وقفت في منتصف الغرفة ممسكة بزجاجة بوربون.

لم تخجل من أنها اقتحمت خلوتها، ولا من أنها احتلت مساحتها الشخصية، بل وقفت تنظر إليها من رأسها وحتى قدميها، ثم قالت

المخمورة السمراء:

- ظننت الغرفة فارغة. مَن تكونين؟

- بل مَن تكونين أنتِ حتى تقتحمي عليَّ غرفتي بتلك الطريقة الـ...

- هذه غرفتي، والتي تجاورها، والتي تقابلها، والغرفة التي من تحتها والتي من فوقها. هذا قصر أبي. والآن، أين رأيتك من قبل؟

لن تُجيبها. لن تقول لها إنها رأتها يوم سقوط حيفا، في غرفة دار اقتحمتها هي وعشيقها يائير الذي قتلته نايري برصاصها، لأنه حاول الاعتداء عليها.

قالت نايري:

- لا أظن أننا التقينا من قبل، عدتُ من برلين لتوي.

- ألهذا عبريتك ركيكة تطغى عليها اللكنة اليديشية؟

شربت مزيدًا من الخمر، ثم قالت:

- أي ذراع تأبطتِ حتى يدعوكِ أبي إلى حفله اللعين؟

- أفراهام لينمان.

- يا له من اختيار مثير للشفقة!

* * *

تمشت نايري حتى البحر بثوب الشاطئ وخفيها وقبعتها الصيفية الضخمة ونظارتها الشمسية السوداء.

لم يكن الشاطئ مزدحمًا، فتمكنت من أن تجد بسلاسة مَن تبحث عنها.

بين وجوه المتشمسين بدفء حيفا، رأت الفتاة التي أعطتها خطاب إلياس في القدس، وقد أخبرها إلياس بأن اسمها غيدا.

كانت ترتدي ثوبًا أسود وقبعة بيضاء، وبجوارها حقيبة من خوص كتلك التي تحملها نايري.

اقتربت نايري من غيدا المستلقية على مقعد شاطئ خشبي أسفل شمسية ملونة، فارتطمت بطرف كرسيها، وسقطت على الأرض ومعها حقيبتها الخوص.

تظاهرت غيدا بمساعدتها على النهوض، ثم قامت بأكثر حركات الجاسوسية كلاسيكية، بدّلت الحقيبتين المتطابقتين كما اتفقتا عبر آخر برقية بين نايري ورفاق المقاومة.

أخذت نايري حقيبة غيدا، وأكملت طريقها صوب البحر.

فرشت منشفتها الملونة على الرمل ثم جلست فوقها، وغرست أصابع قدميها الملونة بطلاء الأظافر الأحمر في الرمال الدافئة.

استلقت على المنشفة، تملأ صدرها برائحة البحر، وتنصت لتلاطم أمواجه، وتشعر بمذاق يوده يغزو فمها، وأشعة شمس نيسان تلامس جلدها البض.

كادت تغفو من فرط استرخائها، لولا أن أفراهام أقبل عليها، وجلس بجوارها مبللاً منشفتها، غازيًا سكينتها، ومستوطنًا هدوءها وهو يقول:

- غيرتِ رأيك؟

أجابته ببرود من دون أن تلتفت حتى نحوه:

- روتيم ابنة يوسي.

- إذن؟

- روتيم هي تلك العاهرة التي حاول عشيقها الاعتداء عليّ.

- هل تذكرتك؟

- كلّا، كانت مخمورة. لا أدري مدى جودة ذاكرتها حين تفيق.

- روتيم لا تفيق. أعرفها منذ أن كانت مراهقة.

- إلى أي مدى تعرفها؟

- إلامَ ترمين؟

- إلى حقيقة أنها انزعجت حين عرفت أنني رفيقتك.

صحيح أنها لم تنظر إليه، لكنها تحفظه إلى درجة أنها واثقة بأنه يبتسم الآن ابتسامة متغطرسة متصابية، وهو يقول لها:

- تغارين عليّ؟

- تركت الغيرة للحمقاوات.

نهضت نايري عن المنشفة تخلع نظارتها الشمسية وقبعتها ثم ثوبها الصيفي، لتكشف عن ثوب سباحتها الأحمر ذي الفيونكة الكبيرة التي تتوسط الصدر، ثم سارت تغرس قدميها العاريتين في الرمال حتى وصلت إلى الماء وأخذت تسبح.

تأملها من على الشط. بشرتها التي توردت من حرارة الشمس، والنمش على كتفيها، وجروح قيودها المندملة حول رسغيها، والندوب والحروق التي تملأ ظهرها، وشعرها الذي يطفو فوق البحر وتزيده الأشعة لهيبًا يحرق فؤاده.

كانت تفاصيلها باهرة كحورية أسرته بغنائها.

فلتقل ما تقوله، وتظن ما تظنه، لم يحب أفراهام امرأة بقدر ما أحبها.

* * *

أيقظها أفراهام في الوقت المناسب منتشلاً إياها من نوبات شلل النوم.

أمسك يدها، فشعر بها تقبض على كفه مستنجدة به لا مستنفرة منه، كأنها نسيت للحظة أنه عدوها اللدود.

فتحت عينيها وهي تلهث، نهضت في السرير الفسيح الذي تركه لها أفراهام لينام على الأريكة كما أمرته.

جلس بجوارها، ربت على كتفها بحنان، فقالت له:

- البيانو اللعين!

- ما زلتِ تذكرين؟

سحبت يدها من كفه، وتظاهرت بالانشغال بمسح عرقها الذي سال على الرغم من اعتدال حرارة الغرفة.

- جاهزة لليلة؟

- نعم، سوف...

قطع حديثهما طرق الباب، نهض أفراهام ليفتحه فوجد الخادم. همس إليه بشيء فصرفه أفراهام، ثم عاد إلى نايري.

- ما الأمر؟
- شخص ما ينتظرك، يقول إنه أتى إليكِ بثوبكِ الأحمر.
قادها الخادم حتى الشارع، حيث تقف سيارة يتكئ إيلي على بابها، وبمجرد أن لمحها تقترب منه، تهللت أسارير وجهه.
بدا مشرقًا، حليق الذقن، يرتدي ثيابًا نظيفة، ولا تفوح منه رائحة الخمر، ولا تغطي عينيه غيمة من التيه.
- ماذا تفعل هنا يا إيلي؟
- أنتِ روث شوارتز؟
- ماذا تقول؟
- جريجور أخبرني بأن آتي إلى هنا وأسأل عن روث شوارتز. لم أتصور قَطُّ أنكِ مع الرفاق.
- أنت لا تعلم فيما تورط نفسك! عُد إلى الدار.
- بل أعرف، وأعرف أيضًا أن أفراهام يراقبنا الآن من الشرفة، لذلك اهدئي وتحدثي على طبيعتك.
فتح باب الأريكة الخلفية فرأت نايري ثلاث حقائب سفر ضخمة، أخذ إيلي إحداها وأعطاها إليها.
صاحت فيه:
- لن آخذ منك شيئًا. جريجور هو المنوط بهذا الدور و...
- إنها الطريقة الوحيدة لأثبت لهم بها ولائي.
- اللعنة على جريجور وعلى ولائك. إن اشتم أفراهام خبرًا سـ...
- كيف سيعرف؟
- ألا يراقبك يورام؟
- خدرته قبل أن أرحل من الدار.
- يا أحمق هذا سيثير ريبة أفراهام أكثر. سوف...
- إنها ليلتي الأخيرة هنا. المركب سيتحرك من الميناء في تمام التاسعة. لن يطولني.
- إن لم يطُلك هو، فهناك مائة شخص آخر سيطاردك. أنت لا

تعرف ما الذي فعله فيمن قبلك.

- أعرف. أبي وأمي لخير دليل.

هربت دموعها، ووضعت يدها التي ارتعشت أصابعها على فمها.

عانقها إيلي، وربت على ظهرها حتى يطمئنها وهو يقول:

- أعرف أن أفراهام قتلهما منذ ليلتي الأولى هنا.

رفعت رأسها عن صدره ومسحت دموعها وهي تسأله:

- لماذا لم تقتله؟

- وأعطيهم فرصة ليجعلوا منه شهيدًا مضطهدًا؟

- لكنه قصاصك!

- القصاص بمحاكمة عادلة وقضاء يجعل من المجرم عبرة للعالم، حتى يفكر كل مستوطن ألف مرة قبل أن يقبل على إبادة أمة كل ذنبها أنها أبت أن تنخلع جذورها من أرضها.

- آه يا إيلي البريء. أمَا زلت تؤمن بالعدل؟

- ما زلت أكفر بمحاربة الموت بالموت.

ربتت على وجهه الهزيل بابتسامة مُحبة، ثم قالت:

- أنت تستحق حياة أفضل من ذلك. أنت تستحق الهناء والحب يا إيلي. لقد قرأت خطاباتك و...

- يمكننا أن نتحدث عن حياتنا العاطفية بعد أن نفضح هذا الكيان اللعين. الوقت الآن غير مناسب.

هزت رأسها موافقة، فقبّل جبينها ووجنتيها، ثم قال:

- أنا فخور بكِ. لم أتصور قَطُّ أن تأتي إلى القدس وتنضمي إلى المقاومة العربية. والآن، عودي حتى لا تثيري ريبة هذا الديبوق اللعين.

- سآتي إلى الميناء. لا ترحل قبل أن أودعك.

عانقها مرة أخرى، استنشق رائحة شعرها، وضغط على ظهرها كأنه يحاول أن يصهرها بين أضلعه فيهاجر بها إلى فرنسا. البلد الذي شهد على تحرره من النازية، والآن سيشهد على تحرره من الصهاينة.

مسحت دموعها التي فرت منها وهي تراقبه يركب سيارته الفورد ويرحل بحقائبه.

عادت نايري إلى غرفتها فوجدت أفراهام يقف في منتصف الغرفة. شتان بين ملامحه منذ قليل حين قلق عليها بسبب كابوسها الجاثم، والآن وهو يقف واضعًا يديه في خصره يتابع حركتها بعينين خبيثتين.

قالت مبررة بنبرة جاهدت ألا ترتعش من فرط التوتر:

- إيلي أحضر لي ثوب السهرة، لقد نسيته كالحمقاء و...

- افتحي الحقيبة!

- ما خطبك؟

- افتحيها!

- وإن رفضت؟

حدقت إليه بثبات، لكنه لم يخضع إلى هيمنتها، جذب منها الحقيبة فصاحت:

- توقف! سأفتحها أنا! يا لحماقتي! للحظة ظننتك عَقِلت وتوقفتَ عن الشك فيَّ. للحظة ظننت أننا حقًّا قد نمضي وقتًا ممتعًا، لكن غرورك يعميك. تظن الكل عدوك، الكل يتآمر ضدك. تريد فتح الحقيبة. هاك!

وضعتها على السرير بحذر، وفتحت سحابها الوحيد. كانت بداخلها ثلاثة فساتين من أحدث صيحة، وقفازات حريرية، وحذاءان عاليا الكعب، وثلاث حقائب يد صغيرة، كلٌّ منها تلائم ثوبًا من الثلاثة، وصدريتان، وثوب داخلي.

لم يخفت بريق غضبه، ظل يرمقها بغضب مكبوت ثم رطم كتفها في طريقه إلى الحمَّام.

خرج مبدلاً قميصًا نصف كُم وسروالاً بمنامته، ثم انتشل سجائره وقبعته من على الطاولة وخرج.

بمجرد أن رحل، تنفست الصعداء، ثم نهضت تعيد غلق الحقيبة

وتحملها بحذر إلى الحمَّام المرفق بالغرفة، ثم توصد الباب عليها.
أخرجت الملابس كلها إلى أن وصلت إلى القاع، وجدت السحاب السري، فتحته بهدوء لتجد مرادها، المتفجرات.

* * *

كان يوسي قائد اللواء الكرملي يفخر بالهوية الإسرائيلية الأصيلة التي وصفها بأقدم هوية لم يخفت الزمن نورها، وهو يملأ شدقيه بالمقبلات الفلسطينية، ويريح ظهره المقوس من ثقل كرشه على بيانو ستينواي الأسود الذي لم تبتعد نايري عنه خطوة.
في أثناء ذلك، كان أفراهام ينظر بازدراء إلى أربعين قائدًا من قادة الهاجاناه بمختلف لواءاتها وهم يتفاخرون ببطولتهم وبمجدهم، ويتغنون بمستقبل اليشوف، وبالغد الإسرائيلي المزدهر.
يوسي السمين يمتدح شجاعة هذا، ويثني على عبقرية ذاك إلى أن طفح الكيل بأفراهام، واتجه إلى يوسي وزوجته مدخنًا سيجارته وحاملاً كأسه يسأله:
- متى سيصل عزلماني؟
- لن يأتي الليلة، أصيب بحُمى شديدة.
- يدعوني إلى الحفل ولا يأتي؟
زفر أفراهام، وقد فشل يوسي في أن يخمد نيران حقده، فغيَّر مسار الحديث قائلاً:
- لم تقل لي ما رأيك في البيانو؟ إنه بيانو يهودي أصيل.
- هنري إ. ستينواي لم يكن يهوديًّا. ما من شيء يهودي في قصرك اللعين هذا سوى التوراة المتربة التي لم تقربها منذ أن ولدتَ. حتى ضيوفك، ليسوا يهودًا عن حق.
- لسنا في ميدان ننتظر منك خطبة عصماء. نحن هنا لنستمتع يا رجل! لم لا تجعل رفيقتك تعزف لنا شيئًا إلى أن تصل الفرقة.
- أتريد من خليلتي أن ترفه عنكم؟
- هذا أقل شكر قد تقدمه لي على حسن ضيافتي لكما.

حدق أفراهام صوبه ينفث دخانه بنظرات خبيثة، ثم تجرع كأسه كلها، وقال بابتسامة واسعة غير متوقعة:

- أنت محق. اسمح لي أن أذهب كي أرد لك كرم ضيافتك.

تركهما أفراهام، ومر بجوار نايري بخطوات غاضبة، فاستوقفته قائلة:

- إلى أين؟

- أصدقت أنكِ عشيقتي بحق؟

دفع ذراعها ثم خرج من القصر، كانت لتتبعه، لكن لديها مهمة أكبر.

وقفت ترتشف الشمبانيا، وتنظر إلى ساعتها من دون أن تلفت الأنظار إليها، متجنبة التحديق إلى عينَي أيٍّ من السفاحين المحيطين بها، حتى لمحت مَن ترتقب وصولهم منذ بداية الليلة.

ثلاثة رجال يرتدون توكسيدو بيضاء وفيونكة سوداء عند العنق، يحمل كلٌّ منهم آلة موسيقية.

جاسر يحمل آلة القانون، ونصر الله يحمل الرق، وأيوب ممسك بالعود.

هكذا تسلل رفاق المقاومة كأعضاء فرقة التخت الشرقي بفضل تنصت نايري على السيدة ميراف وهي تروي لصديقتها على الهاتف التي تهوى الموسيقى العربية عن تفاصيل وميعاد الفرقة، فأعد لهم الرفاق كمينًا على الطريق فسرقوا آلاتهم وشاحنتهم التي صُفت في ساحة انتظار سيارات القصر، تلك الشاحنة التي يقودها العراقي، ويجاوره إلياس الذي لم يخاطر بدخول القصر حتى لا يتعرف عليه أفراهام وتفشل العملية كلها.

وقف الرفاق متجنبين النظر إلى نايري، وكذلك فعلت هي، بل ركزت على متابعة يوسي الذي راقب دخول الفرقة حتى أتت زوجته التي غابت لدقائق، ثم همست إليه:

- حبيبي، السيدة لويتوف لن تتمكن من الوصول في ميعادها.

التوى كاحلها وهي تهبط إلى درج دارها.

لم يتمالك يوسي أعصابه، قال لنفسه: «هل اشتريت بيانو بخمسة آلاف دولار أمريكي لعين حتى لا نعزف عليه للضيوف؟».

أخيرًا التقى نظر نايري بأعين الرفاق الذين يولون ظهورهم للبيانو، ويوجهون وجوههم إلى الضيوف بالصالة. أومأ جاسر إليها حتى تتحرك وتنفذ دورها في تلك العملية.

أخذت نفَسًا عميقًا، تجرعت كأس الشمبانيا التي تمسكها على دفعة واحدة، وما كادت تتحرك حتى استوقفها يوسي ممسكًا بمرفقها وهو يقول:

- روث! أنتِ منقذتنا.

راقب جاسر ونصر الله الموقف من كثب، بينما بقي أيوب لا يفهم ما يقال لجهله باللغة العبرية.

قالت نايري وهي تحك شحمة أذنها:

- معذرة؟

- نريدك أن تعزفي البيانو، أتعرفين سيمفونية بيتهوفن التاسعة؟

تعرفها هي وجميع سيمفونيات بيتهوفن وموتسارت وفيفالدي، وتجيد عزفها وهي معصوبة العينين.

في ظرف آخر، كانت لتوافق وتعزف بسلاسة، لكن كيف لها أن تفتح بيانو ستينواي، وتضغط على مفاتيحه وهي تعلم أن ضغطة واحدة ستطلق العنان للمتفجرات التي زرعتها في البيانو على غفلة من الجميع؟

١٣
سوسن الناصرة

تطاردني تفاصيل موسم سوسن الناصرة.

الجو ربيعي يبهج القلب، رائحة السوسن الأبيض تتسلل بخفة إلى أنفي فتنشرح صدري.

تلك الأجواء جعلتني أحن إلى عملي مصورًا سينمائيًّا يلتقط جمال الممثلات ووسامة الممثلين وسحر الطبيعة.

تمنيت لو كنتُ خرجت مع أفراهام وعمي أورباخ إلى هذه القرية النائية لأصور السوسن وليس لتوثيق قبض الصهاينة على عناصر المقاومة المحتمين فيها.

كانت مهمتي الأولى مع الهاجاناه، شهادتي الميدانية الوحيدة عن كذبة عمي. عمي الذي أخبرني بأنني سأنال شرف توثيق انتصار النور اليهودي على ظلمة الوحوش العربية الضارية التي لا تقل خطورة وعنصرية عن نازيي برلين.

هكذا مرة أخرى وقفت بالكاميرا على كتفي اليمنى، والرشاش على كتفي اليسرى.

حاولت أن أقنع نفسي أنني أصور فيلم حركة، وأن ما يحدث مجرد تمثيل. هذه الخدعة كنت ألجأ إليها طيلة تصويري لمعارك الحرب. أقول لنفسي لا تبكِ يا إيلي ولا تنهَر، إنه فيلم لا علاقة له بالواقع، هذه المجموعة من القرويين المدنيين الحفاة المرصوصين في صفين؛ واحد للنساء والأطفال، والآخر للرجال، ظهورهم إلى حقل السوسن، ووجوههم إلى أعضاء الهاجاناه المسلحين، مجرد مجاميع سينمائية، لن يموتوا بحق.

صورت مجندات الهاجاناه وهن يفتشن النساء ويجمعن حليهن في خوذهن، بينما يقف الذكور، على رأسهم ابن عمي أفراهام

ووالده القائد أورباخ، معهم رجل من أبناء القرية يضع على رأسه كيسًا من الخيش يخفي هويته، وبه ثقبان ليرى منهما وهو يمد إصبعه ليميز رجال قريته الذين يخبئون السلاح أو يؤوون عناصر المقاومة في ديارهم.

قربت الكاميرا على يده، كانت خنصر كفه اليسرى مبتسرة، اعتقدت أنها علامة كافية ليعرف أهل القرية هوية الواشي بينهم، حتى وإن كان رأسه مغطى.

أشار الواشي إلى عشرة رجال، علمت فيما بعد أنهم أبناء خليل المقدسي وإخوانه.

مَن خليل المقدسي؟ إنه العربي الكريم الذي استقبل عمي أورباخ في ميناء حيفا، حين أتى حافيًا هربًا من بطش قادة ألمانيا ضد اليهود في أواخر القرن الماضي. كان يحمل تصريح عمل بوصفه عامل نظافة في حمّام سينما حيفا بأجر زهيد لا يكفي ثمن تأجير غرفة. هناك تعرف عليه خليل المقدسي، فرقّ لحاله وأراد أن يريه كرم ضيافة العرب، وعرض عليه العمل عنده في مكتبته في القدس والمكوث في غرفة صغيرة في القبو إلى أن تتحسن حالته المادية، ويقدر على شراء دار لنفسه.

وبالفعل، تحسنت حال أورباخ حين انضم إلى الجمعية اليهودية الفلسطينية وسلك المسلك الحربي، مستغلًّا التجنيد العثماني الجبري للفلسطينيين في الحرب العالمية الأولى، وغياب خليل، فهجَّر زوجته وأولادهما الخمسة من دارهم في القدس الشرقية تحت تهديد السلاح، ثم تزوج شيبرا وأنجب أفراهام.

في هذا الصباح في الناصرة، لم أرَ من أبناء المقدسي إلا أربعة، إدوارد وسعيد وجوزيف وإسكندر.

كان عمي أورباخ هو أول مَن تعرف على الشباب الأربعة قبل حتى أن يشير الواشي إليهم، فأمر أفراهام أن يفرق الرجال العشرة، أي إخوة إلياس المقدسي وأعمامه، عن باقي الرجال.

وقف أورباخ يسألهم بعربية ركيكة:
- مَن منكم يخبئ السلاح في داره؟
لم يُجِب أيهم، فأطلق أورباخ رصاصة عشوائية على كهل في صف الرجال الآخر.
صاح إدوارد في أورباخ:
- لماذا قتلته؟ ألم يقل لك كيس الخيش إنه ليس في المقاومة؟
- إذن تعترف أنكم في المقاومة.
- بل ولنا الشرف يا ابن العاهرة يا ناهب الديار!
لم يستلطف أورباخ تلك السبة، أشار إلى ابنه ففهم مراده من دون كلام.
أطلق أفراهام رصاصه ومن بعده رجاله على صف الرجال الأبرياء الذين لا علاقة لهم بالمقاومة.
انتصبت كل شعرة في بدني وثقلت أنفاسي.
حاول عقلي أن يخدعني ويخبرني بأن الفيلم ما زال مستمرًّا، وأنه بمجرد أن يصيح المخرج «اقطع» ستنهض هذه الجثث من موتها في حقل السوسن الذي تخضب بياضه بدمائهم، وسيأتي فنيو التزيين ويمسحون الدماء عن وجوههم.
لكن صراخ النساء جعلني أصدق أنني أشهد مذبحة مفجعة.
ولولت النساء وذعر الأطفال، بينما هربت الدموع من أعين رجال المقاومة الذين نادوا على موتاهم من هول الصدمة.
التفت عمي إليّ، وقال بالعبرية:
- أوقف التصوير.
أنزلت الكاميرا عن كتفي، لكني لم أقطع التصوير.
- أنهِ عليهم!
أومأ إليّ برأسه صوب صف النساء والأطفال المقابل لي فلم أستوعب أمره.
نظر أفراهام إليّ، وهمس:

- أطلق الرصاص عليهم!
- النساء والأطفال؟
- نفذ الأمر يا إيلي! الكل ينظر إليك!
لم أفعلها، لم أقوَ على ذلك.
اقترب أورباخ مني يضرب الأرض سخطًا، أكاد أجزم أنه كان سيصفعني ليبسط سيطرته أمام جنوده، ولكن صياح إدوارد استوقفه وهو يقول له:
- توقف! السلاح كله في داري.
- أي الديار دارك؟
- سأريك بنفسي. فقط دع النساء والأطفال وشأنهم.
انفرجت أسارير وجه عمي، ولكنه لم يتخطَّ خيبة أمله فيَّ، قبل أن يتبع إدوارد، بصق على حذائي، ثم قال لأفراهام:
- أبقوا أسلحتكم مصوبة على الجميع.
نخز ظهر إدوارد بسلاحه ليتقدم، لكنه اعترض قائلاً:
- ستحتاج إلى رجالك كلهم، فالسلاح أكثر وأكبر مما تظنون.
جمع أورباخ رجاله وأبقى أفراهام ليسيطر على الرجال والنساء، فبقيت أنا وهو ومجندتان وكيس الخيش الذي وقف يرتعش.
دخلوا جميعًا إلى الدار التي قادهم إدوارد إليها، بينما قال كيس الخيش لأفراهام:
- ها قد وجدتم السلاح، الآن اتركوني.
- اخرس!
صاحت امرأة عرفتُ لاحقًا أنها السيدة تمَّام، زوجة خليل المقدسي:
- يلعن تاريخك يا عامر!
- يا خالة، أخذوا زوجتي!
- أخذوا ديارنا وولادنا ورجالنا، لكننا لم نلبس كيس الخيش مثلك يا خائن.

خلعت حذاءها، وألقته صوب رأس كيس الخيش.
انتظرت النساء رد فعل الميليشيات، ولكن رد الفعل الوحيد كان أن أفراهام ضحك.
اعتبرت النساء أن هذا السكوت هو علامة الرضا، فانقضضن على كيس الخيش ينسلن نعالهن فوق رأسه حتى سالت دماؤه.
ضحكت المجندتان كأنه مشهد هزلي من مأساة إغريقية، لكن في أثناء هذه المهزلة، شعرنا بالأرض ترتج أسفل أقدامنا، ثم سمعنا دوي انفجار.
نظرنا صوب الصوت، فكان قادمًا من دار إدوارد التي قيد إليها عمي ورجاله.
كان فخًّا، قادهم إلى داره وفجرها بمن فيها، وأولهم نفسه مفديًا روحه بأهالي قريته.
كانت هناك شابة واقفة تحمل على ذراعها طفلة قد تكون ابنة ثلاثة أعوام، وتمسك بيدها صبيًّا في السادسة أو السابعة من عمره. كانت واقفة بجوار السيدة تمَّام، ولم تقدر على ضرب الخائن بيدها لأنها تحمل طفليها، فاكتفت بركل عامر.
بمجرد أن رأت هذه الأم الشابة الانفجار توقفت عما تفعله، وصرخت وارتعشت، وكادت تسقط رضيعتها من يدها، لولا أن السيدة تمَّام أسندتها، وقالت:
- ماذا بكِ يا غيدا؟ زوجك شهيد! ابني بطل!
وقفت تمَّام تزغرد والدموع تسيل من عينيها:
- يا إدوارد يا ابن أبيك! فلتؤانس أخاك وأباك حتى نلتقي يا عيني.
ظلت تزغرد حتى انضمت النساء إليها، كلهن يزغردن بمن فيهن غيدا أرملة إدوارد.
صورتُ هذا كله، زغاريد النساء المبحوحة المختلطة بالدموع، هتاف أعمام إدوارد وإخوته ورعشة واضطراب مجندتَي الهاجاناه ودموع أفراهام المنهمرة على أبيه.

صورت أيضًا أفراهام وهو يمسح دموعه، ويشد أجزاء سلاحه ويفتح الرصاص على الفلسطينيين من دون تمييز.
قتل أعمام إدوارد وإخوته وسبع نساء أخريات، وأصاب كتف السيدة تمَّام التي ألقت نفسها على غيدا وحفيديها لتفديهما بجسدها.
تركت الكاميرا، صرختُ في أفراهام ودفعته بكل قوتي ليتوقف. انهال عليَّ باللكم والركل والصفع، فاستغل مَن بقي حيًّا من أهل القرية هذه الفرصة بأن انقضضن على المجندتين ثم هربن من براثن الموت بأعجوبة.
أفرغ أفراهام غضبه وفجعته من ميتة أبيه فيَّ، أخذ يركلني ويلكمني حتى سقطت صوب حقل السوسن الدامي بشهدائه، عيناي تقابل عينَي جوزيف الذي توسطت رأسه رصاصة، بينما صرخ أفراهام فيَّ من دون أن يتوقف عن ركل أضلعي ببيادته:
- يهودي كاره لنفسه!
توقف إيلي عن الكتابة بقلمه الرصاص.
بعد ما لا يقل عن خمس وثلاثين محاولة، أخيرًا أكمل هذا الفصل من كتابه «مذكرات يهودي كاره لنفسه».
لم يأخذ اليوم قرصًا من البيرفيتين ولم يذُق الكحول، ومع ذلك لم يتخلص من هلاوسه البصرية.
لم يكن يرى جثث قرية الناصرة أسفل قدميه فحسب، بل يرى البحر دمًا كأنه في يوم معركة نورماندي التي زاد فيها الدم على ماء البحر.
دعك عينيه، أعاد الأوراق والقلم إلى حقيبته التي وضعها بجواره على مقعده الخشبي على حيد رصيف ميناء حيفا.
حاول أن يستنشق ما يكفي من اليود ليقنع نفسه بأنه لا يشم رائحة الدماء الحديدية المقيتة.

نجحت الفكرة، اختفت الجثث وتلاشت الدماء، لم يعد يرى سوى بحر مظلم يمتد كالمداد الأسود أسفل سماء تلك الليلة الربيعية، ليلته الأخيرة في فلسطين المنهوبة.

ظل يراقب السفن. كانت شحيحة، الكل يخاف أن يقرب ميناء حيفا بعد المجزرة التي لم يمر عليها إلا بضع ليالٍ.

لم يرَ عربًا، جميع العاملين يهود أوروبيون، يحمل كلٌّ منهم سلاحًا يخفيه أسفل قميصه.

سمع صوت حركة قريبة منه، نظر أمامه فوجد كلبًا أسود يسير على مهل ويقترب من مقعده.

مدَّ يده ليداعب رأسه، لكن الكلب زمجر وابتعد وقد رفض أن يطيع نداءه وتصفيره له.

كل كلاب فلسطين تعصيه على الرغم من أنه كان يحترف تدريب الجراء والكلاب. حتى الجراء التي تبناها في غرفة المكتبة، لأن أفراهام سمم أمها التي تزعجه بنباحها في الشارع، مات منها اثنان هذا الصباح والباقية هربت منه حين أخرجها لتتبول في الشارع.

كانت هذه تتمة إقامته في القدس، إدراك أن حتى كلاب هذه المدينة تأبى أن يكون سيدها.

خرج الحيوان الرافض لطاعته عن نطاق نظره، لينتبه إيلي لاقتراب حيوان آخر لا يعرف العزة.

كان أفراهام يرتدي توكسيدو وحذاءً جلديًّا أنيقًا، ويقترب منه بابتسامة واسعة، ويداه في جيبَي سرواله النظيف.

قبض إيلي على حقيبته تلقائيًّا، وهو يراقب أفراهام يجلس بجواره، واضعًا ساقًا فوق الأخرى وهو يقول:

- كنت سترحل من دون أن تودع بطلك وقدوتك؟

- لست قدوتي يا أفراهام.

- تقول هذا الآن وقد فردت طولك، ونسيتَ أنك لم تكن تقوى على خوض مشاجرة واحدة من دون أن تركض صوبي باكيًا.

- كنت ألجأ إليك لأنك ثور يقوده الغضب.
- أيكون الرجل رجلاً إن لم تقُده الحمية والتعصب لشعبه ودمه؟ كم مرة جُرح وجهي وشُقت شفتَاي وكُسر أنفي من أجلك يا ابن عمي؟ لكن أنت ماذا يقودك؟ المخدرات؟ الخمر؟ جلد الذات؟ حبك المثير للشفقة لنايري التي لم تبادلك المشاعر نفسها ولو ثانية واحدة؟
- أفضل من أن تقودني الكراهية.
- لا تتعالَ على الكراهية وأنت كاره لنفسك. كنت أظن أن أكثر ما أكرهه فيك يا إيلي أنك سكير بارد عديم المسؤولية، ولكن لم أظن يومًا أن اسم عائلة لينمان سيرتبط بأن أحد أعضائها كابو!
- تبًّا لك! كيف تجرؤ على أن تنعتني بتلك الصفة البشعة!
- كيف تجرؤ أنت على التعاون مع العرب المعادين للسامية؟
- العرب ساميون مثلنا يا جاهل!

انقض أفراهام على إيلي فجأة، وقبض على كتفيه وهو يهمس بصوت أقرب إلى الفحيح:
- ما الفرق بينك وبين المساجين اليهود الذين تواطأوا مع النازيين لمراقبتنا في معسكرات الاعتقال والوشاية بنا؟
- الفرق أن أبي والعم أزاد ربياني على أن نصرة الحق لا تعرف دينًا ولا جنسية. أتظن أنني سأواليكم لمجرد أننا نعبد الرب نفسه؟
- أتعادي يهوه؟
- يهوه بريء من بطشك. صرتم تعبدون صنمًا مختلقًا، كأننا عدنا إلى زمن العجل الذهبي.
- يبدو أنني مهما حاولت أن أوعيك، ستظل أفكارك كصرير الباب، مزعجة وعديمة الجدوى.
- خير من أكون بوقًا أجوف يمرر صدى قادته المفسدين بلا تفكير.
- افهم يا غبي! الحضارات لا تُبنى إلا بهذه الطريقة.
- أي حضارة هذه التي يخضب مشيدوها أقدامهم بدماء أصحابها

الأصليين. كيف تنام الليل يا أفراهام؟

حرر إيلي من قبضته، وتركه يعدل قميصه، ويعتدل في جلسته، بينما يجيبه:

- أفضل النوم في النهار يا ظريف.

أخذ أفراهام نفَسًا عميقًا، وعدل بأصابعه شعره المثبت بالفازلين، ثم قال:

- العرب هم الذين بادروا بالشر. كيف تفسر رفضهم قرار التقسيم وإصرارهم على قتالنا وعلى حرق أنفسهم وحرقنا معهم.

ابتسم إيلي ابتسامته الواثقة المثقفة المتعالية التي يمقتها أفراهام، ثم أجابه:

- أتت لسليمان امرأتان أنجبتا في الدار نفسها، إحداهما مات وليدها لأنها انضجعت عليه في أثناء نومها، فاستيقظت تحت ظلمة الليل تبدل بالميت ابن رفيقتها الحي، ثم أنكرت فعلتها، وزعمت أن الوليد الحي هو ابنها منذ البداية. فطلبتا من سليمان الملك أن يفصل بينهما بعدله وحكمته. فما كان منه إلا أن أمر بشق الطفل إلى نصفين فتأخذ كلٌّ منهما نصفًا. الأم الجائرة وافقت على أن تأخذ نصف طفل ميت خير من ألا تأخذ أي شيء على الإطلاق، بينما انهارت صاحبة الحق، وأخذت تترجاه صارخة: «أعطها إياه حيًّا كاملاً. لن أقبل بأن أرى ولدي يمزق أمامي».

تضاعفت كراهية أفراهام لإيلي.

لم يعلق على حكايته التوراتية، نظر إلى ساعة يده الذهبية، ثم قال:

- سأتركك تصعد إلى السفينة وترحل بلا رجعة، ولكن اترك حقائبك.

- أهرب إلى فرنسا مرة أخرى لا أملك سوى القميص الذي يستر ظهري؟

- لا أريد سوى الصور وشرائط الأفلام التي صورتها للهاجاناه وصور كيراز.

تحسن مزاج أفراهام حين رأى ابتسامة إيلي المغرورة تُمسح عن وجهه ويستبدل بها معالم الصدمة.

- ليتك تعلمت مني يا إيلي ولو خُمس مكري، ما كنت في هذا المأزق الآن. هيَّا، أعطِني الحقائب.

- تعرف أنني لن أوافقك على ذلك.

تأفف أفراهام، ثم فاجأ إيلي بفوهة مسدسه تنخز قلبه.

- اترك الصور.

- ماذا ستقول لليشوف؟ اغتلت ابن عمك لأنه خالفك في الرأي؟

- بل اغتاله عربي عنصري. سأبكي عليك كثيرًا، وسأقيم لك جنازة تليق بفيلسوف إسرائيلي فُقد في عز شبابه. والآن ما اختيارك؟

* * *

أعدت نايري خطة بسيطة لتفجير احتفال قادة الهاجاناه.

الرفاق يعدون القنبلة التي تناسب مساحة القصر كما وضحتها لهم في الكاميرا التي سلمتها إلى غيدا على الشاطئ.

تزرع القنبلة داخل البيانو، وتبقى بجواره تحرسه حتى لا يلمسه أحد قبل أن يجتمع قادة الهاجاناه.

يأتي الرفاق منتحلين شخصية عازفي التخت الشرقي ليحرسوا البيانو، حتى تصعد هي إلى مكتب يوسي وتأخذ كل ما سيحتاجون إليه من قوائم عسكرية بأسماء القادة ومواقعهم وخطط هجماتهم المسلحة القادمة.

الرفاق ينهون فقرتهم، نايري تأخذ الأوراق اللازمة، ثم يتركون القصر مع وصول عازفة البيانو ليفانا لوينوف التي لن تعرف أنها ستفجر القصر بمجرد أن تلمس مفاتيح البيانو.

لكن ها قد تجلت معالم الفشل على المهمة، فمن جهة العازفة لن تأتي، ومن جهة أخرى يوسي ينتظر من نايري أن تعزف لهم فتصبح أول الموتى لهذه الليلة اللعينة.

أرجعت شعرها خلف أذنيها، وقالت بابتسامة:

- لا أظن أنه من السديد أن أعزف المقطوعة التي اتخذها هتلر وجوبلز نشيدًا وطنيًّا لهما.
- أنتِ لا تفهمين يا عزيزتي ما تعنيه لي تلك المقطوعة. ليس فقط لأنها أعظم ما ألفه بيتهوفن، لكن لأنها تحمل ذكرى لقائي بميراف لأول مرة في أولمبياد برلين، كانت الفرقة تعزفها حين اختلستُ منها قبلتنا الأولى.
ضحكت ميراف خجلاً، فمال يوسي إليها وقبّلها للمرة المائة هذه الليلة.
ظلت نايري تحدق إلى البيانو، فقال لها يوسي:
- لا تقولي لي إنك لا تجيدين عزفها.
- بلى أجيدها، ولكن أيمكن أن أعدل زينتي أولاً؟
قالت ميراف:
- لستِ بحاجة إلى مزيد من التزيين. أظن أن الاختيار الصحيح الوحيد الذي أخذه أفراهام في حياته هو مرافقة حسناء مثلك.
رسمت على وجهها ابتسامة زائفة، ثم قالت ليوسي:
- أرجوك! أعفني من هذا الطلب.
- لماذا؟ البيانو سيعض أصابعك الصغيرة؟
صمتت هنيهة، حتى وجدت أفضل مبرر يعفيها من تفجير نفسها. اصطنعت نبرة مرتعشة، وقالت وهي تنظر بعمق إلى يوسي وقد لمعت عيناها الواسعتان بالدموع:
- كانت لي جارة أرمنية في برلين، خبأتني داخل جدار وهمي خلف بيانو أسرتها بعد ليلة الكريستال الملعونة. كان بيانو من الطراز نفسه. ستينواي أسود. لذلك توقفت عن عزف البيانو بعد أن كان مهنتي ومصدر رزقي. مجرد رؤيته تذكرني بأنني في يوم من الأيام كنت فأرة خائفة تعيش في جحر بين الجدران.
أتقنت الدور.
وضعت ميراف يدها على قلبها متأثرة، بينما اغرورقت عينا يوسي

بالدموع.

ابتسم لها بحنان، ورفع يده بكأسه مرددًا الشعار الذي علقه اليهود على سفنهم الفارة من الهولوكوست النازي إلى مواني فلسطين ووعدهم الذي وعده بعضهم لبعض:

- لن يحدث مجددًا!

كررت ميراف من خلفه:

- لن يحدث مجددًا!

نظرت نايري إليهما بامتنان زائف، ثم قالت وهي تمسح دموعها:

- يا لغبائي، لقد أفسدت زينتي، أتسمحان لي؟

هزا رأسيهما، فانسلت خارج الصالة وهي تتابع الرفاق يتلكأون ويماطلون في الانتهاء من إعداد الآلات والبدء في العزف.

أسرعت الخطى، صعدت إلى الطابق الأول. وقفت عند مكتب يوسي الذي لم تجد ما يكفي من الوقت لدخوله منذ أن وصلت إلى القصر، فهو يقيم فيه ليل نهار.

أخذت دبوسًا من شعرها، وببراعة لص ديار، فتحت الباب.

أسرعت إلى المكتب، تعلم أن أي درج مفتوح، لا أهمية للأوراق والمستندات التي يحويها، فبحثت عن الدرج المغلق حتى وجدته، الدرج السفلي على اليسار.

جثت على ركبتيها، وحاولت أن تفتحه كما فتحت الباب وتجذبه بعنف، ولكن بمجرد أن جذبته بقوة، أصدر الدرج إنذارًا عاليًا، واشتعلت بالغرفة لمبة حمراء فانتفضت نايري من مكانها.

* * *

قبل أن ينطلق الإنذار، كان إلياس في شاحنة الفرقة الموسيقية يدخن سيجارته الثالثة، بينما ظل العراقي يقطع صمت الليل في منطقة وقوف السيارات بحفيف ورقة قالب الشوكولاتة.

نظر إلياس إلى ساعته، لم يمضِ إلا ربع ساعة على دخول الفرقة، ولكن نايري لم تعطِهما إشارة النجاح بعد. من المفترض أن تفتح

نافذة غرفة المكتب وتلوح لهما ليعلما أنها أخذت الأوراق بنجاح، وأنه من الآمن للفرقة أن تتقابل في نقطة التجمع الآن.

لا يدري، هل تأخرت حقًّا أم أنه يبالغ لأنه يشعر بأنها صارت مسؤولة منه. ليس فقط لأنه وعد خالها بذلك، وليس فقط لأنه من طلب منها الانضمام إليهم، بل لأنه لم يعد يطيق فكرة أن مكروهًا قد يصيبها.

للحظة، ظن أنه يبالغ، مشاعره متضخمة، لأنه لم يتعامل مع أي أنثى غير أمه وأرملة أخيه غيداء، منذ أن دفن عواطفه مع جثث إخوته وأعمامه عند سفح الناصرة، ولكنه حين سمع الإنذار ورأى الضوء الأحمر ينبثق من غرفة مكتب يوسي، أدرك أن قلبه دليله. نايري في خطر.

* * *

قبل أن يصل صوت الإنذار إلى الضيوف في الصالة، كانوا قد بدأوا يتململون بعد أن نصبت الآلات ووقف الرفاق حيارى ينظرون إلى وجوه القتلة المتلهفين للموسيقى العربية.

جاسر لا يدري وجه القانون من قفاه، وأيوب لا يفهم الهمهمات التي يهمس بها الضيوف إلى بعضهم، ونصر الله منشغل بتأمل وجه كل قاتل، يتساءل أيهم أطلق القذيفة التي مزقت ابنه أشلاء.

أتى يوسي بملامح غاضبة، وقال عبارة ما لجاسر وهو يشوح في الهواء بإشارات حادة.

لا يفهم أيوب الذي يجهل اللغة العبرية كيف أجابه جاسر أو ماذا قال، لكن فور أن ابتعد همس جاسر إلى رفيقيه:

- يريد طردنا لأننا لم نشرع في العزف بعد.

- ومَن سيحمي البيانو من الانفجار قبل خروج نايري؟

- يجب أن نعزف شيئًا، نبدو كالأغبياء.

- والله ما من غبي غيري لأنني وافقت على فكرتك الغبية تلك. لن أخرج قبل أن أنهي دوري. أنت قف عند القانون من دون حركة،

وأنت يا نصر الله، بالله عليك توقف عن التحديق إليهم كأنك ستخرج اللهب من عينيك. ستفضحوننا.

جلس أيوب على الكرسي، وأسند العود على حجره وبدأ يعزف.

انتبه له الضيوف، وبدأت همساتهم تخفت مع ارتفاع عزفه السلس والمتقن، وغنى بصوت عذب فاجأ رفاقه قبل أن يفاجأ الضيوف مطربًا الموجودين بكلمات سيد درويش:

ضيعت مستقبل حياتي في هواك

وازداد عليّ اللوم وكُتر البغددة

حتى العوازل قصدهم دايمًا جفاك

وأنا ضعيف ما أقدرش أحمل كل ده

انفرجت أسارير وجه يوسي وهو يراقب إعجاب ضيوفه بالفقرة الترفيهية في حفله، فاستمر أيوب في غنائه يستعيد أيامًا كان يعزف فيها عوده، ويطرب زوجته بصوته قبل أن يخلفها هي وابنتهما الوحيدة هربًا من ضراوة الإنجليز الذين نجحوا في تأليب أخيه عليه.

استمر في الغناء وفي استعادة ذكريات وردية لا يدري إن كان سيحيى مثلها مرة أخرى حتى سمعوا صوت الإنذار قادمًا من الطابق الأول.

توقف أيوب عن العزف، وسادت حالة توتر بين الضيوف، كأنها غارة حرب تنذر بسقوط قذيفة فتاكة فوق رؤوسهم.

في طرف ثوانٍ، كان كل قائد يضع يده على كعب سلاحه، تحسبًا لأي موقف طارئ.

قال يوسي في محاولة بائسة لتدارك الموقف:

- يا أصدقائي لا تقلقوا. هذا إنذار درج مكتبي. أحيانًا ينطلق هكذا من دون سبب. أرجوكم استأنفوا التمتع بهذه الأمسية، سأتفقد الأمر وأعود على الفور.

همس يوسي إلى الفرقة:

- لا تتوقفوا عن العزف.

انسل يوسي من الصالة يتبعه حارسان، وفور أن ابتعد عن نطاق رؤية ضيوفه، هرول على السلم وهو يأمر حارسيه:

- أغلقا كل مخارج القصر ومداخله. لا تسمحا لأي شخص بالخروج قبل أن آمر بذلك.

صعد إلى المكتب، أدار مقبض الباب فوجده مغلقًا، كانت هذه علامة مبشرة.

فتح الباب بمفتاحه ثم دخل الغرفة، كانت خالية وصوت الإنذار يصم الآذان.

اتجه إلى الدرج، كان مغلقًا، فتحه بمفتاحه الخاص، وضغط على الرمز السري المتدلي أسفل الدرج فتوقفت السرينة، وانطفأت الأضواء الحمراء وبقي طنين سخيف يدق في أذنيه.

نظر بداخل الدرج، ظاهريًا لم يجد اختلافًا في رص الملفات التي تركها هذا الصباح.

شك في أن الصفارة انطلقت خطأ كما يحدث من آنٍ إلى آنٍ، لكن كان يجب أن يتأكد جيدًا.

دفع زجاج الشرفة ونظر يتفحصها، لا أحد يختبئ فيها.

تنفس الصعداء وقال للحارسين:

- إنذار كاذب، لكن فليبقَ أحدكما على الباب.

* * *

بمجرد أن أخطأت نايري هذا الخطأ الفادح، وكانت سببًا في إطلاق هذا الإنذار، حاولت أن تنقذ ما يمكن إنقاذه، ثم هرعت تغلق الباب بدبوس شعرها كما فتحته، وكذلك تعيد غلق الدرج، ثم اتجهت إلى المفر الوحيد، الشرفة.

أغلقت باب الشرفة من خلفها، خلعت حذاءها، تأبطت حقيبتها، ثم قفزت كالهرة على كعبيها وهي تثني ركبتيها لتقلل صدمة هبوطها بين أجمة الزهور وحوض الورد.

كانت الحديقة هادئة وخاوية، فكانت ستندفع صوب موقف

انتظار السيارات، لكنها شعرت بألم شديد يضرب مؤخرة رأسها فسقطت على وجهها وهي تتأوه.

شعرت بيد غليظة تجذبها بعنف من شعرها لتقلبها على ظهرها حتى تواجهها وجهًا لوجه.

كانت اليد لروتيم التي تحمل على كتفها رشاشًا حاولت نايري انتشاله منها من أسفل السرير منذ بضعة أيام.

بابتسامة قطة غدارة وجدت فأرًا تلهو به، قالت روتيم:

- الآن تذكرت أين رأيتك آنفًا. أنتِ تلك العاهرة الصهباء التي كسرت أنفي يوم عملية تطهير الفصح.

نزلت على وجهها بكعب الرشاش فنزف أنفها بغزارة.

انتشلت روتيم منها حقيبتها وأفرغت محتوياتها على الأرض، لم تجد شيئًا لافتًا سوى هويتها.

أخذتها تقرأها، ثم قالت بابتسامة خبيثة:

- أهلاً يا آبا لينمان. لم أكن أعلم أن أسطورة القرن وصلت إلى حيفا.

* * *

إنه جحيم الجهل الذي بدأ يبتلع الرفاق.

أيوب مضطر إلى استكمال العزف والغناء، ولكن جاسر ونصر الله يقفان من خلفه من دون أي دور يلحظ.

بقيا على هذه الحالة من القلق حتى سكن صوت الإنذار، ونزل يوسي الدرج يقول لضيوفه بابتسامته السمجة:

- كما قلت لكم. لا داعي إلى القلق، إنه عطل فني.

تساءل جاسر إن كان عطلاً فنيًا، فلماذا لم تظهر نايري بعد.

لم يعد يحتمل التوتر، يجب أن ينسحب.

ترك أيوب يعزف بينما يوسي منشغل بضيوفه، وهمس إلى نصر الله:

- سأتفقد نايري.

- سآتي معك.

- سنلفت الأنظار هكذا. ابقَ هنا، إن سألوك عني قل نسيتُ نوتة فخرجت لأحضرها. وإن لم أعد قبل أن تنهيا فقرتكما، ارحلا، سأعزف أنا البيانو وأنسف القصر بمن فيه.

* * *

انتبهت روتيم إلى أن نايري تحاول الزحف على ظهرها متهربة منها، ولكنها باغتتها بضربات إضافية بكعب رشاشها على بطنها وأضلعها ويديها وكتفيها وفخذيها.

صرخت نايري وعجزت عن التملص منها، بل وعجزت حتى عن مد يدها صوب فخذها، حيث تربط مسدسها السري.

قالت روتيم:

- لا تغريني حتى أفرغ رصاصاتي في رأسك الملعون هذا.

- أنتِ لا تفهمين...

- لا أفهم أن العرب جندوكِ؟

فكرت في أن تنكر أنها آبا، تخبرها بأن هذه الهوية ليست هويتها، ولكنها تود أن تفتك بها هكذا وهي تظن أنها يهودية، فماذا ستفعل بها لو عرفت أنها من الأغيار وتعمل لصالح العرب.

- لستُ جاسوسة.

- لماذا تقولين إذن إن اسمكِ روث وإنك رفيقة أفراهام ولست زوجته آبا؟ أتيت لقتل أبي مثلما قتلت يائير؟

- قتلته لأنه حاول الاعتداء عليَّ.

- عاهرة كاذبة!

شدت روتيم أجزاء رشاشها، واستعدت لتطلق رصاصها على نايري.

في هذه اللحظة فقط تنفست نايري الصعداء، لأنها أخيرًا رأت إلياس والعراقي يقتربان حاملين مسدسيهما بحذر من خلف روتيم.

نزل إلياس بكعب سلاحه على أُم رأس روتيم، وسرق منها رشاشها بخفة في اللحظة نفسها.

ألقى الرشاش إلى العراقي بعد أن ضغط على زر أمانه، واندفع بلهفة صوب نايري يتفقدها، ويوقف نزيف أنفها بمنديله، ثم يجمع أغراضها في حقيبتها، تاركًا أمر التخلص من روتيم إلى العراقي.

ترنحت روتيم، فدفعها العراقي صوب الحائط، وضرب رأسها ثلاث ضربات خاطفة أفقدتها وعيها تمامًا.

حمل إلياس نايري عن الأرض، فعلقت ذراعيها حول عنقه وهي تبكي ألمًا من مواضع ضرب روتيم لها، فسار إلياس بها حتى شاحنة الآلات الموسيقية.

في تلك الأثناء، كان العراقي يحمل جثة روتيم التي كسر عنقها بيديه، وألقاها في كشك أدوات الصيانة القريب، حيث يحتفظون بالمناشير والمقصات والمطارق.

كان سيكمل طريقه نحو الشاحنة، لكنه سمع ضجة قادمة من غرفة المكتب الملعونة.

* * *

قبل أن يسمع العراقي ضجة قادمة من غرفة المكتب، صعد جاسر إلى الطابق الأول حيث المكتب المقابل للحمَّام كما حفظ موقعه من الخريطة.

وجد الباب مغلقًا بالمفتاح، فك زر إسورة قميصه المعدني، أدار دبوسه في ثقب الباب كما علمه أيوب فتمكن من فتحه، ولكن قبل أن يدخل الغرفة شعر بيد غاشمة تدفعه إلى الداخل.

دخل مرتطمًا بسطح المكتب الذي يتوسط الغرفة المظلمة الخالية، فالتفت سريعًا ليجد أمامه حارسًا عملاق البنية يمسك بتلابيبه، ويوجه فوهة مسدسه صوب رأسه.

نظر جاسر إلى هيئة الحارس الضخم، تكاد تكون جثته في حجم جثة العراقي، ويبدو أنه كان في الحمَّام المقابل للمكتب، وخرج على عجلة حين استشعر حركة بالخارج، لهذا يقف أمامه على تلك الحالة التي جعلت جاسر يقول بابتسامة ساخرة:

- يا رجل، سحابك مفتوح!

نظر الحارس إلى سرواله، فاستغل جاسر ذلك أفضل استغلال، وسحب المرمدة الكريستالية الثقيلة، ورطم بها رأس الحارس في اللحظة نفسها التي دفع فيها يده حتى لا تنطلق منها رصاصة تصيب وجهه.

ترنّح الحارس، فركله جاسر أسفل حزامه، وجذب منه السلاح وصوبه تجاهه.

كان ليطلق عليه رصاصة ترديه، لكنه يعلم أن رصاصة واحدة ستلفت انتباه جميع حراس القصر، وتعرض حياة رفاقه للخطر.

زفر مستسلمًا لقدره وأفرغ ذخيرة المسدس في جيب سترته الداخلي، ووضع المسدس نفسه في الجيب الآخر.

ترك الحارس المصاب يئن ثم اتجه إلى الباب، ولكن يبدو أن الحارس لم يكن يتألم إلى هذه الدرجة، وأنه كان يتظاهر بذلك ليتخلى جاسر عن حيطته، ففي لحظة ركل الحارس جاسر فسقط على الأرض، ثم نهض فوقه وبدأ يخنقه.

شهق جاسر الذي شعر بأنه قزم بين قبضتَي الحارس، ولكنه انزعج من الرائحة اللعينة الخارجة من يديه، وحاول أن يصرف نفسه عن هذا بأن ظل ينظر صوب الباب المفتوح.

عافر وضرب يدَي الحارس كأنه يود أن يقول كلمة تنقذ حياته من موته الحتمي، فخفف الحارس قبضته عليه عسى أن ينطق بمعلومة مفيدة.

قال جاسر بصوت مبحوح:

- ألم تعلمك أمك أن تغسل يديك قبل أن تخرج من الحمّام يا نجس؟

اشتاط الحارس غضبًا، لكنه شعر بألم شديد يباغته من الخلف، فترك عنق جاسر الذي أخذ نفَسًا عميقًا يعيد إليه الحياة.

وضع الحارس يده على رأسه فوجده ينزف بغزارة، فالتفت خلفه

بصعوبة ليجد العراقي هائل الجثة، مفرود البنيان، طويل القامة كآلهة آشور، ممسكًا بمطرقة انتشلها من كشك أدوات الصيانة، وقد ضرب بها الحارس على رأسه بعد أن تسلل إلى غرفة المكتب عبر المواسير المطلة على الشرفة فور أن سمع صوت جاسر.

دفع جاسر الحارس المصاب، ونهض من أسفله قائلاً بصوت خفته الاختناق:

- كنتُ على وشك أن أنهي حياته.

نظر العراقي إلى جاسر باستهزاء، ثم هوى بمطرقته على رأس الحارس ليتأكد أنه مات.

انتشل العراقي جاسر من على الأرض كالخرقة ثم دفعه صوب الشرفة، فقال الأخير:

- انتظر، أظنهم اختطفوا نايري و...

أشار العراقي إليه بلا، ثم قام بعلامة استدارة المقود.

- معكما في الشاحنة؟

هزَّ رأسه بنعم.

- حسنًا. أنا الذي سيعزف على البيانو ليفجره. عازفة البيانو لن تأتي.

وقف العراقي في الشرفة يتدبر جملة جاسر حتى أتى نصر الله ودخل غرفة المكتب، وتفاجأ من منظر الحارس المقتول.

- ماذا تفعلان؟

- بل ماذا تفعل أنت هنا؟!

- انتهت فقرتنا. هيًا لنرحل.

- قلت لك إنني سأفجر البيانو.

- وتموت يا ابن التاسعة عشرة؟ هذا الثأر ثأري.

- كم مرة سنخبرك بأنه ثأرنا كلنا؟

- الأمر مُنتهٍ. هيًا يا عراقي، خذ جاسر واقفزا من الشرفة وأنا سوف...

لم يمهلهما العراقي، قبض على رسغيهما، وصعد فوق سور الشرفة

ليجبرهما على القفز معه.

لم ينصت لرفضهما واعتراضاتهما، فخضعا له في النهاية حين أدركا أن أمامهما خيارين لا ثالث لهما، القفز من الشرفة معه بإرادتهما، أو أن يلقيهما بنفسه فتتكسر عظامهما.

* * *

وقف أيوب يلملم الآلات.

أتى يوسي يتحدث مع أيوب الذي لم يفهم حرفًا مما قاله، لكنه فهم من ابتسامته الواسعة وحماسة نبرته أنه يمتدح صوته وعزفه فأخذ يجاريه بابتسامة هنا، وهزة رأس هنا، وضحكة هناك، حتى ربت يوسي على كتفه بابتسامة، ثم ابتعد عنه وعاد للانضمام إلى ضيوفه وزوجته، وبمجرد أن ابتعد سبه أيوب في سره.

تلكأ في جمع ولملمة الآلات كي يحرص على ألا يقترب أحد من البيانو حتى قرر أنه إن لم يتلقَّ إشارة من الرفاق، سيضغط هو على البيانو، ويخلص العالم من هؤلاء السفاحين.

في تلك اللحظة، رأى العراقي يدخل القاعة بخطوات هادئة غير لافتة للأنظار، ويقترب منه بسترة مزررة حتى عنقه، فتوقع أنه يخفي دمًا لطخ قميصه.

تظاهر العراقي بأنه يحمل الآلات مع أيوب، فهمس إليه أيوب موليًا ظهره للضيوف:

- ما العمل؟

أومأ العراقي إليه صوب المخرج، فحملا الآلات وخرجا من الصالة، متجهين إلى شاحنة الآلات الموسيقية.

بقي يوسي جالسًا وسط ضيوفه، وقد حان وقت العشاء من دون عازفة بيانو.

انشغل الخدم برص الطعام الكوشير تحت إشراف ميراف التي لا يعرف من دونها كيف كان سيتمكن من استضافة عشرات القادة برفيقاتهم لمدة يومين كاملين.

لم يزعجه في تلك الأمسية سوى شيئين، رفض ابنته الوحيدة الانضمام إليهم، مستنكرة كيف يقيم حفلاً كبيرًا وهي لم تنتهِ من الحداد على حبيبها يائير، والشيء الآخر أنه سيتناول العشاء من دون مقطوعة بيتهوفن التاسعة.

وقف أمام البيانو الأسود، ورفع غطاء مفاتيحه ليتأمل لمعتها أسفل ضوء الثريا الكريستالية.

ما مدى صعوبة عزف البيانو على أي حال؟ ليست آلة وترية معقدة مثل القانون العربي أو الهارب، وليست آلة نفخ تحتاج إلى رئة سليمة ونفس عميق.

مجرد أزرار يجاور بعضها بعضًا، تضغط على واحد منها فيصدر النغمة بمنتهى البساطة ومن دون أي مفاجآت. فمثلاً ها هو ذا يضغط على أصابع الدو والري والمي معًا على سبيل اللهو منتظرًا أن يسمع صوت أنغامها، لكنه لم يتوقع أن ما سيسمعه هو دوي انفجار التهمه هو وقادته وقصره المنهوب.

* * *

كانت نايري فاقدة للوعي للحظة من فرط الإجهاد والتوتر والألم، لكنها شعرت برجة أيقظتها منتفضة.

وجدت نفسها نائمة في مؤخرة الشاحنة، رأسها على صدر إلياس، يقابلها نصر الله وأيوب، وفي المقصورة العراقي يقود الشاحنة يجاوره جاسر.

التفتت لترى لهيب الانفجار الذين كانوا بعيدين عنه بما يكفي حتى لا يلمحوا منه سوى الدخان الواصل إلى السماء، ولكنها تخيلت ما صار.

القذائف تبتر أعناق قادة ميليشيات الصهاينة، تخترق قلوبهم، تشرذم أعضاءهم كما شرذموا عمّار.

ألسنة النيران تبتلع الحديقة وتلتهم القصر، وقد استحال بياض جدرانه إلى هباب، وخضرة حديقته إلى رماد لا يختلف كثيرًا عن

إطلالته على الحي العربي.

ابتسمت نايري وهي تراقب الحريق من مرآتها، فاستشعرت إلياس يضغط على يدها ويقول:

- أنتِ بخير؟ بمَ تشعرين؟

ابتسمت ابتسامة واسعة، كأنها انتشت بخمر النصر، وقالت:

- أشعر بالغبطة.

سمعت نصر الله يكبر ويبكي، وأيوب يربت على كتفه، بينما قال إلياس وقد اغرورقت عيناه بسعادة النصر:

- ألم أقل لكم يا رفاق، لا مفر من أن يلهو يوسي هذا بالبيانو.

انتشى إلياس بالنصر، فقبّل كف نايري بامتنان، وقال وهو يهمس إليها:

- ما كنا لنفعلها من دونك.

ظلت تحدق إلى ملامحه الجذابة، فبادلها النظرات الولهانة نفسها. لا تدري إن كان السبب هو فرحة الانتصار بعد هزيمة مفجعة، أم أن كيوبيد لا يظهر إلا في الأوقات الأقل مواءمة، مع الأشخاص الأقل توقعًا لينخز فؤادها بسهمه؟

أدركت حماقة ما تفعله، فأبعدت عينيها عنه، وسحبت كفها التي قبّلها من يده، وقالت وهي تربت على كتف نصر الله بحنان:

- من أجل عمّار.

أجابها:

- بل من أجل حيفا.

* * *

وصلوا إلى سياراتهم التي تركوها في نقطة التجمع المتفق عليها.

دخل الرجال إلى الشاحنة وغيروا ثيابهم معًا، بعد ذلك تلتهم نايري.

كانت الخطة أن يختفوا أسبوعًا في مدن مختلفة حتى تهدأ الأوضاع، ثم يلتقوا مجددًا في دار أم إلياس.

انطلق جاسر وأيوب معًا إلى نابلس، وذهب نصر الله إلى عكا، وانطلق العراقي إلى غياهب المجهول كما يفعل كل مرة من دون أن يعرف الرفاق تفصيلة واحدة عنه.

ركبت نايري مع إلياس في سيارته، وقد انطلقا بعد أن رحل الجميع، وهي تتأوه من مواضع ضربات روتيم لها، فعلق إلياس:

- لا تقلقي، ستدهنها لكِ أمي بزيت الزيتون الدافئ.

- ستأخذني إلى دار والدتك؟

- نعم.

- كنت أحسب أنك ستعيدني إلى القدس.

- ستمكثين مع أفراهام مرة أخرى؟

لم يرد أن تخرج الجملة بهذه الحدة الفاضحة، فتدارك موقفه وقال:

- إن كانت هذه رغبتك، فسأنفذها من دون شك.

- ليست رغبتي، لكن اختفائي المفاجئ سيثير ريبته، وسأكون المتهمة الوحيدة في هذه العملية.

- لا أحد يعرف هويتك.

- أفراهام يعرفها. وإن كنتُ سأبقى في القدس، فيجب أن أُؤمِّن نفسي جيدًا.

انفرجت أسارير وجه إلياس فسألها:

- هل تنتوين العودة إلى برلين؟

أجابته بابتسامة رقيقة ذات مغزى:

- كلَّا. ليس بعد أن رأيتُ جمال القدس.

راقبته يبتسم برضا، فقالت بدلال:

- لي طلب.

- لكِ ما تأمرين يا بطلتنا.

- أتمانع أن نمر سريعًا على الميناء؟

* * *

في الطريق من نقطة التجمع وإلى الميناء، كانت نايري تفكر في أمر

واحد، لماذا غادر أفراهام القصر فجأة من دون أن يخبرها.

بدأت تربط تفاصيل اليوم، أفراهام استغرب وجود إيلي، طلب منها أن تفتح الحقيبة، انسحب من الحفل في تمام السابعة بفظاظة ولم يعد.

إنه يعرف!

وصلا إلى الميناء، أسرعت في النزول من السيارة من دون أن تبالي بغلق بابها.

ركضت نحو رصيف الركاب، فهرول إلياس من خلفها.

تنفست الصعداء حين رأت إيلي جالسًا على المقعد الخشبي المقابل للبحر.

كان وحيدًا، لا حقائب ولا أوراق ولا أقلام ولا رفيق. فقط هو، ظهره مسنود إلى المقعد ورأسه منحنٍ.

اقتربت من إيلي وجلست بجواره وهي تقول:

- يا إلهي! ظننتُ أن أفراهام وصل إليك قبلي.

اقتربت منه لتعانقه فسقط رأسه على صدرها.

أدركت أنه أصيب بطلقة في قلبه، وأن البقعة الداكنة التي تكونت أسفله ليست بقعة ماء ولا بنزين ولا أي سائل طمس ظلام الليل ملامحه، إنها دماؤه التي تتقطر من فؤاده الجريح.

تركت رأسه على صدرها وأحاطته بذراعيها، ثم انهمرت دموعها في صمت وهي تهدهده يمينًا ويسارًا، كأنها تستعد لوضعه في مهده لينام نومًا هانئًا حُرم منه لسنوات.

اقترب إلياس منها يراقب ما يدور بأسى، وضع يده على كتفها من دون أن يحجر على رثائها.

قبّلت رأس إيلي خمس مرات، ثم أسندت ذقنها إليه من دون أن تتوقف عن البكاء، حتى قال إلياس:

- سأسأل العاملين عمن فعلها و...

- إن سألتهم سيقولون عربي يرتدي الحطة والعقال قتله وفرّ. أنا

وأنت نعرف مَن قتله.

مسدت رأس إيلي، ثم قالت لإلياس وهي تمسح دموعها:

- أريد أن أدفنه.

- على عيني وراسي.

- لكن هناك شيئًا يجب أن أفعله أولاً.

١٤
بندورة بيت لحم

يذكر إلياس أن إدوارد أخبره يومًا بأن هناك حسنًا سحريًا في شجن المرأة.

ربما الحمرة التي يتورد بها خداها وأنفها مع لمعة الدموع في عينيها، وتشبثها بذراع رجلها، والاتكاء على ظهره، حتى يخفف عنها حزنها، هو ما يولد هذا الشعور عند الرجل.

لا يدري إن كانت هذه فكرة عالمية يحبها الرجال، لأن المرأة المجروحة تترك لهم مجالًا أكبر لإظهار بطولتهم، أم لأن نساء وطنهم يذرفن الدموع منذ عقود على رجالهن الشهداء وأبنائهن المعتقلين وديارهن المنهوبة، حتى صارت لمعة الحزن في أعينهن وبحة الشجن في أصواتهن من سمات حسن الفلسطينيات الأساسية؟

ربما لهذا لا يشعر إلياس بأن نايري غريبة عنه، على الرغم من أنها دخيلة على وطنه وعاداته.

إنها «خواجاية» كما يقول الكتاب، حتى وإن جاهدت وحدثتهم باللهجة العربية، فما زالت لديها لكنة أوروبية، وجرأتها بعيدة عن شرق أوسطية ثقافته، وتمردها قد ينفر أي عربي، وفلسفتها بعيدة كل البعد عما تربى عليه إلياس في كنيسته، ومع ذلك كان يألفها كأنهما ترعرعا تحت سقف واحد.

ربما لأن كليهما يحمل على جبينه ختم النجاة من الإبادة.

ربما لأن كليهما تيتم، وعرف الاضطهاد والنبذ، وحمل على كاهله مهمة الانتقام لأسلافه.

إنها مثله، شريدة، قلبها نسي الأمان ولم يعد يألف إلا الكفاح بعد أن فقدت كل عزيز.

وتقديرًا لما سبق، لم يجادل إلياس طلب نايري الغريب.

وضع جثة صديق طفولتها في صندوق السيارة الفسيح، وقاد إلى دار أبيه المقدسي في حارة النصارى.

بقي في السيارة كما أمرته وتركها تدخل بمفردها لتأخذ بعض متعلقاتها مستغلة غياب أفراهام.

أشعل سيجارة وهو ينظر من نافذة الردهة التي انسدلت ستائرها فعسرت عليه الرؤية بوضوح.

رأى ظلاً يتحرك سريعًا، سمع صوت نايري يعلو ثم تصرخ ليتبع صراخها طلقتان متتابعتان.

ألقى إلياس سيجارته، واندفع خارج السيارة وهو يعمّر مسدسه في طريقه إلى باب الدار.

صوت رصاصة ثالثة.

ركل الباب بعنف فكسره، قطع الصالة فوجد مزهريات محطمة وآثار رصاص في الحائط وأفراهام ساقطًا على الأرض بجوار طاولة الخمور، بكتفه ثقب ينزف، وبصدره ثقب آخر، وبركبته اليسرى رصاصة ثالثة.

كان يلهث ويصرخ وهو غارق في دمه وعيناه تزوغان والعرق يسيل من بدنه.

انفرجت أسارير وجه إلياس، قد تكون المرة الأولى التي يبتهج فيها قلبه منذ أن مات أبوه.

كان يريد أن يركله، يلكمه، يبصق في وجهه، يفعل أي شيء يشعره بأنه كان جزءًا من هذا الثأر الذي اقتنصته نايري منه، لكنه لن ينحط إلى هذا المستوى اللاإنساني، فالضرب في الميت حرام.

تركه يصارع الموت، وأكمل طريقه بحثًا عن نايري.

لم تكن في الصالة، ولا في الحديقة، ولا في أي مكان بالطابق الأول.

صعد السلالم، يلمس كل ما تطاله أصابعه، ثم يضع يده على قلبه كأنه يحاول أن يضم داره بأثاثها وسجادها وستائرها وأبوابها وكُتبها وأحواض زرع حديقتها إلى فؤاده، ثم يشرد بها وهي بين أضلعه.

وصل إلى غرفة المكتبة، كانت نايري تفرغها في حقيبة سفرها بشكل هستيري، تدفع الكتب عن الأرفف بسرعة وهي تلهث من دون حتى أن تنتبه لوجود إلياس إلا حين قال:

- ماذا تفعلين؟

- أعيد إليك مكتبة أبيك.

جمعا ما استطاعا حتى امتلأت سيارته عن آم عينها من الكتب، ومع ذلك، لم تفرغ المكتبة المقدسية.

في طريقهما لتفريغ آخر دفعة من الكتب، مرت نايري بالقرب من جثة أفراهام، شحب لونه وازرقت شفتاه وسكن تمامًا.

بصقت عليه وركلت أضلعه، ثم أخذت زجاجة فودكا من على الطاولة وخرجت.

ركبت السيارة بجانب إلياس وقالت:

- الآن يمكننا أن ندفن إيلي.

دفناه في الغابة، أسفل شجرة الطقسوس.

حاول أن يطلب منها أن تستريح بالسيارة فيتم هو الدفن بمفرده، لكنها أصرت أن تشاركه.

كانت مهمة شاقة، لم تدفن نايري أي شخص من قبل، ولم تظن أن حفر قبر لهو أمر بهذه الصعوبة.

لا تدري كم ساعة مرت وهي تحفر مع إلياس، ولكنها في النهاية حملت جثة إيلي. قبّلت جبينه مرة أخيرة قبل أن يضعاه في موضعه النهائي ثم يهيلا عليه التراب.

انتهيا، فانتشلت نايري زجاجة الفودكا من مقعدها، ثم جلست على طرف صندوق السيارة المفتوح وهي في حالة يرثى لها.

الطين يملأ أظافرها وركبتيها وكفيها، فتلطخ وجهها وهي تمسح عرقها بظهر كفها.

سكبت الخمر في جوفها بسرعة باهرة، بينما جلس إلياس بجوارها يتابعها حتى أنزلت الزجاجة عن فمها وقالت:

- كان لإيلي الكثير من الأصدقاء قبل أن يفر من النازيين. كانوا ليحضروا جنازته، ويؤبنوه ويرثوه ويبكوه. أمه كانت تحبه أكثر من أخته، وكذلك أبوه. آه! آبا كانت تغار من إيلي كثيرًا لأنه الابن المثقف المتدين البار وهي الصهيونية الحقيرة. ولكن انظر كيف دُفن. في قبر من دون شاهد أسفل شجرة اتخذها الإغريق رمزًا إلى إلهة الموت والشعوذة.

تجرعت المزيد بأسى، بينما قال إلياس:

- لم أكن أعرف أنك مقربة منه إلى هذه الدرجة يا نايري.

- كان بمنزلة أخ لي. لم أغرم به قطُّ، على الرغم من أنني أعرف مدى ولعه بي. إنها سخرية القدر. عائلتي وعائلة لينمان كانتا مقربتين إلى درجة أنك لا تفرق اليهودي الألماني من المسيحي الأرمني بيننا. عمي أزاد كان شريكًا لوالد إيلي في جريدته المعارضة. كبرتُ مع آبا واعتبرتها شقيقتي مثلها مثل كيغانوش. علمتني العبرية وعلمتها الأرمنية. تشاركنا الأحلام والطموحات حتى تزوجت هي أفراهام ضد رغبة والديها وتركا برلين. وبقي إيلي وحيدًا لا أمل له غير أن أقع في غرامه يومًا ما. ما كان يجب أن يُقتل في عز شبابه. ما كان يجب أن يموت قبل أن يقابل امرأة تحبه.

تركت الزجاجة تسقط من بين يديها ودفست وجهها في كفيها، وأخذت تبكي وترتعش.

أحاطها إلياس بذراعيه وعانقها ليهدئ من روعها، ثم ربت على رأسها وشعرها، وهو يقول لها:

- أنا آسف يا عزيزتي.

هدأ بكاؤها، ثم نظرت إليه وهي تقول:

- لماذا تعتذر؟

- لأنك لا تستحقين أن تُقهري وأن تقسو عليكِ الحياة إلى هذا الحد. يحزنني أن أرى مرارة الظلم تخنق صوت امرأة جسور مثلك.

هدأ بكاؤها، وأخذت تحدق إليه كثيرًا، إلى شعره الكثيف، وعينيه

العسليتين، وأهدابه الداكنة، وحاجبيه الكثين، ووجهه الحليق، وأنفه الدقيق، وطابع الحسن الذي يختم ذقنه المدبب.

- أتعرف أنك تشبه كاري جرانت؟

استعجب توقيت الجملة، وقابل إطراءها بابتسامة تليق بكاميرات هوليوود.

كان يعلم أن تشبه امرأة رجلاً بممثل وسيم، هي طريقة غير مباشرة لمغازلته حفاظًا على حيائها، لكن نظرية حياء نايري تلك تهدمت تمامًا حين فاجأته بقُبلة لا محل لها من الإعراب.

في ظرف آخر، كان ليشاركها تلك القبلة الناعمة، لكنه كان نبيلاً بما يكفي حتى يدرك أنها مخمورة لا تحسب تصرفاتها، فترفَّع عن أن يستغل انهيارها ومشاعرها المتضاربة، وتملص من شفتيها بكياسة.

استوعبت فعلتها، واستفاقت من حماقتها، فتراجعت تضع يدها على فمها وهي تقول:

- آسفة.

أنزل يدها عن فمها، وقال بالابتسامة نفسها:

- لا بأس، إنها الخمر.

- لا أظن ذلك، أظن أنني حقًّا معجبة بك يا مقدسي.

* * *

هناك رصاصة اخترقت عنق السائق النوبي الذي كان يقود سيارتها في القاهرة، وهناك رصاصة أخرى اخترقت كتفها.

ثم هناك جثة صديقة عمرها، ملقاة بجوارها على الأسفلت برصاصة في منتصف رأسها. كانت تحدق إليها بغضب. ليس غضبًا نابعًا من حقيقة أن هناك رصاصة بمنتصف رأسها، بل نابع من أنها هي بالذات التي أطلقت عليها تلك الرصاصة القاتلة.

تكلمت الميتة، وقالت لها بفحيح آتٍ من الجحيم:

- العبي معي بالدمى يا صديقتي.

لم تعلم نايري أنها تصرخ بهذه القوة إلا حين استيقظت على يد

حنون وُضِعت على كتفها ورأسها وتقول لها:
- باسم الصليب عليكِ!
صاحبة الجملة كانت سيدة في بداية الخمسينيات من عمرها، بدنها ممتلئ، وبشرتها خمرية رائقة، وعيناها عسليتان كحيلتان. ترتدي ثوبًا فلسطينيًّا مطرزًا تطريزًا أحمر وأزرق جميلاً، وعلى رأسها شال ناعم ناصع البياض تهرب من أسفله بضع خصلات أقمرت بشيب الدهر.
كانت نايري ستلتفت حولها لتستكشف معالم المكان الذي تفوح منه رائحة البرتقال والزيتون والزعتر، لكن السيدة البدينة عانقتها، وقالت:
- لا تخافي يا حبيبتي، إنه كابوس. خالتك تمّام بجوارك الآن.
ناولتها كوبًا من الماء من على طاولة السرير، شربته كله دفعة واحدة، ثم أعطتها السيدة طبقًا به شرائح بصل نظرت إليه باستعجاب، فوضحت الخالة تمّام:
- عندنا المسافر من مدينة إلى أخرى يجب أن يشرب من مائها ويأكل من بصلها، حتى لا يمرض باختلاف الماء والجو عليه.
استسلمت نايري إلى تلك العادة العجيبة، فأكلت شريحة رقيقة من البصل، والخالة تمّام تراقبها بابتسامة واسعة.
فور أن انتهت من المضغ، قبّلت الخالة رأسها ثم كفيها، فزاد استعجاب نايري وسألتها:
- ماذا يحدث؟
- أُقبِّل اليدين اللتين اقتصتا لأولادي وزوجي وإخوته. إلياس أخبرني يا عيني بأنك قتلتِ أفراهام الملعون.
- أنتِ أُم إلياس؟
- نعم يا عيني.
تأملت الغرفة من حولها، كانت فسيحة تتزين بسجاجيد غُزلت على النول بخيوط مبهجة، وعوارض سقفها خشبية عريضة، وبأقصى

زاويتها خزانة ملابس، يجاورها مكتب صغير، فوقه كتب للطهي والحياكة.

نهضت تمّام فسحبت الغطاء، واكتشفت أن نايري كانت تنام عارية، فشهقت وقالت:

- يا بيّ! أعلم أنك خواجاية يا عيني، لكن لا يجوز أن تنامي كما ولدتك أمك. ماذا لو هجم علينا اليهود فجأة؟ أتخرجين عارية وتفضحيننا؟

عانقت نايري الغطاء المطرز، وقالت:

- آسفة، لم أكن في وعيي ولم تكن معي ملابس و...

- إلياس أخبرني بأنك فقدت وعيك ليلة أمس من فرط الإعياء. لا تقلقي، سأعيرك بعضًا من ثيابي. كنت في عودك وأنا شابة، ولكن إنجاب ستة صبيان لهو قادر على إفساد عود عشتروت نفسها.

- خالة تمّام، في أي مدينة نحن؟

- أنتِ في أرض ميلاد يسوع يا عيني. أهلاً بكِ في بيت لحم.

***

الخالة تمّام لم تكن تبالغ، بالفعل كان عودها كعود نايري في صباها، لهذا ارتدت ثوبها بسهولة بعد أن تحممت وشربت ما يكفي من الماء لتتخلص من آثار الثمالة.

كانت تسرح شعرها المبتل وهي تحاول أن تتذكر ما حدث بالليلة الماضية.

تذكر أنها شربت الكثير من الخمر حتى ترنحت. وإلياس حملها فنامت على صدره.

تذكر أنها تقيأت، وأنه صحبها إلى الحمّام ورفع لها شعرها وربت على ظهرها، ثم غسل لها وجهها، وقادها إلى سرير هذه الغرفة، ثم خرج فخلعت ثيابها أسفل الغطاء، لأن حرارتها ارتفعت من الكحول، ثم غطت في النوم.

في أثناء محاولتها البائسة لاسترجاع تفاصيل الأمس، سمعت

ضحكات طفولية قادمة من الخارج، فتركت فرشاة شعرها وأطلت من النافذة.

وجدت إلياس في الحديقة يلعب مع طفلة لا يزيد عمرها على خمس سنوات، ومعها طفل أكبر قد يكون في الثامنة.

الطفلان يركضان وإلياس معصوب العينين بكوفية فلسطينية، يداه ممتدتان أمامه يبحث عنهما وهما يغنيان:

- بالصيف نسبح في الماء. فلسطين من الماء إلى الماء. في الشتاء تمطر السماء، فلسطين من الماء إلى الماء. بالربيع نروي الزهر بالماء، فلسطين من الماء إلى الماء. في الخريف نشرب الماء، فلسطين من الماء إلى الماء.

ظل يتبع صوتيهما حتى أمسك بالصغيرة. حملها ودغدغ بطنها بفمه، فضحكت ضحكة ملائكية رقَّ لها قلب نايري.

أنزل إلياس الكوفية عن عينيه ثم قفز الفتى على ظهره، فهوى على الأرض يحمل الطفلين. هذا يرفعه إلى الهواء وهذه يدغدغها، حتى انتبه لنايري وهي تراقبهم.

ابتسم ولوح إليها وهو يقول للطفلين:

- سلما يا أولاد على عمتكما نايري.

التفت الطفلان إليها، فلوحت إليهما، وظلت تنظر إلى إلياس المبتسم.

كان سيقول شيئًا، ولكن قاطعه صوت أمه وهي تنادي:

- هيَّا يا أولاد، الفطور جاهز.

* * *

جلس مَن تبقى من آل المقدسي إلى المائدة المستديرة.

إلياس على يمين الخالة تمّام، وعلى يسارها غيدا أرملة ابنها، يجاورها صغيراها، ريا وميلاد، وفي المقعد المقابل للخالة تمَّام، جلست نايري.

مدحت رائحة الطعام، فلعبت الخالة دور حافظة تراث المطبخ الفلسطيني، تشرح لها أن هذه قلاية بندورة، تُطهى بزيت الزيتون

والثوم المهروس والفلفل الحار والطماطم حتى تستوي على نار هادئة، ثم تغمس بخبز الطابون.

هذا حمص، تُعرف المرأة الشاطرة من قوام حمصها. وهذه شختورة بجبن تخبزها فجرًا، وهذا غموس الزعتر بزيت الزيتون البكر الذي عصرته بنفسها على طريقة الأجداد.

أطالت في الحديث، تشرح مقادير وطريقة تحضير كل وصفة، حتى قالت غيدا:

- يا خالة، دعي الضيفة تأكل، سيبرد الطعام قبل أن تتذوقه.
- يا ويحي! المعذرة يا عيني، شيئان لا أملك أن أمنع نفسي عن الحديث عنهما بأدق التفاصيل، طبخي وشهدائي.

ابتسمت نايري وهي تقول:

- لا بأس. أحببت حديثك عن الطهو.
- ماذا عنك؟ أتجيدين الطبخ أم أنك مثل الأوروبيات الكسولات اللاتي يعتمدن على الخدم؟

نظر إلياس إلى غيدا مستنجدًا، فهو يعرف مآل أسئلة أمه هذه، فقالت غيدا وهي تطعم ريا:

- وما دخلنا بطهيها يا خالة؟ هل أحضرنا الضيفة لتخدمنا؟
- لا تقولي ضيفة. بعد أن أعادت إلينا كتب خليل وقتلت أفراهام صارت نيِّرة من أهل الدار.
- اسمها نايري يا خالة.
- يا عيب! أعتذر يا عيني.

طمأنتها نايري بأنها أحبت اسم نيِّرة، ثم نظرت إلى صورة ضخمة تتوسط الحائط لشاب وسيم لا يزيد عمره على أواخر العشرينيات، له حاجبان كثان متصلان وشارب رفيع، يرتدي الزي الفلسطيني العربي التقليدي والسيف المتدلي من حزامه.

من ملامح صاحب الصورة التي تتشابه مع إلياس والخالة تمام، لم تحاول أن تسأل عن هويته، فلا شك أنه أحد إخوته الشهداء.

من دون أن تتكلم، انتبهت الخالة إلى أنها تنظر إلى الصورة، فقالت بابتسامة واسعة:

- أتدرين أن خالك هو الذي التقط هذه الصورة لابني ميلاد؟

- حقًّا؟

- نعم. صور زفافي من خالك خليل، وصور أبنائي كلهم، وصور زفاف إدوارد من غيدا، وصور أيضًا جنازة ميلاد. كلها بعدسة كيراز نيح الله روحه. أتعرفين كيف استشهد ميلاد؟

قال إلياس متجنبًا أن يرفع عينيه إلى نايري:

- تعرف يا يُما. دعيها تأكل.

- لكنها لا تعرف حكاية جنازته. صحيح؟

ابتلع الحزن لسانَي غيدا وإلياس، وتوقفا عن الطعام للحظة، كلٌّ منهما غارق في ذكريات هذا اليوم.

كسرت نايري الصمت، وهي تقول لأم الشهيد:

- احكيها لي يا خالة.

- حين ارتقى زوجي واعتقل إلياس، ضربت الدماء في نافوخ ميلاد. أخذ بارودة أبي وانطلق إلى الدار التي نهبها الكلب. صعد إلى شجرة البرتقال ودخل غرفة نوم أورباخ من النافذة. وجده نائمًا في سريره في الظلام بجوار زوجته فأطلق عليه الرصاص. طبعًا ابن أبيه لم يطلق الرصاص على زوجته، نحن لا نؤذي الحريم، يا عيني. فكانت المفاجأة أن اللعينة بنت الشيطان سحبت مسدسًا لا أعرف أين تدسه وقتلت ميلاد.

همست غيدا وهي تصب الحليب لميلاد الصغير وتمسد شعر ريما:

- طوبى لمن اختاره الرب ليسكن في جواره إلى الأبد.

كرر إلياس والخالة تمام الجملة نفسها، ثم قالت نايري:

- كنت أظن أن إدوارد هو الذي قتل أورباخ في الناصرة.

- صحيح يا عيني. ميلاد لم يقتل أورباخ، قتل الرجل الذي ينام في سرير أورباخ بجوار زوجته. ابنة الزانية كانت تخون زوجها.

ولكِ أن تتخيلي الفضيحة. الكبير والصغير في القدس عرف أن زوجة أورباخ عاهرة، فود أن ينتقم منها في ميلاد. رفض أن يعطينا جثمانه. تدخل مختار المدينة، بل تدخل أب الكنيسة ومفتي البلد وحتى حاخام المعبد ليعيد إليَّ جثة ابني وهو لا يعرف سوى لا ولا ولا. ماذا تريد من جثته يا ملعون؟ أستحنطها كالفراعنة؟ لا يريد إلا أن يقهرنا ابن الصهيونية. في النهاية، وافق شريطة أن نمضي له على ورقة مفادها أننا لم نهجَّر من ديارنا بل بِعناها بإرادتنا.

- وافقتِ؟

- يقطعني قطعة قطعة، ويطعمني أنا وأبنائي كلهم للسمك، ولا يقول الناس إن الخالة تمّام باعت دارها بإرادتها. رفضت فطالت المفاوضات. نحن نقول إن الابن البكري منذور للرب، ولكن قلبي يتمزق عليه. أفكر، هل تحللت جثة ميلاد؟ أين يبقيها هذا الكلب؟ لم يبقَ لي إلا الصلاة يا بنتي. لجأتُ إلى العذراء، صليتُ لها في كنيسة الميلاد. حتى أتت لي في المنام، تسير بنورها تحمل يسوع على ذراعيها وتمشي حافية على بلاط القدس. استبشرت. استيقظت يومها لأعرف من أخي أن أورباخ وافق على تسليمنا جثمان ميلاد شريطة ألا يستلمه سوى امرأة من العائلة، لو رأى رجلاً في الجنازة سيقتله ويلقيه هو وميلاد للكلاب.

لمعت عينا غيدا بالدموع، بينما سبَّ إلياس أورباخ همسًا وهو يشرب الماء مبتلعًا مرارة الذكرى.

ابتسمت الخالة تمّام، وقالت بصوت يملأه الشجن:

- أتدرين ماذا فعلت خالتك تمّام يا عيني؟ وضعت على رأسي الشطوة وجوز المطاويح، وارتديتُ ثوبي الغباني الذي تزوجت به أبو ميلاد، ووضعت على صدري صليبي من الصدف التلحمي. لا أكذب عليك، الثوب كان قد ضاق عليَّ كثيرًا، ولكن الغزالة الشاطرة بتغزل بذنبة المغزل. وسعته وعدلته، ثم جمعت زوجات إخواني وبناتهن وجاراتي وغيدا وصاحباتها وشقيقتها وخرجنا

بأثواب العرس. سرنا ساعتين على الأقدام من بيت لحم إلى داري. نزغرد ونغني وفي الطريق تلقانا النساء، الصبايا والعجائز منهن. لا أعرفهن ولا يعرفنني، ولكن بمجرد أن يعرفن سبب الزفة ينزلن من شرفاتهن وينضممن إلينا فزاد حشد النساء. زغاريدنا وصلت إلى السماء فأطربت شهداءنا حتى وصلنا إلى الدار. وجدت ميلاد يا عيني مبتسمًا وملامحه منبسطة، كأن الملائكة تؤانسه. لففته بغطاء طرزته له خصيصًا. قريباتي كن سيبكين، فصرخت فيهن. ستشمتن ابن الصهيونية فينا، يا بنات زغردن، وانطلقن بالمهاهاة حتى نزف ابني العريس إلى السماء. آويها لزينة الشباب وزينة الحارة. آويها. زغردنا زغاريد لم تشهد القدس مثيلاً لها. ألقينا ماء الورد وبتلات الزهور ونحن نغني «يا حبذا ريح الولد، ريح الخزامى في البلد، أهكذا كل ولد، أم لم يلد قبلي ولد». وأورباخ يضرب كفًّا بكف، لا يفهم كيف حولنا الميتم إلى عرس.

بينما احتقنت الدموع في عينَي إلياس، وفر الدمع من مقلتَي غيداء، بقيت الخالة تمّام مبتسمة، لم يجرؤ الحزن على الاقتراب من ملامحها الأبية.

لم تدرِ نايري كيف تُعلق، ظلت تنظر إلى يدَي الخالة تمّام وهي تشق الخبز وتأكل من قلاية البندورة بأريحية، كأنها كانت تحكي لها حقًّا عن ليلة عرس ابنها البكري وليس جنازته.

قلدتها نايري، تماسكت وتعاملت بالأريحية نفسها وهي تمزق الخبز، وذاقت هذه الوصفة.

عجزت عن إخفاء اندهاشها من خليط البندورة الطازجة مع لذوعة الثوم وحرارة الفلفل ونعومة زيت الزيتون.

قالت وهي تلعق إصبعها:

- إنها حقًّا لذيذة.

- لا مثيل لقلاية بندورة خالتك تمّام في فلسطين كلها. سأعلمك وصفتها حتى تطهيها لزوجك، أم أنك لم تتزوجي، مثل إلياس.

ضحكت غيدا من سذاجة طريقة استجواب تمّام ومحاولتها الفاشلة للعب دور الخاطبة لابنها الوحيد، فغلبت دموعها.

انحرج إلياس فقال لأمه:

- بحقك يا يُمّا، كفى!

- ماذا! أَحُرِّم عليَّ أن أتعرف على الآنسة الأرمنلية؟ هل تزعجك أسئلتي يا بنيتي؟

- لا يا خالة. في الواقع، لقد تزوجت.

ترك إلياس الخبز، وقال لنايري باهتمام فشل في أن يخفيه:

- لم أعرف أنكِ متزوجة.

- لم أعد كذلك. أنا أرملة منذ تسع سنوات.

قالت الخالة:

- يا نور عيني. كيف ترملت شابة مثلك؟

- أول مَن وشت بهم آبا للنازيين كان زوجي ماتيوس يوسفيان. أعدموه هو وعشرين فردًا آخر من منظمة هايك بطلقة في الرأس من المسافة صفر، من دون استجواب، من دون محاكمة، من دون اعتقال. مجرد إعدام في زقاق مظلم كأن كابوس اغتيال مفكري الأرمن في القسطنطينية يعيد نفسه. لهذا طاردتُ آبا من برلين إلى أمريكا اللاتينية حتى قتلتها أخيرًا في القاهرة.

- خيرًا فعلتِ أنك لم تتركي تلك الشيطانة الخائنة حية. ألديك أولاد؟

- توأمان، كانا في الثانية من عمرهما حين استكثر ضباط الإس إس فيهما الرصاص فألقوهما إلى كلبهم أمام عينَي.

خيم صمت سخيف ثقيل على الغرفة، وطفت على المائدة نظرات الشفقة التي مزقت كبرياء نايري.

شمرت كم ثوبها ومدت يدها تغمس خبز الطابون في الحمص، ثم قالت بنبرة أضافت إليها مرحًا مزيفًا:

- هذا أطيب حمص أكلته في حياتي يا خالة تمّام.

ربتت تمَّام على كفها، وقالت بحنان أمومي حُرمت منه نايري:

- صحتين على قلبك يا عين الخالة تمَّام.

١٥
موز أريحا

جلست نايري تدخن في حديقة الدار، تتكئ على جذع شجرة تفاح لم تثمر بعد، يخلفها سياج تنمو فيه زهور الداليا السوداء.

كانت غارقة في خواطرها، تفكر فيما مضى وتخطط لما سيكون، حتى انتشلها من تفكيرها نباح كلب جعلها تنتفض من مكانها مرتعبة.

أفنت التسع سنوات الأخيرة من حياتها تشيد كبرياءها، ولكن ما زال نباح كلب واحد قادرًا على تفتيت جبروتها وإيقاظ تفاصيل أبشع ليلة عاشتها فيركلها إلى نقطة الصفر. نقطة وقوفها وزوجها في زقاق مظلم، وعصي جنود الإس إس وشباب هتلر تنزل على بدنيهما بضراوة، وأحد الضباط يختطف رضيعيهما من عربتهما ويلقيهما إلى كلبه الأسود.

هوت في بؤرة ألمها من دون أن تنتبه إلى أن سيجارتها التهمت نفسها حتى لسعت أصابعها، فأسقطتها على ثوب أعارته لها أم إلياس، وتركت أثر حريق في منتصف خيوطه الحمراء.

فقدت سكينتها، وأخذت تسب نفسها والكلب، وكل حدث في حياتها أدى إلى جلوسها في هذه اللحظة أسفل تلك الشجرة.

بقيت غاضبة حتى انتبهت لأزيز باب الدار الخلفي المطل على الحديقة، فرأت إلياس ينزل عن العتبة ويسير نحوها، حاملاً صينية عليها طبق صغير وزجاجة عطر وكوبان من الشاي، وهو يسألها بابتسامة محبة:

- أيمكن أن أنضم إليكِ؟
- بالتأكيد.

جلس بجوارها، وناولها الصينية قائلاً:

- أحضرت إليك بعض الأغراض التي ستذهب عنك أوجاع الأمس كلياً. هذا نعناع مغلي للغثيان. وهذا عود قرنفل امضغيه للتخلص من الدوار. وهذا ماء لبان دكر اشربيه و...

قطعت محاضرة العلاجات الشعبية هذه بأن سألته من دون مقدمات:

- هل انزعجت لأنني لم أخبرك بأنني أرملة؟

أخذه سؤالها على حين غِرة، فوضع الصينية جانبًا، وناولها كوب النعناع المغلي، ثم قال:

- تفاجأت فحسب لأنك لم تذكري الأمر آنفًا.

- إنها المرة الأولى التي أتحدث فيها عن فقداني أسرتي. لا أدري لماذا رويتُ لكم الأمر بتلك الفظاظة، وأفسدت عليكم فطوركم و...

- بحقك يا نايري! الحديث عن الموت والاستشهاد في فلسطين مثله مثل الحديث عن الطقس. إن لم تألفي سيرة الموت هنا، ستفقدين عقلك وإيمانك بالرب.

- ما زلت تؤمن بالرب؟

- إن لم أومن بأن هناك خالقًا يراني ويعرف آلامي، وسيحقق لي العدالة في النهاية، فما فائدة كل ما أفعله؟

ارتشفت النعناع الساخن متدبرة فلسفته، ثم قالت وهي تغطي بيدها لسعة الثوب:

- كيف تتخطى شعورك بالذنب؟

- تجاه ماذا؟

- تجاه أنك نجوت. لم يبقَ من عائلتي كلها سواي.

- تسأليني عن أي نجاة فيهما، فلقد نجوت من إبادة رجال عائلتي مرتين.

- أيتهما كانت أهون؟

- حين هاجم أورباخ وأفراهام الناصرة. لو لم أكن أستلم السلاح من رفح مع الرفاق لكنتُ مدفونًا أسفل سفح الجبل مثلهم الآن.

- كان هذا أهون لأنهم لم يُقتلوا أمامك؟

- بل أهون لأنني لم أكن سببًا في موتهم. أحمل ذنب مقتل أبي على عاتقي منذ أن كنت في الرابعة عشرة من عمري. لقد أخذني معه لأقف عند سور الدار أراقب الطريق وأناديه نداء الفزعة إذا رأيت أحدًا. ولكني وقتها لمحت فتاة تجلس على فرع شجرة البرتقال وتكتب في دفتر جلدي. بدت كأنها بطلة إحدى روايات جين أوستن. بسبب اختبائها بين فروع الشجرة، لم ينتبه لها أبي ولكنها رأته، وخافت منه. لهذا بقيت ساكنة فوق الشجرة حتى لا تلفت نظرنا، ولكنها فشلت في ذلك، فقد لفتت نظري بما يكفي حتى أغرق في حسنها من دون أن أنتبه إلى أن أورباخ وابنه وصلا إلى الدار من البوابة الأخرى فقتلا أبي.

شعرت باختناق صوته ورعشة نبرته واحمرار وجهه، وتظاهره بالانشغال بإشعال سيجارة حتى يأخذ نفسًا عميقًا يبلع به دموع الذنب التي يتمنى ألا يذرفها أمامها.

زفر حرقته مع دخانه، ثم قال جملاً جاهد حتى تخرج ثابتة هادئة:

- ردًّا على سؤالك، فإن الليالي الأولى كانت الأصعب. كنت وحيدًا مكلومًا أمضي الوقت في إعادة المشهد بحذافيره، ومخيلتي تعظم تفاصيل الفاجعة فتجعلها ضارية تنهش في وجداني، وتدفعني إلى التساؤل، ماذا كنت لأفعل حتى أفديهم؟ لا بد أنني أخطأت وإلا ما كنت نجوت أنا وماتوا هم؟ قضيت أعوامي في المعتقل مفوتًا جنازة أبي وجنازة ميلاد وأنا أفكر هل ما أصابني هو عقاب إلهي لخطيئة ارتكبتها من دون أن أنتبه؟ تلت ذلك مرحلة ماذا الآن؟ أمن المفترض أن تستمر حياتي؟ كيف والذنب يلاحقني وأنا آكل وأشرب من دونهم، أضحك على طرفة، تطربني أغنية. أو نسيت أن أفكر فيهم الليلة، وفكرت في يومي وفيما سأفعله غدًا.

صمت وقد أنهى سيجارته، فسألته نايري:

- ثم ماذا؟

- ثم يخفت الألم تدريجيًا. أنام ذات ليلة من دون أن أنتحب وأستيقظ ذات صباح من دون أن أبكيهم. أتذكرهم ذات ظهيرة فأجد نفسي أبتسم لطيب ذكراهم من دون أن أنهار باكيًا. أتذكر سعادتهم وحياتهم، لا مأساتهم وموتهم.

التفت إليها فتقابلت أعينهما للمرة الأولى منذ أن ابتدأت هذا الحديث التراجيدي، فقال إلياس:

- وبعد ذلك تجد نفسك تقع في الحب فجأة، تمامًا كما وقعت في الحزن فجأة. القدر يقودك إلى الارتطام بشخص ظهر من حيث لا تدري فأنار غياهب عذابك ولوّن سوداوية آلامك. فقط في هذه اللحظة تدرك أن للرب بصيرة لن يصل إليها عقلك المحدود مهما عشت وتفلسفت. تفهم أن الرب نجاك حتى تلقى هذا الحبيب الذي قد يكون حظك من الدنيا كلها.

أطال النظر إليها، فوجدت نفسها تقع مرة أخرى أسيرة عينيه الناعستين، وتلك المرة لن تقدر على التحجج بأنها كانت مخمورة لا تدري ما تصنع.

تملصت من نظرات افتتانها وتأملت تعريشة الكروم فوق سطح الدار، لكن ذلك لم يمنعه من أن يمد كفه بحنان ويمسك يدها الدافئة من موضع كوب النعناع، وهذا لم يمنعها من أن تميل برأسها مستندة إلى كتفه أسفل ظل شجرة التفاح.

* * *

اجتمع الرفاق بعد أسبوع في دار الخالة تمّام، التي استقبلتهم بمائدة عامرة وببكرج قهوة لا ينضب يدور على الموجودين من اليمين إلى اليسار، حتى اختلى الرفاق بأنفسهم في المكتب، تاركين ريما وميلاد الصغير في رعاية أم إلياس.

افتتحت نايري الحديث قائلة:

- أعلم أن نجاح مهمتنا كان له شديد الأثر في نفوس الصهاينة، الذين ترتعد فرائصهم الآن داخل القصور والديار الفسيحة التي

نهبوها منكم، لكني أعتقد أن أهم ما خرجنا به من هذه المهمة علاوة على تخليص العالم من قادتهم، هو هذه القائمة.

أرتهم خمس ورقات مطويات، على أولاها بقع دماء متناثرة. كان نصر الله أول من أخذ الورقة، ثم قال باستنفار:

- دم مَن هذا؟

أجابه إلياس معتزًا:

- دمها. لقد تمكنت من انتشال هذه الورقة من مكتب يوسي وخبأتها بين ثيابها وهي تهرب، ولكن حين اعترضتها روتيم اللعينة، تلطخت بدمها. فلتقرأها علينا يا نصر الله.

فض نصر الله الورقات، ثم قال بعد أن فحصها:

- هذه قائمة بأسماء قادة البلماخ والهاجاناه الذين سيشكلون الجيش النظامي اللعين، وقائمة بأسماء الصهاينة المستعربين وعناوينهم.

سألهم أيوب:

- وماذا تقترحون أن نفعل بتلك القائمة؟

أجابته نايري:

- نسير على نهجك يا أيوب ونكمل عملياتنا. ما كان لقادة الإنجليز أن يستقيلوا من مناصبهم ويسمحوا بتشكيل اللجنة الثلاثية وكتابة الدستور لولا الاغتيالات التي نفذتها منظمة القمح المسلح و...

- وماذا استفدنا؟ رفاقي أعدموا والمحتل لم يخرج بعد. دعونا من هذه الاجتهادات الشخصية، يجب أن ننضم إلى المقاومة المسلحة في القرى مع جيش الإنقاذ. نتعاون مع مختار كل قرية، نعطيه سلاحًا و...

قاطعه نصر الله:

- أي سلاح؟ إن وجدت بارودتين في البلد، يكون خيرًا وبركة.

- سأتدبر السلاح من مصر يا نصر الله كما نفعل كل مرة.

- سنحارب الدبابات ومدافع الهاون بالمسدسات يا أيوب؟

- مسدس تمسكه يد صاحبة حق لأقوى من ألف دبابة يقودها مُعتدٍ.

- والله جربتها في حيفا وأمسكت مسدسين ومع ذلك سقطنا. الأوطان لا تحرر بالحماسة والخطب.

تدخلت تايري:

- نصر الله على حق يا أيوب. من المستحيل أن نقف نحن الستة في وجه جيش كامل.

- أي جيش هذا؟ إنهم حفنة من الميليشيات.

- ميليشيات حاربت في الحرب العالمية الثانية مع الحلفاء، وبُنيت لهم ورش في أمريكا لتسلحهم.

- فليكن. أنا فلاح ابن فلاح، وأعي ما أقوله. إنهم يستهدفون القرى، وإن سقطت القرى، سقط الوطن كله.

ساد الصمت للحظات لم يقطعه إلا جاسر، وهو يضع خمس ملاعق من السكر في كوب شايه ويقلبه بصوت مزعج، ثم يرتشفه بصوت أكثر إزعاجًا.

حدق أيوب إليه بحنق، فتوقف عن الشرب، وقال:

- أتفق مع نايري. نفذنا عملية دورن برصاصتين حصلنا عليهما بطلوع الروح، وأنت تقترح أن نسلح قرى فلسطين كلها؟ من أين يا أبو الشباب؟ فلندع تأمين القرى للجيش، والاغتيالات لنا.

قال إلياس:

- حسنًا إن كنا سنكمل عملياتنا، فأقترح أن نبدأ بهذا اللعين. بواز فلورس.

أراهم صورة أسود وأبيض صغيرة لرجل خمسيني حليق الرأس، عيناه فاتحتان وأنفه دقيق.

سأله نصر الله وهو يراجع قائمة أسماء الجواسيس:

- سنبدأ برأس الحية؟

- موته سيشل حركة رجاله ويشتتهم، فيسقطون بسرعة أكبر. معنا

كل ما نحتاج إليه، اسمه الحركي، عنوانه في أريحا. سنذهب هناك يوم...

- سأذهب بمفردي. لي كثير من الرفاق في أريحا سيرشدونني إليه. ما الاسم العربي الذي اختاره هذا الحقير لنفسه؟

- فواز الزهري.

* * *

كان بواز فاشلاً في الألعاب الرياضية والمهارات البدنية والمواد الدراسية وحتى الفنون.

كانت أمه تنعته بخيبة الأمل، فهو الابن البكري الذي لا يجيد شيئًا إلا التنصت على حديثها مع صاحباتها، ثم نقله إلى أبيه أو إلى جدته أُم أبيه أو إلى عمته بحذافيره، فتشتعل الدار نارًا بسبب هذا الجاسوس الصغير.

على عكس أمه التي لا ترى له ميزة، عرف أبوه أن المتنصتين هم أمل إسرائيل، فضمه إلى الجمعية اليهودية منذ أن كان في الثانية عشرة من عمره.

علمه العربية بفصاحتها وبلهجاتها الفلسطينية المختلفة من النهر إلى البحر.

كان يرسله إلى الأحياء العربية ليلعب مع أطفال العرب، يجلس على مقاهيهم، ويقرأ كتبهم، ويحضر مسرحياتهم وأفلامهم ويحفظ أغانيهم. يتعلم شعائرهم، الوضوء والصلاة والصوم والدعاء، حتى وصل إلى عمر الخمسين ليبقى بالنسبة إلى الصهاينة بواز فلورس اليهودي السفرديي، وبالنسبة إلى الفلسطينيين الحاج فواز الزهري السني.

هكذا ظل الحاج فواز عقودًا يستيقظ مبكرًا، يُقبّل زوجته الحاجة خديجة ثم يخرج من الدار، يصب الحليب للقطط، ثم يسير إلى المسجد ليصلي الفجر ويختم ورده.

يذهب إلى مصنعه المتخصص في تغليف الموز وتصديره إلى

الخارج، مما أتاح فرص عمل عديدة لشباب حيه.

شباب حيه الذين يأتمنونه، إلى درجة أن مَن انتمى منهم إلى المقاومة، كان يختبئ عنده إذا شعر بأن الإنجليز أو الصهاينة يتتبعونه.

يعرض عليه الحاج فواز أن يختبئ في السرداب أسفل المصنع، وفي المساء، يفاجأ الفدائي بالميليشيات تذيقه ألوانًا من العذاب لم يكن ليتصورها في أقسى كوابيسه.

منهم مَن يضعف ويشي برفاقه، ومنهم مَن يحبذ العذاب على أن يبيع رفاقه، لكنْ سيان نهايتهما، طلقة في الرأس ثم يلقون في حفرة في السرداب.

لو يعلم الفلسطينيون كم مقاومًا وفدائيًّا منهم قُتل غدرًا ودُفن ظلمًا أسفل أرضية المصنع الذي يعملون فيه، لأحرقوا بواز فلورس حيًّا.

هذا الصباح، استيقظ فواز وصبيانه الثلاثة حامد وعبود وحسين. أنهوا فطورهم ثم خرجوا لصلاة الجمعة.

في الطريق، جمع الحاج فواز ثمار الجميز الساقطة من الشجرة الكبيرة أمام المسجد، نظفها ووضعها في جيبه.

استمع إلى الخطبة، حتى جاء رجل كهل مُلتحٍ يجلس بجوار الحاج فواز وهو يمد يده ويقول:

- ساعدني يا بني على الجلوس.

أمسك يده فترك في كفه أقصوصة في حجم عقلتَي إصبع. لم يتفقدها الحاج فواز، وضعها في جيبه وأنصت إلى آخر الخطبة، وفي لحظة إقامة الصلاة، أخرجها من جيبه، فضها في هدوء ليقرأ ما كُتب فيها:

احذر من الليليث والديبوق!

لم يفصح عن الذعر الذي سيطر على ملامحه، كرمش الأقصوصة وبلعها، ثم أقام الصلاة.

ذهب الأبناء إلى دار خالهم ليذاكروا مع أولاده، بينما اتجه فواز إلى

المقهى، يؤرجل ويلعب السيجا ويسأل هذا عن أجدد أخباره، وذاك عن آخر أحواله. هكذا يفرز أهل الحي بين مَن ينفع تجنيده، ومَن يجب إقصاؤه لاحتمالية انضمامه إلى المقاومة، ومَن هو محايد لا يبالي بغير قوت يومه.

من هذا المقهى الذي يصدح مذياعه بصوت أم كلثوم، عرف فواز كل كبيرة وصغيرة عن البلد من ثرثرة رواده.

أحرق حجر نرجيلته، وأنهى قدحين من القهوة المغلية، ثم نهض ككل جمعة إلى دكان حلاقة نسيبه، عساف.

استقبله عساف بملامح مقطبة، كان الدكان على غير العادة خاليًا، لا يوجد به سوى عساف نفسه وشاب يكنس الأرضية.

قال فواز:

- يسعد صباحك يا أبو عمرو؟ أين الزبائن يا رجل؟

- ومن له بال يحلق ويتهندم وعصابات الإرجون وشتيرن تفجرنا هنا وهناك.

جلس فواز على كرسي الحلاقة وهو يتنهد ويضرب كفًّا بكف.

- والله إن القلب ليحزن. شباب المقاومة هؤلاء الله أعطاهم الشجاعة، ولكن سلبهم العقل. يا أخي فجروا القصر باليهود الملاعين حرقهم الله دنيا وآخرة، ثم هربوا. فص ملح وذاب، أسبوع يا أخي لم يقدر اليهود على إيجادهم. لكن انظر مَن يدفع الثمن؟ أهالي القرى المساكين.

أعد عساف أدوات الحلاقة وهو يقول:

- وهذا ذنب المقاومة؟ اليهود صفعونا على وجوهنا، فرددنا لهم الصفعة، فإذ بهم يقطعون رؤوس أبنائنا.

فرد عساف كريم الحلاقة بالفرشاة على وجه فواز، ثم أخذ شفرة الموسى الضخم الذي ورثه عن أجداده، وبدأ يحلق له، فقال فواز:

- لعن الله الحرب.

- ليست حربًا يا أخي. هذه بلطجة واستقواء على المستضعفين.

- لا تقلل من الشباب الفلسطيني، انظر إلينا، نلقي عليهم القنابل. والله نحن شعب لا يعجز عن شيء. لا أدري من أين يحضر الشباب القنابل وقد جمع اليهود والإنجليز السلاح من البلد كله.

- الله غالب.

- الفضول سيقتلني. ألا تتساءل أنت أيضًا من أين يأتون بالمتفجرات؟

- كيف لي أن أعرف يا أخي؟

- ألم يقل لك عمرو شيئًا عما يفعله هو ورفاقه في المقاومة؟

- الله يرحمه. حلاق أُمي مثلي لا يفهم في السياسة ولا في السلاح، فلماذا سيحدثه ابنه عن المتفجرات؟

- يا أبو عمرو! إن الحلاق هو خازن أسرار البلدة كلها، لا يثرثر الناس إلا عند الحلاق السقيع.

أنهى عساف الحلاقة، ونزع عن فواز الغطاء، وأخذ ينظف صدره من الشعر وهو يقول:

- أتريد أن تعرف آخر ما يثرثر به الحي كله؟

- كلي آذان مُصغية.

- يقولون إن بيننا مستعربًا صهيونيًا.

- جاسوس في حينا؟

- نعم. تسلل وسطنا منذ أن كان في السابعة عشرة من عمره وتظاهر بأنه يتيم، فتبناه شيخ المسجد، ورباه كابن له حتى كبر، وتزوج مسلمة منا وخلف صبيانًا.

للمرة الثانية، استهلك بواز أقصى درجات ضبط النفس حتى لا يظهر الهلع على وجهه، وبالكاد تمكن من الإبقاء على حيادية صوته وهو يقول:

- ما اسم هذا الجاسوس؟ يجب أن نقتله بأنفسنا لنغسل عار حينا.

وقف عساف خلفه، وأمر الشاب الذي يكنس الأرض:

- المنشفة الساخنة يا فتى.

أسرع الشاب يحضر له المنشفة. وضعها عساف على وجه فواز الذي فور أن تغطى وجهه وصار عاجزًا عن رؤية عساف، سمح لملامحه أن تنهار هلعًا.

ضغط عساف على المنشفة عند الذقن وهو يقول:

- ليس عارنا، إنها ضريبة الطيبة. كرمنا يوقعنا فريسة لهؤلاء الملاعين الذين لا عهد لهم. على سبيل المثال، هذا الجاسوس ابن الملعونين عاش وسطنا أربعين عامًا تقريبًا يأكل من موزنا، يشرب من ينابيعنا وينصت لنا ويشي بشبابنا، وآخر مَن وشى به كان ابني عمرو.

- الله يرحمه.

- الله يلعنك يا خائن يا ابن الكلب!

تلك النبرة التي تكلم بها أبو عمرو، جعلت فواز يدرك حتمية أن أمره قد انكشف.

لم يلحق أن ينطق. في حركة دائرية عنيفة واحدة، شق أبو عمرو بموسى الحلاقة لحم عنق بواز فلورس من الأذن إلى الأذن.

نفرت الدماء من شريانه السباتي ولطخت المرآة النظيفة.

لهث أبو عمرو الذي تخضبت يداه بدم زوج أخته الخائن قاتل ابنه، ونظر إلى يمينه حيث يقف مساعده، نصر الله الذي كشف له الحقيقة وعرض عليه أن يقتل بواز، لكن عساف أقسم ألا يقتص أحد لابنه الشهيد غيره.

وقف رجال الحي عند باب الدكان، يتابعون المنظر مصدومين حتى وصل صبيان فواز.

قال حامد وهو ينظر إلى جثة أبيه ثم إلى خاله القابض على الموسى الدامي:

- ماذا صنعت بأبي يا خال؟

- ليس أباك يا حامد، إنه مستعرب صهيوني. نصر الله أراني هويته اليهودية وشهادة ميلاده.

- ماذا تقول؟

- خدعنا كلنا يا حامد. تزوج أمك وأنجبكم وقتل شباب الحي.

وقف حامد وأخواه يحاولون استيعاب الصدمة، أخرج نصر الله ملف بواز كله بما فيه من وثائق ميلاد وهوية وصور، عسى أن يصدق الصبيان خالهم.

أرجعوا الملف إلى نصر الله بعد أن تفحصوه، ثم اقترب حامد من جثة أبيه ليحملها، فعاونه أخواه.

- ماذا تفعل؟

- سأدفنه في الجبل.

ساعدهم رجلان آخران، بينما تطوع خضري الحي وقال:

- ضعوه في شاحنتي، سأقودكم إلى هناك.

وقف عساف بجوار أبناء أخته المتماسكين، ووجّه كلامه إلى حامد:

- أنا آسف يا أحبائي، لكن...

- لقد غسلت عارنا يا خال. ارتقى شهيدك إلى النعيم، وسقط خائننا في الدرك الأسفل من الجحيم.

١٦
صابون نابلس

أصبحت عمليات منظمة الزيتون المسلح هي حديث الساعة بين اليشوف.

كانت كابوسًا جحيميًّا يقض مضجع كل قائد وكل مستعرب صهيوني، وقد فشلت جميع محاولات الجمعية اليهودية لمعرفة كيف تسربت هوياتهم ومواقعهم إلى المقاومة الفلسطينية.

لذلك، استدعى بنيامين عزلماني، أفيخاي، قائد البلماخ الجديد، ليصب عليه غضبه وإحباطه صائحًا:

- بدلاً من أن أرسل إلى الجمعية تقارير استعداداتنا ضد الجيش العراقي في جنين والمصري في الفالوجا. أرسل إليهم تقارير اغتيال قادتنا. متى ستأتي إليَّ برقابهم؟

- أتمنى الفتك بهم اليوم قبل الغد، لكن الوضع يزداد سوءًا.

- ما الأسوأ من اغتيال خمسة عشر قائدًا وعشرة مستعربين؟

- نصبوا لنا كمينًا في الطريق إلى هارتوف.

- العرب يهجمون على مستعمراتنا؟

- لم يصلوا إلى المستعمرة، هجموا على نقطة التفتيش، وسرقوا السلاح والذخيرة، وفجّروا المدرعة.

- كيف فجّروا المدرعة؟

- بقنابل هوكينز.

- ومن أين لهم بهذه القنابل يا أفيخاي؟

- من الكمين الذي أعدوه في اليوم السابق لجنودنا في الطريق من القدس إلى الجديرة.

- بحق الجحيم! يسرقون أسلحتنا ويقتلوننا بها. في الليل يسقطون مدرعة في الجنوب، وفي الصباح يغتالون قائدًا في الشمال. أيمتطون

الريح أم يركبون البساط السحري؟
- لا ينفذون العمليات معًا، يبدو أن كلاًّ مكلف بمدينة.
- وهل نجا أحد من هذا الكمين؟
- جندي واحد.
- أخذت إفادته؟
- يقول إن المنفذ كان اثنين. رجل أسمر خمسيني له شارب مبروم وعلى عنقه ندوب عميقة، وامرأة شعرها أحمر.
- تقول إن كهلاً وامرأة فتكا بجنودنا وسلباهم أسلحتهم؟
أطرق قائد البلماخ رأسه من دون رد، فضرب بنيامين مكتبه وصاح:
- أي عار هذا يا سيادة القائد! أسقطنا مدينة وقرية ونحتفل بنصر بال عليه بضعة إرهابيين لا نعرف حتى أسماءهم.
- توصلنا إلى أسمائهم يا سيدي. المقدسي، العراقي، النابلسي، المنوفي، الحيفاوي، الماردينية. أعتقد أنها أسماء عائلاتهم و...
- يا أحمق، إنها أسماء مدنهم. ينادون بعضهم بالشفرة. كم رجلاً يجب أن يموت من رجالنا قبل أن نسقطهم؟ غيديون مات بالأمس وهو يتحمم في داره بحق الجحيم. إنهم يدخلون ديارنا ويفخخون سياراتنا. ألا تكفي فضيحة قصر يوسي؟
- يا سيدي، أنت لا تريد أن تصدقني. هذه العمليات يستحيل أن يقوم بها العرب بمفردهم. بيننا خائن.
- إياك أن تنطق هذه الكلمة!
- هل سنتجاهل حقيقة أن الميليشيات اليسارية تتمرد علينا؟
- بل ندور ملاحقين ذيولنا ونترك العرب يذبحوننا في أثناء نومنا. اسمع! أمامك ثلاثة أيام لا غير تكون قدمت لي رؤوس هؤلاء القتلة. مفهوم؟
- أمرك سيدي.
نهض أفيخاي ليخرج، ولكن عزلماني استوقفه قائلاً:

- انتظر! أقلت إن بينهم امرأة شعرها أحمر تُدعى الماردينية؟

* * *

أدرك الرفاق قوة الركلات التي سددوها للصهاينة، لذلك اتفقوا على أن الوقت مناسب للتخفي.

ترك إلياس أمه وغيدا في بيت لحم تحت عناية جريجور، وانطلق مع باقي الرفاق إلى دار والد جاسر في نابلس.

كانت الدار مترفة من الحجر النابلسي العتيق، تتألف من طابقين يطلان على بركة الماء العذبة التي تتوسط حوشها الفسيح، حيث يستظل الجالس فيه بأغصان شجر الإجاص المثمرة، وملحق بها جناح للحريم يتوارى عن الطريق الرئيسي بفروع شجر الزعرور التي سورت الدار بخضرتها.

تلك الدار النابلسية الفسيحة التي مزجت بين المعمار الحلبي والفلسطيني كانت تتردد فيها أصوات الوحدة والوحشة كلما غاب عنها جاسر شهورًا.

كان والداه اللذان منَّ الله عليهما بعد خمسة عشر عامًا من الصبر بابن وحيد فسمَّى السيد جاسر ابنه جاسر على اسم أبيه جاسر، يرقبان عودته مرة في الشهر.

تظن أمه أنها وقت إجازته من كلية الطب في الجامعة الأمريكية ببيروت، بينما يعرف والده أنها وقت حضوره لأخذ السلاح من مخزن مصنع الصابون النابلسي الذي يملكه، أو وقت اقتراض المال منه لشراء مزيد من السلاح والمتفجرات.

خرجت الحاجة زينب بثوبها المطرز وشالها الأبيض معها خادماتها يزغردن على باب الدار، ترحيبًا بوصول جاسر بالسلامة.

نزل من السيارة فهرولت أمه تعانقه، تُقبِّل كتفيه ووجنتيه وعينيه وجبينه، وتملأ أنفها برائحته، وكالعادة لم تتمالك نفسها، هربت منها دموع الغبطة لعودته إليها سالمًا من بيروت.

قبّل يدَي أبيه الذي ربت على كتفه، واكتفى بمعانقته عناقًا

مقتضبًا، حتى يرحب بباقي الضيوف الذين أوصاهم جاسر على التكتم بشأن عملهم النضالي أمام أمه.

قاد الخدم الرفاق إلى الحمَّامات للاستراحة من مشقة الطريق، بينما انشغلت الحاجة بالإشراف على رص الطعام على المائدة، وقد جادت على ضيوفها بأصناف من الطيور واللحوم والفطائر، لكن اهتمت اهتمامًا خاصًا بالأصناف التي يشتهيها جاسر، العكوب النابلسي باللحم واللبن الرايب، والمحاشي بألوانها، واليالنجي الشامي والمكدوس.

جاورت جاسر، تفصص له الدجاج وتضعه له في طبقه، تفصل الدهن عن اللحم الأحمر بمهارة وتطعمه إياه في فمه، تمسح له شفتيه بالمنديل، تسكب له الماء، تعطيه قبلة عشوائية على وجنته. تقف معه وهو يغسل يديه كأنه سيتوه في داره، ثم يعودان للجلوس في ليوان الدار مع رفاقه.

تقطع له أكبر قطعة من الكنافة النابلسية، وتضع له ملاعق السكر الخمس في شايه، وتراقبه يأكل ويمتدح أكلها الذي لم يجد له مثيلاً في أي مدينة حل عليها، فتمسد شعره وتُقبِّل كتفه، حتى فقَدَ أبو جاسر أعصابه وقال:

- لا تنسي أن تناوليه الرضعة يا حاجة!

- أرى وحيدي يومين بالشهر وتريد حرماني من تدليله؟

- ليس أمام رفاقه يا حاجة.

زفرت الحاجة، وسألت الرفاق:

- هل محبتي لوحيدي تزعجكم يا أولاد؟

أسرع نصر الله قائلاً:

- حفظه الله لكِ وحفظكِ له يا حاجة.

سألت الحاجة ابنها:

- أمنزعج من طريقتي معك يا يُمّا؟

- لا يا حبيبة قلبي.

قبّل رأس أمه وكفيها، فنظرت الحاجة زينب إلى زوجها نظرة شامتة، فقال الحاج جاسر وهو يمضغ الكنافة:

- المصري يحكي من كمه، والشامي يحكي من تِمه، والحلبي لا يحكي إلا ليسعد أمه.

لم تبالِ الحاجة زينب بغيظ زوجها، وظلت تدلل جاسر تدليل الأطفال، حتى أتى الخدم لجمع الأطباق الفارغة، فنهضت لتشرف على ما أتموه من تنظيف وإعداد للغرف، ليستريح رفاق ابنها قبل الرحيل.

بمجرد أن ابتعدت عن الصالة، قال الحاج جاسر لابنه ورفاقه وقد انفرجت أسارير وجهه:

- أعددت لكم المخزن، وخصصت حارسين على مسافات متباعدة. إن لمحا طيرًا يطير في غير محله سيحذرانكم، وقتها تنسلون إلى السرداب أسفل المخزن.

قال إلياس:

- شاكرين فضلك يا حاج جاسر.

- عن أي فضل تتحدث يا بُني؟ فلسطين وطني كما الشام وطني. يكفي أنها بلد الحاجة زينب. الرفاق في مصر أخبروني بأن السلاح سيكون جاهزًا للاستلام من بورسعيد خلال ثلاثة أيام.

- سأتحرك الليلة.

- ولِمَ العجلة يا جاسر؟ دع أمك تتشبع منك ليلتين.

علق أيوب:

- يود أن يلحق فيلم أنور وجدي الجديد يا حاج.

نظر جاسر شزرًا إلى رفيقه أيوب، بينما ضرب والده كفًّا بكف وهو يقول:

- كم مرة سأحذرك من اللهو في أثناء الجد يا جاسر؟ ألا تستحي من تصرفات الصبيان تلك؟

- والله غلبت معه يا حاج جاسر.

- لقد قلتها لك يا أستاذ أيوب منذ قابلتك المرة الأولى. أنت والده وأستاذه في غيابي، لك اللحم ولي العظم.
تدخل جاسر متشحتفًا:
- يا جماعة الخير أنتم تظلمونني. أذهب إلى المطاعم والسينمات والمسارح حتى لا أثير الشبهات في حالة أن هناك مَن يرصدنا. هل أسمع أغاني ليلى مراد وأحضر مسرحيات نجيب الريحاني وأشاهد أفلام أنور وجدي لصالحي؟ كله من أجل فلسطين ومن أجل النضال والفداء.
ضحك الرفاق على أداء جاسر المسرحي الركيك من دون أن ينتبهوا إلى أن الحاجة زينب عادت تقول:
- عن أي نضال وفداء تتحدثون يا أولاد؟
أسرع الحاج يقول:
- الشباب يقولون إن الفدائيين اختطفوا دبابة وقتلوا الـ..
- توقف يا حاج بالله عليك. أكره هذه السيرة.
سألها جاسر:
- ألا تسعدين لانتصار المقاومة يا يُما؟
- لا أسعد بسماع الموت والنار والبارود. إياك أن تنساق وراء تلك الحكايات يا يُما. ركز على دراستك فقط.
- أعلم أنك تخافين عليّ، لكن المقاومة هي واجب كل شاب.
- وحين يخرج كل شاب حاملاً بارودة فيعود مكفنًا لذويه، مَن سيبقى ليبني الوطن؟ الختايرة؟
- إن لم نحمل البارودة لن يبقى وطن لنبنيه من الأساس. لقد خرج كل رجال أسرتك لثورة البراق، وكل رجال أسرة أبي لمقاومة الفرنسيين في الشام. الآن ترفضين المقاومة؟
- نحن نقاوم يا جاسر. أبوك يقاوم بتجارته التي تعمر الديار، وأنا أقاوم بمكوثي في داري من دون هجر، بزراعتي لأرضي وأرض أجدادي. أقاوم بأن أطهو للمحتاجين، وأتصدق على السائلين

وأكفل اليتامى وأضايف أبناء السبيل. أقاوم بتربيتي لابن مثلك، اسم الله عليه، سيد الناس، يتحدث بدل اللغة ست لغات ليخاطب العالم، ويُعرفهم أن فلسطين أرض لها أصحاب زرعوها وعمَّروها وزينوها حتى طمع فيها اليهود. وكذلك أنت ستقاوم يا حبيبي بتخرجك من كلية الطب لتعالج العليل وتساند المحتاج. ليست كل المقاومة قنابل وبارودًا يا يُما.

* * *

مكث الرفاق في المخزن الفسيح الذي أعده الحاج جاسر لهم كأنه فندق مترف، حتى إنه فصل جزءًا منه ببراميل الصابون وستارة صيفية أنيقة لتكون غرفة مستترة، بها ثلاث مراتب في حالة وجود نساء أخريات غير نايري.

ناموا نومًا عميقًا في ليلتهم الأولى، ثم استيقظوا فلم يجدوا العراقي بينهم، كعادته يغيب ويعود من دون تبرير.

أتى جاسر في الصباح يحمل ما لذ وطاب من طعام، فاجتمع الرفاق حوله يجردون ما معهم من سلاح ويحسبون ما سيتسلمه جاسر من مصر.

قال جاسر:

- الرفاق في مصر أخبرونا بأن ما سنستلمه منهم هذه المرة أقل من الكمية المعتادة.

- متى ستستلمها؟

- سأتحرك غدًا بعد صلاة المغرب.

- حسنًا، اسلك الطريق البري، وخذ معك ما يكفيك من الذخيرة في حالة تعرض لك أحد في الطريق.

- لا تقلق يا أبو الشباب. إن شاء الله سأذهب وأعود من دون أن أهدر رصاصة واحدة.

قال أيوب نافثًا دخانه:

- لا تتلكأ هناك. تستلم السلاح وتعود.

- يا أخي ساعة لقلبك وساعة لربك.
- والله إن الحمار حمار ولو رُبي بين الخيل. أعرف أن نهايتنا ستكون على يد هذا الوغد المتصابي!
- عيب يا أبو الشباب! هل جئتكم مرة برصاصة ناقصة؟
- هل ستحتاج إلى مشرف يضيق الخناق على لهوك وعبثك؟
التفت أيوب نحو نايري قائلاً:
- تذهبين مع هذا الأرعن إلى مصر؟
قاطعه إلياس:
- نايري ستبقى معي.
استشعر إلياس احتداد نبرته، فقال محاولاً أن يلطف الوضع:
- أعني أن الرفيقة نايري ستكون مفيدة لنا هنا أكثر.
ابتسمت له بعذوبة، فتبادل أيوب وجاسر نظرات خبيثة وابتسامة مكتومة شاركهما فيها نصر الله.
تظاهر إلياس بالانشغال في جرد السلاح وتسجيله في دفتره، ولكن جاسر لم يرحمه، غنى بإيقاع ناعس ورومانسي مبتذل:
- الحب ده غنوة. كلها أحلام. أنغامها الحـ...
توقف إلياس عن الكتابة، وقال لجاسر:
- توقف يا أبله!
- ماذا بك يا أبو الشباب! ألا تحب قيثارة الغناء العربي؟
التفت إلياس إلى أيوب وقال:
- أخرِس رفيقك!
- دع الفتى ينشد، ما أعذب صوته. من البداية يا جاسر.
- أنا قلبي دليلي قالي هتحبي. ديمًا يحكي لي وبصدق قلبي.
صفق له أيوب فانضم نصر الله إلى جاسر في الغناء، بينما مد جاسر يده إلى نايري مقلدًا أنور وجدي، فضحكت وانضمت إليه، وأخذ يراقصها ويغني، فوقف إلياس يشاهدهما ويضحك.
كانت تدور مع جاسر في دوائر ممسكة بطرف تنورتها الواسعة

وهي تطير كالفراشة بقدميها الحافيتين، متكئة على كعبها الوردي وتضحك كاشفة غمازتيها.

انتشلت فؤاده برنين ضحكتها الرقيقة، فهو لم يرَها تضحك وتستمتع بوقتها منذ اغتيال إيلي، فوقف يهيم فيها وتتسع ابتسامته مع اتساع محيط حركتها مع جاسر.

هكذا أدرك أنه تخطى مرحلة الهوى والميل، وسقط في الوجد الذي يجعله يفكر فيها ليلاً ونهارًا، نومًا وإيقاظًا.

إنها نجوى الحب، فلا ملاذ له الآن من قهر العالم وظلامه إلا بحبها.

* * *

كان يحلم أعذب حلم.

نايري عروسه ترتدي الثوب الغباني والشملة والشطوة والمطاويح، وتقف أسفل شجرة الزيتون فيأتيها بالقمباز والحطة والعقال لتزف إليه.

أمه تزغرد، غيدا تلقي عليهما بتلات الورد وماء الزهر، ميلاد الصغير يضرب الدف، وربما ترقص.

يقترب من عروسه، يُقبِّلها، ثم فجأة تضغط على كتفه بعنف وتقول بصوت ذكوري عميق:

- إلياس! استيقظ!

استيقظ من وطأة اليد التي تضغط على كتفه، فسحب مسدسه بخفة من أسفل وسادته ليوجهه صوب صاحب الصوت العميق الذي يوقظه.

لم يضغط على الزناد، فقد أدرك أن مَن يضغط على كتفه هو العراقي.

تطلب الأمر بضع ثوانٍ حتى يتبين أن قميص العراقي ملطخ بالدماء وكذلك يده التي يوقظه بها.

لم يدع لإلياس فرصة أن يسأله، قال له:

- أحتاج إليك لتترجم لي.

- ماذا؟

- هيَّا!

جذبه بغشامة حتى نهض عن السرير، وسحبه إلى خارج المخزن.

كان لدى إلياس مليون سؤال وهو يتبع العراقي الذي يجذبه من ذراعه، حتى توغلا في الخلاء المحيط بالمخزن وصولاً إلى شاحنة نقل مواشٍ، مؤخرتها مغطاة بغطاء قماشي أسود ويصدر منها أنين مكتوم.

تقدم العراقي حيث مقعد السائق، سحب منه المطرقة التي صارت سلاحه المفضل منذ تفجير قصر يوسي.

سأله إلياس:

- ماذا يدور يا رفيق؟

- لا أجيد العبرية.

رفع الغطاء ليكشف عن أربعة أفراد بزي الميليشيات المسلحة ملقين فوق التبن. ثلاثة منهم رؤوسهم محطمة وواحد منهم فقط على قيد الحياة مصاب ببعض الكدمات، وفمه مكمم، ويداه مقيدتان بأصفاد مربوطة بقضيب صندوق الشاحنة.

لا يعلم أي الموقفين فاجأ إلياس أكثر، وجود ثلاثة صهاينة هشم العراقي رؤوسهم بمفرده، أم أن العراقي يتكلم.

وقف العراقي يزن مطرقته، ويحكم قبضته على مقبضها، وهو يدفع إلياس بالغشامة نفسها التي أيقظه بها ويقول:

- اسأله عن عنوان جاكوب أندلمان؟

- مَن يكون جاكوب هذا؟

حدق العراقي إليه في صمت، وأومأ إليه أن ينفذ ما طلبه منه فقط.

دعك إلياس عينيه ليطرد ما علق من النعاس في مقلتيه، وطرح السؤال على الجندي بالعبرية.

أخذ الجندي يصيح، فانتبه إلياس إلى أنه مكمم، فقال للعراقي:

- كيف سيتحدث يا أخي؟

سحب العراقي قطعة القماش من فم الجندي الأشقر المذعور الذي فور أن وجد صوته صاح مستجيرًا بإلياس:

- لا تدع هذا المسعور يهشم رأسي.

- أين يقيم جاكوب أندلمان؟

- جاكوب في لندن.

ترجم إلياس الإجابة، فأطال العراقي النظر إلى الصهيوني، ثم من دون مقدمات هوى بمطرقته على ساق الجندي فسمعوها تتكسر.

صرخ الصهيوني وسالت دموعه الحارة، بينما قال العراقي لإلياس:

- أخبره بأن ينطق بالحقيقة حتى لا أقتله على الطريقة الآشورية.

- وأي طريقة هذه؟

- أمزق قدميه، ثم شفتيه.

همَّ إلياس أن يترجم التهديد، لكن العراقي أردف:

- ثم أنفه، ثم أخزق عينيه ثم أفرغ بطنه من أمعائه.

اشمأزَّ إلياس من الوصف البشع، فقال وقد انقبضت ملامحه:

- أهناك أمر آخر؟

- سأنزع قلبه من صدره.

التفت إلياس إلى الصهيوني الذي ظل يئن، وقال:

- أخبره بما يريد معرفته لتنقذ نفسك من ألوان عذاب لا يتخيلها عقلك.

ظل يتألم ويصرخ، فلم يمهله العراقي، جذبه من قدمه بينما كانت يداه مقيدتين بالشاحنة فشعر بأن أوصاله ستتمزق.

حال إلياس بين العراقي والصهيوني وقال:

- يا أخي على مهلك. أعطِه فرصة.

قال العراقي وهو يجذب الصهيوني أكثر:

- الوقت كالسيف، إن لم تقطعه قطعك. وأنا سأقطع ابن النعل هذا.

صرخ الجندي:

- إنه في جنين. ترقى ليقود لواء المدرعات العسكري.
ترجم إلياس ما قاله على الفور، فقال له العراقي:
- أريد خط سيره مفصلاً.
غرد الصهيوني كالبلبل يجيب عن كل أسئلة العراقي من دون تفكير، مزودًا إياه بأدق التفاصيل عن جاكوب أندلمان؛ عنوانه وخط سيره ومعسكره ومعاونيه، وحتى لوحة سيارته والسيارات التي تحميه.
ترك العراقي قدمَي الصهيوني الباكي، ثم سأل إلياس بهدوء لا يليق بذعر الجندي:
- هل وعدته بأنني لن أقتله إذا قال الحقيقة؟
- كلَّا.
- جيد! لا نريد أن يظن اليهود أن العرب يخلفون وعودهم.
هشم العراقي جمجمة الصهيوني، ثم خلع قميصه الأبيض، وألقاه صوب الجثث وأعاد تغطية الشاحنة.
اتجه إلى مقصورة الشاحنة، أخذ منها صفيحة مملوءة بالمياه، غسل بها يديه ووجهه، ثم ارتدى قميصًا نظيفًا كان قد تركه على المقعد المجاور له، كل هذا وإلياس يراقبه مشدوهًا حتى سأله:
- لماذا كنت تتظاهر بأنك أبكم منذ أن كنت معنا في المعتقل؟
- لم أتظاهر، أنتم خمنتم وأنا لم أؤكد أو أنفِ.
- لماذا لم تكن تتحدث معنا إذن يا رجل؟
- خير الكلام ما قل ودل.
صعد إلى مقعد السائق فاستوقفه إلياس:
- يا أخي حدثني كما أحدثك، ألسنا رفاقك؟
- أنتم كذلك، ولهذا لم أقصر في عملي معكم.
- ولكننا لا نعرف عنك شيئًا. تغيب عنا ليلتين ثم تعود معك أربع جثث؟ ما حكايتك؟
أدار محرك السيارة وهو يقول:
- هنا ينتهي عملي معكم. إن احتجتم إلى شيء اسألوا عني في ثكنات

الجيش العراقي بجنين.

- انتظر! على الأقل قل لي اسمك.

- رفيقك سفيان باقر الجواهري.

١٧
ربيعا الموصل

دائمًا ما كانت تشكو والدة سفيان أنها أنجبت أكثر الصبية ثرثرة في العراق كله.

لو سألته ماذا فعلت اليوم في المدرسة يجيبها بأدق التفاصيل، كم خطوة سارها إلى الفصل، كم طالبًا حضر وكم طالبًا تغيَّب، ملابس المدرسين، وصف خطوطهم، ماذا قالوا في الحصة بالكلمة والحرف.

كان يستحيل أن تجد فرصة للحديث في حضرة سفيان باقر الجواهري الذي وُلد في الموصل، أم الربيعين.

أكثر ما كان يثرثر عنه كلما سافر إلى قرية أو مدينة غير مدينته، هو تاريخ الموصل الغني.

إذا سأله أحدهم: «من أي مدينة أنت يا فتى؟»، كان يقول: «أنا من المدينة التي حباها الله بطقس تحسدها عليه باقي المدن فصار لها ربيعان، أنا من الموصل الواصلة بين دجلة والفرات، بين الجزيرة والعراق، بين الحديثة والسنجار، بين المعيشة والتجارة وعلوم الإسلام. أنا من باب العراق ومفتاح خراسان ومعبر أذربيجان. أنا من الموصل، المدينة التي سكن شعبي سهولها وأوديتها من العام ستة آلاف قبل الميلاد».

حتى حين نضج وصار فنيًّا يعمل على أدوات حفر النفط وانتقل للعمل في حقل كركوك/حيفا، كان يروي لرفاقه الفلسطينيين في خليج حيفا عن الموصل، حيث منارة جامع النوري، وبوابة أدد، وقلعة باشطابيا، وقبر النبي جرجيس، وآثار مملكة الحضر، وأطلال سور مدينة نينوى الآشورية.

كان يثرثر في عمله وأكله ولهوه وجده وحتى في منامه، ومع ذلك، كان صاحب تفكير عملي.

على سبيل المثال، لم يزهق وقته قطُّ في الرومانسية والارتباط، كان يوفر كل طاقته للعمل وجمع المال، حتى يتمكن من توفير معيشة كريمة لابنة الحلال التي ستختارها أمه له.

ابنة الحلال تلك كانت ابنة عمه، فلم يمانع سفيان، لم يطمح من الزواج شيئًا سوى البنين ليخلد اسم الجواهري.

اتفق مع أمه أنه سيعود إلى الموصل بعد ليلة «يوم النفط» في خليج حيفا.

هذا ما أطلقته شركة النفط العراقية على ليلة الثاني والعشرين من كانون الثاني لعام ١٩٣٥، احتفالاً بتشغيل الحقل بنجاح.

كانت أمسية أرستقراطية احتفل فيها القادة من العرب والإنجليز واليهود بنجاح المشروع تحت مظلة الانتداب الإنجليزي على فلسطين.

كان سفيان يتطلع إلى تكوين علاقات عملية تساعده على الترقي في المجتمع بعد سنوات عاشها في الفقر المدقع بعد أن أعدم الإنجليز أباه وعمه، فأمضى الأمسية يحدث هذا، ويصادق ذاك، ويداهن هذا، وينافق ذاك، إلى أن أتى صديقه الفلسطيني مروان عناني الذي كان آخر الحضور وعرفه على شقيقته ليلى.

كان لليلى جمال حيفاوي يأسر العين ويسرق اللب ويسكن القلب. بشرة خمرية، عينان شهلاوان واسعتان، أهداب طويلة داكنة، شعر مموج أسود قصير، عود ممشوق وقامة مفرودة، شفتان مكتنزتان.

هام في حسنها، قبل حتى أن تنطق له باسمها، رأى في تلك الفلسطينية ابنة الشمس والبحر الآلهة عشتار وإيزيس وأفروديت وفينوس مجتمعات.

بمجرد أن تحدثت معه، أدرك أن حسنها تحرسه ثقافة خصبة، وللسانها قدرة تفوق قدرته على الثرثرة من دون كلل.

بمجرد أن عرفت أنه عراقي، وجدها تحدثه عن ثورة النجف الأشرف، عن ثورة العشرين، عن سقوط تلعفر واستشهاد الضباط

العراقيين الذين كانوا جواسيس لصالح المقاومة الشعبية، فأعدوا كمينًا لا مثيل له للدرك الإنجليزي وأطبقوا فكهم عليهم.

انبهرت حين عرفت أن أباه كان أحد هؤلاء الضباط الشهداء الذين آثروا الشهادة على الوظيفة والراتب الثابت والدار.

رأى عينيها تلتمعان بالدموع وهو يحدثها عن تفاصيل كفاح أبيه وعمه، فتكلمت بدورها عن كفاح أبيها وجدها في ثورة البراق.

مرت الساعات اكتشفا فيها الأواصر الرابطة بين العراق وفلسطين منذ مقام النبي إبراهيم في الخليل في أثناء هجرته من جنوب العراق، مرورًا بالسبي البابلي، ومن بعده تحرير صلاح الدين الأيوبي الذي وُلد في شمال العراق، فقدر الله له استرداد بيت المقدس، وحتى افتتاح هذا الحقل الذي ربط كركوك بحيفا، وربط فؤاد سفيان بليلى.

كان من المفترض أن يعود إلى الموصل في الخامس والعشرين من كانون الثاني ليخطب ابنة عمه في الثلاثين من الشهر نفسه كما وعد أمه. لكن كانت هذه المرة الوحيدة في حياته التي خالف فيها وعده، لقد خطب ليلى بعد أن تعرف عليها بثلاثة أيام، وفي شهر واحد فقط كان أعد لها دارًا بسيطة في حيفا حيث رسا قلبه.

قبل ليلى، لم يكن سفيان يعرف سوى الهندسة والأرقام وحساب المثلثات والجبر، من بعد ليلى صار هناك شعر وموسيقى وأدب ومسرح وسياسة.

السياسة التي اعتزلها منذ أن استُشهد أبوه من دون جدوى، كل منطقة دافع عنها ونزف فيها هو وأبناء العراق من تركمان وأكراد وسنة وشيعة وقبائل عربية، بسط الإنجليز سطوتهم عليها وحتى بعد أن انتهى الاحتلال الإنجليزي على العراق، حرصوا مثل العثمانيين على أن يشعلوا خلفهم فتيل دسائس فتتت وحدة أبناء الوطن.

لخاطر ليلى، صار يقرأ الصحف وينصت للأحاديث السياسية على المقاهي. يتألم لألم ليلى، ويحزن لحزنها على كل شبر في فلسطين

يتعرض لوحشية الإنجليز وبلطجة الصهاينة.

يراها جالسة تتحسس بطنها الذي يحمل جنينهما، بينما تسمع أخبار ثورة ١٩٣٦، وتبكي لحال الشهداء الذين يعتقلهم الإنجليز، ثم يقصفون ديارهم ليكونوا عبرة لمَن يعتبر.

كان يغلق المذياع ويعانقها ليهون عنها حزنها، ويطعمها قالب الشوكولاتة الذي تحبه، وهو يلقي عليها أبيات شعر الأبوذيّة التي صار يحفظها لأجلها وحدها:

دموعي بيوم فقد الوِلف ليلى
ورِدِت عيني يمرها النوم ليله
تعيِّرني عجب بالشيب ليلى

أحبت ليلى تلك الأبيات التي كانت المنقذ في ساعات الضيق والمخلص من الحزن، حتى إنها طرزت حروفها بالخيوط البرتقالية، وصنعت لوحة بالخيوط علقتها قبالة سرير غرفة نومهما.

كانت الأمور على ما يرام حتى السابع عشر من نيسان ١٩٣٨.

كان سفيان وليلى يسيران في الشارع، وبالمصادفة رأيا أخاها مروان في المقهى العربي على الجهة المقابلة للرصيف الذي يسيران عليه.

لوحت إليه ليلى، واندفعت تعبر الطريق وهي تحمل ابنهما من دون تروٍّ، ففي لحظة فارقة تخطت سيارة تمر سريعًا قطعت الطريق بينها وبين سفيان. تراجع سفيان حيث الرصيف كي لا تدهسه السيارة، ثم رأى هذا المشهد ببطء.

السيارة توقفت، ليلى عبرت مع ابنها، ووصلت إلى المقهى حيث وقف مروان يمد ذراعه نحوها ليعانقها.

نزل من السيارة شاب أشقر قصير القامة على الأغلب لم يتم عامه العشرين، ويرتدي قميصًا أزرق وقبعة فيدورا. وقف، فك جزءًا من شيء في يده، ثم ألقاه صوب المقهى.

مروان يحمل ابن أخته الصغير، ويُقبِّل وجنتيه.

الشاب الأشقر عاد إلى السيارة التي انطلقت قبل أن يغلق بابها.

ما ألقاه الشاب الأشقر انفجر ليشرذم أبدان الموجودين في مقدمة المقهى العربي أولهم مروان وليلى وابنها.

لم يبقَ من ليلى سوى خاتم زواجها الذهبي الذي ارتداه سفيان في بنصره بجوار دبلة زواجه الفضية.

لم يرد أن يسقط في بؤرة الصدمة، أراد أن يثأر لأسرته، فنقل بالتفصيل الممل إلى الدرك الإنجليزي الذي حقق في الواقعة ملامح الشاب الأشقر ومواصفاته وسيارته ونمرتها، وحتى مواصفات قائد السيارة.

انتظر أسبوعًا وحين لم يجد أي اهتمام حقيقي من قِبل الإنجليز، قرر أن يلعب هو دور المحقق بمساعدة رفاقه وزملائه، حتى وصل إلى هوية المفجر اليهودي الإنجليزي جاكوب أندلمان.

هكذا أدرك أن الإنجليز سلبوه أبناء وطنه المقاتلين وأباه وعمه وصهره وزوجته وابنه، فعقد العزم على القصاص، لكنه لم يعرف وقتها أنه منذ وفاة ليلى، سيلازمه الحظ العثر، وسيصير سفيان باقر الجواهري مغناطيسًا يجذب القنابل.

في السابع عشر من أيار، استقل قطار القدس ليقابل صديقًا من الموصل يعيش في القدس، ويجيد العبرية، وقد عزم على مساعدته. ولكن بمجرد أن صعدا إلى القطار، فُجرت قضبانه ضمن عملية شغب يهودية ترهيبية.

في الرابع والعشرين من الشهر نفسه وفي أثناء تمشيته في شوارع حيفا، أطلق اليهود رصاصهم العشوائي على المشاة العرب في الشارع فمات ثلاثة مدنيين.

في السادس والعشرين من حزيران، ذهب إلى يافا ليراقب إحدى المستوطنات التي قيل إن جاكوب تردد عليها مؤخرًا، فتعرض لقنبلة قنصت أرواح سبعة مواطنين.

في الأسبوع نفسه، علِم أن جاكوب طالب بالجامعة العبرية في القدس، فركب الباص ليرتحل إلى العاصمة، فألقى اليهود قنبلة

يدوية منزلية الصنع من نافذة السائق، فمات هو ومَن جلسوا بالصفوف الأولى من الباص، وأصيب سفيان ببضع شظايا.

نُقل إلى المشفى بالقرب من السوق حتى أتم شفاءه، وفي طريقه للخروج، ألقيت قنبلة يهودية على السوق فمات عشرة مواطنين، وجُرح واحد وثلاثون آخرون، كان هو من بينهم للمرة الخامسة على التوالي.

في الخامس والعشرين من تموز، أخبره الرفاق بأن جاكوب شوهد في حيفا، فهرع إلى هناك متجهًا إلى المكان الذي شوهد فيه، فانفجرت سيارة ملغومة في طريقه ضمن عملية من عمليات منظمة الإرجون، فمات خمسة وثلاثون عربيًا وجُرح سبعون. بالطبع سفيان كان من بينهم.

بعد تلك المرة، لم يتعرض سفيان لمزيد من القنابل لأنه ببساطة اعتُقل، فقد وجد معه رجال الشرطة الذين حضروا إلى موقع التفجير للتحقيق، مسدسًا محشوًا، فقادوه إلى غرفة الاستجواب.

قضى عشر سنوات في المعتقل، ضربوه، كهربوه، جلدوه، خلعوا أظافره، حرموه من النوم، من الطعام، منتظرين منه أن يدلي باسم مَن باع له السلاح، وما النية المبيتة للانتقال من حيفا إلى القدس في مواصلات عامة وهو يحمل مسدسًا محشوًا.

صمت. لم يفِدهم بمعلومة واحدة، يتساءل هل آثر الصمت ولاءً للرفيق الذي أعطاه السلاح أم لأنه لم تعد للكلام قيمة لأن ليلى لن تسمعه؟

بين ليلة وضحاها، فقَدَ أكثر أبناء الموصل ثرثرةً النطق، بل نسي الكلمات.

هذا ما تعلمه في المعتقل، السكوت.

عشر سنوات لم ينبس ببنت شفة، حتى إن الوافدين الجدد على المعتقل من بينهم إلياس ونصر الله، سلموا بأنه أبكم.

خرج بعد عشر سنوات، فعاد إلى داره في حيفا يجلس على الكرسي

الذي كانت تفضله ليلى، أمام الأبيات التي طرزتها وعلقتها قبالة سريرهما.

أخرج ثيابها وثياب ابنهما، دفس أنفه فيها، يملأ قلبه بها، ظن أنه سيبكي ولكنه فقَدَ دموعه كما فقد النطق.

هذا الأخرس الخارج من المعتقل ليس الشخص نفسه الذي دخل هذه الدار حاملاً عروسه بين ذراعيه.

لم يعد الرجل نفسه، بل لم يعد حتى يشبه ظله.

أعاد الثياب إلى مكانها، ونهض لينفذ ما كان يترقب تنفيذه منذ عشر سنوات.

العثور على جاكوب أندلمان وقتله بيديه العاريتين.

* * *

الرفاق من الجيش العراقي في جنين ساعدوا سفيان ابن «أبو الفدائيين العراقيين» بكل ما أراده من تجهيزات وعتاد ممكن، حتى إن أحد أبناء قريته المتطوعين في الجيش، عرض عليه أن يقوم بالعملية بالنيابة عنه، لكنه أبى، لا أحد سيقتل مفجر أسرته غيره.

ركب دراجة نارية استعارها من رفيق، وقاد حتى الطريق الصحراوي المقابل للتل المؤدي إلى جنين وفقًا لخط سير جاكوب.

لكنه حين وصل وجد أيوب مقرفصًا يهيل التراب فوق شيء دفنه.

انتبه أيوب لوصول سفيان من صوت الدراجة النارية، فوقف يقول لرفيقه المستفهم:

- ماذا؟ أظننت أن رفاق الزيتون المسلح سيتخلون عن فرد منها؟

* * *

ظلّا داخل ثنايا التل، وقد صفّ سفيان دراجته بعيدًا عن موضع سيارة أيوب.

استغرب أن أيوب لم يحاول افتتاح أي حديث معه، تركه صامتًا كما يريد حتى قرر هو بنفسه أن يقول:

- لماذا شنق الإنجليز والدك في دنشواي يا معوَّد؟

- لأنه ضرب ضابطًا إنجليزيًّا اقتحم قريتنا ليصطاد الحمام من دون إحم أو دستور، فأصاب أمي برصاصة طائشة وماتت.

- قتله؟

- كلَّا. شمس القرية تكفلت بذلك. الخواجة ركض خوفًا من أن يقتله أهل القرية ضربًا بالبُلغ. لم يحتمل مجهود الركض مع الخوف مع حر الريف فمات بضربة شمس. ما زلتُ مقتنعًا بأن هذه هي الضربة الوحيدة التي سددتها مصر للإنجليز حتى الآن. إنه انتقام الأرض لفلاحيها.

- الله يرحم موتانا، ويلحقنا بشهدائنا.

- آمين. ماذا عنك؟ هل سلبتك الإمبراطورية التي لا تغيب عنها الشمس عزيزًا؟

- أبي وعمي. كلاهما شُنق في ثورة العشرين بعد سقوط تلعفر. بطولة أبي الأسطورية تلك كانت تطاردني طيلة طفولتي ومراهقتي. لطالما وددت أن أصير شهيدًا مثله، فتقدمت للجيش لكنهم رفضوني.

- لماذا؟

- لأن نظري ضعيف جدًّا.

- نظرك ضعيف وجعلناك سائق المقاومة؟

ضحك سفيان لأول مرة منذ عشر سنوات، حتى دمعت عيناه من فرط الضحك، ثم قال:

- أتدري لماذا انضممت إليكم؟

- حتى تجمع معلومات عن الصهاينة؟

- حتى أجد ونيسًا يقيني فقدان عقلي أو إزهاق روحي قبل أن أقتل جاكوب.

انتبه أيوب لصوت إطارات تعبر الرمال ونور يشق ظلام الطريق الساكن، فهمس وهو ينهض من مكانه مسرعًا:

- وصلوا.

نهض سفيان وقال:

- شكرًا يا أيوب، على الحديث. إنها أول محادثة أخوضها منذ عشر سنوات.

ربت أيوب على كتف سفيان، ثم خرج الرفيقان يقتربان من الطريق بما يكفي لمتابعة ما يحدث، ولكن من دون أن يكشفا موقعهما.

رأيا سيارة جيب في المقدمة تتبعها ثانية وتخلفهما ثالثة، كما وشى لهم الجندي الصهيوني الجبان.

همَّ سفيان أن يخرج من التل فاستوقفه أيوب قائلاً:

- إلى أين؟

- سأهجم عليهم بالدراجة.

- أهذا ما كنت تخطط له منذ عشر سنوات؟ مطاردة ثلاث سيارات جيب بموتوسيكل ومطرقة؟ انظر!

مرت السيارة الأولى من أمامهما، وفجأة ارتفعت عن الأرض، ثم هبطت كأنها جُذبت إلى أعلى بخيط خفي، وما هي إلا بضع ثوانٍ حتى انفصل عنها هيكلها، وانفجر محركها، والتوت منغلقة على نفسها، وقد تناثرت قطعها مرتطمة بالسيارة التي تخلفها فتهشم زجاجها.

انفرجت أسارير وجه سفيان فدفعه أيوب قائلاً:

- سأحمي ظهرك.

فقَدَ قائد الجيب الثانية وعيه من أثر صدمة الانفجار وارتطامه بالمقود، بينما أصيب قائد السيارة الثالثة بالذعر وأسرع يقودها إلى الوراء، لكن أيوب تدخل.

وقف فاردًا قامته، وأطلق رصاصة واحدة على إطار السيارة الثالثة فثقبها.

أكمل سفيان طريقه إلى السيارة الثانية لا يبالي بما يدور من حوله، حتى وإن شقت الأرض وبصقت جحيمها، لن يحول شيء بينه وبين قتل جاكوب أندلمان الجالس في الأريكة الخلفية.

أردى أيوب الجندي الوحيد في الجيب الثالثة برصاصة واحدة.

فتح سفيان باب الجيب بعنف، وجذب جاكوب من تلابيبه، وألقاه خارجها.

كان دائخًا من أثر الارتطام، فلم يدرك ماذا يدور حوله، كل ما استوعبه هو ألم شديد يصيب مواضع مختلفة من جسده بسبب جسم ثقيل يضربه.

هوى سفيان عليه بمطرقته مهشمًا كل ما طاله من بدن جاكوب.

أخذ جاكوب يصرخ ويتشنج، يرفع يديه ليحمي وجهه تارة ورقبته تارة، حتى مد يده نحو فخذه ليحمي نفسه، لكنها كانت حركة مراوغة، مكنته من مد يده إلى جيبه واستخراج مسدسه وتصويبه نحو سفيان.

في هذه اللحظة، أطلق أيوب رصاصة أصابت يد جاكوب فسقط منه مسدسه، ولكن أيوب يكاد يجزم أنه سمع طلقة تسبق رصاصته، لكنه تخلص من هذا الشك حين رأى سفيان يهشم جمجمة قاتل أسرته بعزيمة حتى تساوى رأسه بالأرض.

فور أن أتم سفيان مهمته، هوى على ركبتيه، فهرول أيوب نحوه.

وضع يده على قلبه الذي اخترقته رصاصة جاكوب منذ ثوانٍ، وبدأ يتمتم مستعيدًا ثرثرته.

جاوره أيوب، وأسند رأسه إلى صدره ليتفقد موضع الرصاصة، ويحاول أن يجذبه ليأخذه إلى المشفى، لكنه يعلم أن السيارة تبعد كيلومترات عن موقعهما، وبينه وبين أقرب مشفى مسافة كافية ليفقد فيها سفيان حياته من فرط النزيف.

لم ييأس أيوب، حاول حمل سفيان، لكن ضخامته عسرت عليه تلك المهمة.

ضغط سفيان على كف أيوب كأنه ينهاه عن محاولاته العبثية، فبقي أيوب جاثيًا بجوار رفيقه الذي يعاني سكرات الموت وهو يردد:

دموعي بيوم فقد الوِلف ليلى

ورِدت عيني يمرها النوم ليله

تعيّرني عجب بالشيب ليلى

* * *

غلت الخالة تمّام قهوتها على السبرتاية في صالة الدار، وهي تدندن كلمات أغنية «القهوجي» التي كانت تغنيها لخليل مع كل فنجان قهوة:

عالقهوجي عالقهوجي
سبعة تروح وسبعة تيجي
سبعة يستقبلوا الذوات
من قهوته لقهوتي
عالقهوجي اسمه خليل
يا قهوتي باب الخليل
صفوا الكراسي لخليل
من قهوته لقهوتي

كانت غيدا جالسة على الأرض مستندة إلى الحائط، على فخذها اليمنى ريما وعلى يسراها ميلاد، تقرأ لهما كتاب «الفرسان الثلاثة» بنسخته العربية التي استردها إلياس ونايري من الدار.

ما أعذب أن تسمع تمّام صوتَي حفيديها الوحيدين وهما يتفاعلان مع أحداث الرواية التي ترويها غيدا لهما بنبرة مسرحية آخذة.

كان الحر لا يطاق في تلك الساعة، فوضعت الفنجان على الطاولة المنخفضة، وفتحت النافذة لتدخل نسمات جاهدت لتشق طريقها إلى الدار.

جلست قبالة غيدا ممسكة بمسبحتها بخرزاتها الثلاث والثلاثين كسنين عمر يسوع، وهي تنظر إلى صورة جماعية لأسرتها معلقة على الحائط.

سمعت صوت زوجها وأولادها يضحكون وهم يستعدون لالتقاط تلك الصورة، كان ذلك قبل أن تحمل في إلياس، وكان ابنها إسكندر رضيعًا يبكي بكاءً هستيريًا، ولم يصمت إلا حين أعطاه كيراز مكعب

شوكولاتة.

كان شعرها طويلاً معقوصًا كالكعكة، ترتدي ثوبًا إفرنجيًّا ابتاعه خليل لها من مصر، وهو يلبس البدلة والطربوش.

سمعته يهمس إليها بأنها تفوق نساء القدس كلهن حسنًا، فابتسمت خجلاً.

هذا الأمر يتكرر كثيرًا. مرة تسمع ميلاد، ومرة زوجها خليل، ومرة سعيد، ومرة إدوارد، ومرة جوزيف، ومرة إسكندر.

لا تخبر غيدا وإلياس بأنها تسمع أصوات الموتى، سيظنانها شاخت وخترفت، بل سيقسمان إنها جنت لو قالت لهما إنها في نهاية كل ليلة تجلس في سريرها تحدث موتاها من خلال الصور التي صورها لهم كيراز.

كانت تفكر، ماذا ستقول لأبو ميلاد قبل أن تخلد إلى النوم الليلة؟ هل تحكي له أنها قطفت أحلى أوراق مريمية وغلتها وشربتها من دون سكر؟ أم أنها أعدت الحلقوم بماء الزهر واللوز لحفيديها؟ أم أنها لاحظت أن ابنهما الصغير معجب بتلك الأرملة الأرمنلية؟

في السابق، كانت لتعارض أن يتزوج ابنها من غير فلسطينية، الصبايا الجميلات كثيرات، وكان خليل المنفتح على العالم والثقافات ليعارضها ويأخذ صف إلياس الذي كان صورة حية منه.

نفس العناد، نفس الاندفاع، نفس الحنان، نفس الثقافة والفضول، هو يعامل المكتبة والكتب على أنها أمه، كما كان خليل يعاملها على أنها ضرتها.

لكن الآن، بعد كل هذا الموت والقهر، لو أخبرها إلياس بأنه يريد الزواج بنايري، ستشجعه، بل ستطرز ثوبَي عرسهما بنفسها، وتعد لهما أفسح غرفة في الدار ليعيشا تحت ناظريها وتحمل أولادهما، وتدخل البهجة لفؤادها مرة أخيرة قبل أن تموت.

ملت من التفكير بمفردها، فارتشفت فنجانها، وقالت لغيدا:

- ما رأيك في نيِّرة؟

قال ميلاد الصغير:
- نايري يا ستو.
- نايري من نيِّرة لا تفرق يا عين ستو. ما رأيك يا غيدا؟
- رأيي فيها بأي خصوص يا خالة؟
- لا تتعبي قلبي يا ابنتي. تعرفين ما أقصده.
- أتمنى يا خالة أن نزف إلياس، ولكني لا أظن أنه يريدها زوجة له.
- كيف؟ ألا ترين كيف ينظر إليها؟
- كيف ينظر إليها يا أم ميلاد؟
- كما كان إدوارد ينظر إليكِ يا بنت نوال.
ابتسمت غيدا خجلاً.
كم تحبها تمّام حين تبتسم فتضيء عيناها الواسعتان، وتبرز غمازتاها السمراوان.
قالت ريما:
- كيف كان ينظر إليك أبي يا أمي؟
- سأقول أنا لكِ يا عيني، كان يحدق إليها هكذا. عيناه مثبتتان عليها كأنهما معدنان وهي مغناطيسهما، ويبتسم ابتسامة واسعة بلهاء هكذا، تكشف عن أسنانه حتى ضرس العقل.
ضحك الطفلان، ثم قالت غيدا:
- يرحم أيامك يا إدوارد. ربنا يجمعني بك.
- بعد عمر طويل يا عيني. لم تُجيبيني بعد. أترتاحين لها؟
- راحتي لها لا تهم في هذه الحالة، المهم إلياس.
لم تقتنع برد غيدا، تظنها تتأفف من الفكرة فقط لأنها خططت آنفًا لتزويج إلياس لشقيقتها آيرين، ولكن إلياس رفض الفكرة بكياسة. ابنها لا يحب آيرين، حضورها لا يخطف لبه، وصوتها لا يضيء عينيه. تعرف تمّام أبناءها كما تعرف أصابع كفها، لذلك تركته يستخدم حجة أنه لن يزف لعروسه قبل أن تستعيد فلسطين استقلالها، وهي تعلم أن المسألة كلها مسألة أن قلبه لم يهوَ بعد.

- ما استفدت شيئًا من الحديث معك. افتحي لنا المذياع، أريد أن ألحق أغنية ماري عكاوي.

تركت غيدا ولديها يقلبان صفحات الكتاب بحذر، فيما ترتشف الخالة قهوتها وتضع مسبحتها على يد المقعد.

فتحت المذياع، وقلبت المحطات، حتى سمعت جملة استوقفتها وجمدتها في مكانها.

كان المذيع يقول بالعربية الفصحى بصوت حشرجه البكاء وبنبرة يملأها القهر والحسرة:

- وأضاف ديفيد بن غوريون في خطابه المذاع من متحف تل أبيب على إيقاع نشيد الهاتيكفاه الصهيوني: أقرت الجمعية العامة للأمم المتحدة في ٢٩ تشرين الثاني سنة ١٩٤٧ مشروعًا يدعو إلى إقامة دولة يهودية في أرض إسرائيل. وطالبت الجمعية العامة سكان أرض إسرائيل باتخاذ الخطوات اللازمة من جانبهم لتنفيذ ذلك القرار. إن اعتراف الأمم المتحدة هذا بحق الشعب اليهودي في إقامة دولة هو اعتراف يتعذر الرجوع عنه أو إلغاؤه. إن هذا هو الحق الطبيعي للشعب اليهودي في أن يكون سيد نفسه ومصيره مثل باقي الأمم في دولته ذات السيادة. وبناءً عليه نجتمع هنا نحن أعضاء مجلس الشعب ممثلي الجالية اليهودية في أرض إسرائيل والحركة الصهيونية في يوم انتهاء الانتداب البريطاني على أرض إسرائيل. وبفضل حقنا الطبيعي والتاريخي وبقوة القرار الصادر عن الجمعية العامة للأمم المتحدة، نجتمع لنعلن بذلك قيام الدولة اليهودية في أرض إسرائيل والتي سوف تُدعى دولة إسرائيل.

شهقت غيداء، وضربت صدرها والدموع تهرب من عينيها.

سقط فنجان القهوة من يد الخالة تمّام وتهشم.

صرخت غيدا وصاحت:

- سرقونا يا خالة! سرقونا!

ذُعِرَ الطفلان من بكاء وصراخ أمهما، فركضا صوبها يبكيان معها.

الخالة تمّام التي لم تبكِ موتاها والتي حملت دارها في قلبها وشردت بيقين العودة، بمجرد أن سمعت تلك الكلمات، خلعت شالها الأبيض عن رأسها وناحت.
كل الدموع التي اختزنتها منذ وعد بلفور، ذرفتها في ليلة الخامس عشر من أيار.
صرخت من جوف قلبها، فهزت جدران الدار، ودوى عويلها حتى سماء الرب.
خرجت إلى الحديقة، وأخذت تهيل التراب على رأسها وهي تسمع الجارات من الديار المجاورة، يَنُحن على وطنهن الذي نُهب في بيان باطل.
ضربت الخالة تمّام صدرها، وخمشت وجهها، ونفشت شعرها، وصرخت في تلك الجنازة الجماعية تقول:
- يابيِّ! سرقوا دار أجدادك يا أبو ميلاد. يابيِّ! نهبوا الأرض في غيابك يا بعلي!

* * *

في نابلس، كان نصر الله وإلياس ونايري في انتظار عودة أيوب وسفيان من عمليتهما فتسلوا بسماع المذياع الذي أحضره لهم الحاج جاسر مع صينية الغداء هذه الظهيرة.
لم يتصور إلياس أن هذا الجهاز الذي كان يطرب أذنيه بصوت رجاء الفلسطينية، وفهد النجار، وروحي الخماش، وماري عكاوي التي جعله صوتها يتمنى أن يصير عازفًا خلفها، أنه سيلقي عليهم تلك القنبلة الذرية التي مزقت فؤاده.
قال المذيع المكلوم مستأنفًا خطاب بن غوريون المترجم إلى العربية:
- إننا نمد أيدينا إلى جميع الدول المجاورة وشعوبها عارضين السلام وحسن الجوار، ونناشدهم إقامة روابط التعاون والمساعدة المتبادلة مع الشعب اليهودي صاحب السيادة والمتوطن في أرضه. إن دولة إسرائيل على استعداد للإسهام بنصيبها في الجهد

المشترك لأجل تقدم الشرق الأوسط بأجمعه. وإننا نناشد الشعب اليهودي في جميع أنحاء المنفى الالتفاف حول يهود أرض إسرائيل ومؤازرتهم في مهام الهجرة والبناء والوقوف إلى جانبهم في الكفاح العظيم لتحقيق الحلم القديم.. ألا وهو خلاص إسرائيل. إننا نضع ثقتنا في الله القدير ونحن نضيف توقيعنا على هذا الإعلان خلال هذه الجلسة لمجلس الدولة المؤقت على أرض الوطن في مدينة تل أبيب عشية هذا السبت اليوم الخامس من أيار سنة ٥٧٠٨ عبرية.

رأت نايري إلياس جامدًا على مقعده كأن صوت المذيع نوَّمه مغناطيسيًّا، بينما وقف نصر الله بجوار المذياع، والدموع تجتمع في عينيه وهو يصيح:

- ما معنى هذا؟ كل مدننا ستصير حيفاء، وكل قرانا ستصير دير ياسين؟

لم يعلق إلياس، لم يرفع حتى عينيه عن المذياع، بينما بكى نصر الله وهو يقول:

- كم طفلاً سندفن؟ كم دارًا سنهجر؟ كم أرملة وكم يتيمًا سنخلف وراءنا؟

ظل إلياس صامتًا، بينما جلس نصر الله على الأرض يستند إلى الحائط ملقيًا رأسه بين كفيه.

هرعت نايري نحوه تربت على كتفه ورأسه في محاولة يائسة لتهدئته.

في أثناء ذلك، نهض إلياس عن مقعده كأن شيئًا لدغه فجأة، وخرج من المخزن بخُطى متعجلة.

نادته نايري، لم يجِبها، فتبعته إلى الخارج.

سار حتى الطريق الرئيسي ومنه إلى شوارع الحي بين الديار.

سمع العويل والنواح والصراخ من كل نافذة وشرفة مر بجوارها، فهذه هي جنازة الوطن.

آثرت نايري أن تتبعه من دون أن تقتحم مساحته. تركته يسير

بخطوات واسعة كما يريد، عسى أن يُسقط هذا ما جثم على صدره من صمت مقهور.

تخلى عن السير، بدأ يهرول، يركض، يهرب من الهزيمة التي أذيعت، من السرقة التي اعتمدت، من الحق الذي نُهب علانية.

ركض حتى خرج من الحي المكلوم ووصل إلى الينبوع.

هوى لاهثًا على ركبتيه عند حيد الينبوع يرى انعكاس قهرته على صفحة الماء.

انهار تماسكه، وبكى أشد مما بكى على أبيه وإخوانه وأعمامه.

ارتعشت أصابعه، واهتزت كتفاه، وانحنى ظهره، وتدلى رأسه على صدره وهو يجهش ببكاء يليق بفدائي فقد وطنه.

رفع رأسه إلى السماء وصرخ:

- لقد فعلت ما بوسعي من دون جدوى!

وصلت إليه نايري ووقفت بجواره، وقد سالت دموعها.

فور أن لمحها ألقى رأسه صوبها وطوق خصرها بذراعيه كطفل وجد أمه.

أحكم العجز قبضته على روحه، فدفس وجهه ببطنها وهي تملس على رأسه وتشاركه أنينه وهو يهمس بقهر الفقد الذي تعرفه نايري جيدًا:

- راح وطني يا نايري! سلبوني أرضي بموافقة الجميع!

١٨

ليمون غزة

كعادة جاسر كلما ذهب إلى بورسعيد لاستلام السلاح، يصل ليلة مبكرة ليقوم بكل الاستعدادات اللازمة.

يذهب إلى الصرافة ليغير جنيهاته الفلسطينية بمصرية حتى يدفع ثمن السلاح.

يأخذ سيارته للتنظيف، يشتري أغلى بدلة بأحدث صيحة، يمر على الحلاق، يحلق ذقنه ويثبت شعره الأشقر الكثيف، ثم يصل إلى لوكاندة بالاس.

يأخذ غرفة تطل مباشرة على البحر فيراقب طيور النورس، ويملأ صدره باليود، ثم يتصل برفيقاته الأجنبيات المقيمات في بورسعيد المتروبولية.

يتناول المأكولات البحرية في مطعم مطل على البحر مع صوفيا الإيطالية، يدخل السينما يشاهد فيلم أنور وجدي ونعيمة عاكف برفقة كلوديت الفرنسية، يدخل تحدي تجرع أكبر قدر من أقداح الفودكا مع أولغا الروسية التي تقيم حفلاً صاخباً في دارها كل جمعة.

الليلة قبيل استلام السلاح هي الوحيدة التي لا يعيشها كجاسر الفدائي، بل جاسر الشاب الوسيم، وريث مصانع صابون جاسر الحلبي، الفتى الذي فشل في دراسة الطب، لكنه نجح في أن يخلص للأرض التي وُلد عليها.

أمضى الليلة يقطف ملذات الدنيا، حتى استيقظ صباح السبت على صوت عالٍ يهز زجاج غرفته في اللوكاندة.

بدا الصوت له كهتاف جموع تنادي بغضب.

نهض عن سريره بشعره غير المرتب، وقميصه الذي تكرمش وفاحت منه رائحة الكحول وحمالتي سرواله المتدليتين حتى

ركبتيه.

فتح النافذة ليرى سبب الضوضاء.

رأى جموع المصريين يسيرون في الشوارع يحملون لافتات قماشية مكتوبًا عليها بدهان أحمر يماثل ما يهتفون به:

عاشت فلسطين حرة أبية!

عاشت فلسطين حرة عربية!

قفز فؤاده إلى حلقه، فراحت عنه كل آثار الثمالة.

رفع حمالتَي سرواله على كتفيه، وأخطأ في تزرير قميصه وهو يركض خارج الغرفة يبحث عن مذياع أو جريدة حتى يفهم أي مصيبة أصابت فلسطين لتخرج تلك المظاهرات الآن منادية بحريتها وبعروبتها.

وصل إلى موظف الاستقبال اليوناني وسأله:

- ماذا حدث لفلسطين؟

- أنا مش يفهم سياسة خبيبي.

ركض جاسر إلى الشارع حيث المظاهرات، انضم إلى الجموع، وسأل شابة تحمل اللافتة وتهتف بقوة احمرّت لها عنقها.

- يا هانم! لماذا تهتفون؟

- الصهاينة أعلنوا قيام إسرائيل واعترف بها الأمريكان والسوفييت، وسيطردون إخواننا الفلسطينيين من ديارهم.

وقف جاسر في مكانه مصدومًا، بينما أكملت الشابة مسيرتها تهتف وترتطم بأكتاف باقي المتظاهرين.

هربت الدموع من عينَي جاسر، فانتبه له شيخ يسير في المظاهرة:

- هل أضعت حذاءك يا بني؟

هنا أدرك جاسر أنه نزل من غرفته حافيًا، فزاد بكاؤه وقال:

- أضعت وطني يا حاج.

- أنت فلسطيني يا حبيبي؟

هز جاسر رأسه ولم يتمالك دموعه، فربت الشيخ على كتفه وقبَّل

جبينه، وقال له:

- اهتف يا بني، اهتف. الله ينصرنا على القوم الظالمين. القدس لنا. الأقصى لنا. عاشت فلسطين حرة عربية.

اختلط بكاء جاسر مع هتافه مكررًا:

- عاشت فلسطين حرة عربية.

* * *

وقف جاسر على الرصيف أسفل شجرة البونسيانا بعد أن انتهت المظاهرة.

تظلل بتلك الشجرة التي تتحمل جفاف الظروف وإهمال البشر، ولكنها تصمد وتزهر كل ربيع من دون أن تخيب ظن المارة الذين يجدون في زهرها فخامة ملكية، وفي ظلها راحة إلهية وطراوة ربانية، فبَرَّد ظلها سخونة جسده لكنه لم يخمد نيران فؤاده.

كيف للمرء أن يتقبل أن يستيقظ ليكتشف أن جواز سفره لم يعد معترفًا به، عملته غير قابلة للصرف، خريطته ابتلعها الكون وأخفاها عن الأنظار، عنوانه لم يعد عنوانه، تراثه لم يعد تراثه، تاريخه لم يعد تاريخه، حتى أكلاته لم يعد طباخها!

كيف يستوعب أنه سيصير شاردًا مشردًا يطوف بين حدود الأوطان على غير هدى إلى أن يحل ضيفًا ثقيلاً على أحدهم بعد أن كان صاحب دار وأرض وزرع وطير ومسجد وكنيسة ودير.

بكى جاسر بحسرة حتى مرت الساعات من دون أن يشعر، وتفاجأ بمعرفة الساعة من صوت المذياع الآتي من إحدى النوافذ معلنًا عن تمام الساعة الثالثة عصرًا.

مسح دموعه ولملم حقائبه، وانطلق بسيارته إلى الرفيق حسن الذي يشتري منه السلاح.

استقبله حسن بالحزن والدموع، يا لها من لطمة نزلت على وجه العرب أجمعين.

طيَّب خاطره، أخبره بأن الجيوش العربية لن ترضخ، سنحارب،

سنسترجعها، هذه ليست النهاية.

على الرغم من طبيعة جاسر المتفائلة، فإن شيئًا ما جعله يؤمن بأن هذه حقًّا النهاية.

دفع ثمن السلاح والمتفجرات وخبأها في صندوق السيارة أسفل غطائها الوهمي كما يفعل كل مرة.

قاد ساعتين ونصف الساعة من بورسعيد إلى العريش، ومنها إلى رفح ثم خان يونس ثم دير البلح ثم النصيرات، حتى بيت لاهيا خارجًا من قضاء غزة.

كان سيكمل طريقه إلى نابلس حتى يبكي فلسطين على صدر أمه وكتف أبيه، لكنه تفاجأ بكمين غير معهود من ميليشيات الصهاينة.

أشاروا إليه أن يتوقف، لكن كيف يتوقف وهو معه السلاح الذي من المفترض أن يكفي جميع عمليات الرفاق القادمة؟

أخذ نفسًا عميقًا، وهدأ سرعته حتى وقف أمامهم.

كان كمينًا من ضابط وجنديين أصغر منه سنًّا، يحمل كلٌّ منهم رشاشًا وخلفهم سيارة جيب.

قال القائد بالعبرية:

- هويتك!

مدَّ جاسر يده في جيبه ثم تذكر، كانت هويته اليهودية المزيفة في جيب سترته البيضاء التي نسيها في دار أولغا بعد قدحه السابع من الفودكا.

حاول أن يُبقي على هدوء ملامحه، فقال بابتسامة للضابط بالعبرية:

- لقد نسيت الهوية في منزل عشيقتي.

- من أين أتيت؟

- من بير توفيا.

- ولكنك في طريق الذهاب إلى بير توفيا وليس العودة منها.

- هذا لأنني نسيت هويتي، فكنت عائدًا لأخذها.

- وإلى أين كنت ستذهب؟

- نير عام. جدتي تعيش هناك.

نقّل الضابط نظره بين جاسر وسيارته من الداخل، ثم قال وهو يمد عنقه من النافذة:

- افتح صندوق السيارة.

- يا صديقي أنا متأخر جدًّا، جدتي في حالة خطرة ويجب أن...

- لست صديقك. نفذ الأمر!

أخذ جاسر نفسًا عميقًا، ثم مال ليسحب المفتاح الذي سيفتح به صندوق السيارة، لكنه باغتهم.

سحب مسدسه من أسفل مقعده وفي ثانية كان قد أطلق رصاصة على رأس الضابط فسقط أرضًا، ثم أطلق رصاصة أخرى على صدر الجندي.

داس على البنزين ليتخطى الجيب المركونة في منتصف الطريق ويفر من الكمين، لكن الجندي الثالث أصيب بالرعب فضغط على زناد الرشاش، مطلقًا ذخيرته عشوائيًّا من دون تفكير، مهشمًا زجاج سيارة جاسر.

برصاصة واحدة، أصاب جاسر رأس الجندي الصهيوني المذعور فوقع مثل رفاقه وأكمل جاسر طريقه.

هذا الجندي المذعور كلف جاسر زجاج سيارته، ورصاصة في كتفه، وثانية في صدره، وثالثة في بطنه.

نزف جاسر بغزارة، لا يعرف أي جرح يجب أن يضغط عليه.

ظل يقود إلى الأمام وهو يعرف أن الطريق ما زال طويلاً حتى بلوغ نابلس، ووقوفه بأي مكان سيكلفه فقدان السلاح، فيقع في قبضة الصهاينة.

لا وألف لا، لن يهدي السلاح الذي ابتاعه بنقود الرفاق إلى الصهاينة، فيقتلون إخوته برصاصه.

هكذا اتخذ قراره.

سلك الطريق الأيسر، فبينه وبين بير توفيا ما لا يقل عن خمس دقائق، بل ثلاث إن زادت سرعته.

تلك المستعمرة اليهودية التي كانت يومًا قرية غزاوية تُدعى «قسطينة»، كان يزرع فيها الليمون والبرتقال واليوسفي، حتى وضع روتشيلد يده عليها وهجّر قومها، وضم إليها قرية بيت دراس.

صار على مشارف بوابات المستعمرة وسورها.

أوقف السيارة، مد يده من أسفل الكرسي، حيث ألصق أصابع الديناميت الملفوفة في القماش والقطن.

أخذ علبة سجائره، وضع بين شفتيه سيجارة تلطخت بدماء جراحه.

أشعل السيجارة، وبطرفها أشعل فتيل إصبع الديناميت، ثم ألقى الإصبع من النافذة صوب البوابة ثم قاد عائدًا إلى الخلف بما يكفي حتى لا تتضرر السيارة من الانفجار.

انفجر الديناميت فسقطت البوابة.

قاد فوقها وركض بسيارته، يسمع من خلفه عناصر الميليشيات المسلحة المكلفة بحماية المستعمرة.

طار بالسيارة حتى وصل إلى مخزن الحبوب الذي يقسم اليهود بجودته ووفرته في هذه المستعمرة بالذات.

أوقف السيارة والميليشيات تقترب منه.

لف أصابع الديناميت حول بعضها، ومال إلى فتيل كل إصبع منها أشعله بطرف سيجارته.

أسند رأسه إلى إطار النافذة، ينفث دخانه وهو ممسكٌ بأصابع الديناميت كأنها باقة من الزهور.

كان قرارًا حكيمًا، سيموت قبل أن يُهجّر أو يطرد من داره، قبل أن يضع الصهاينة أيديهم على تجارة أبيه في نابلس.

يتساءل، هل سيقرر أبوه العودة إلى حلب بعد أن سمع هذا القرار، أم سيبقى يعول المقاومة إلى آخر نفس.

قلبه مال إلى الاختيار الثاني، وبخاصة حين يصل إليه خبر استشهاده.

سيقول أبوه إنه دعا خمسة آلاف ليلة ونصف الليلة من دون انقطاع حتى يرزقه الله صبيًّا يكمل ذريته ويحمل اسمه.

أدركَ جاسر الآن أنه فشل في الحفاظ على نسل جاسر الحلبي، ها هو ذا سيموت قبل أن يُتم العشرين، من دون أن يترك لأمه حفيدًا يُدعى أيضًا «جاسر» يعوضها غيابه.

سينفطر فؤاد أمه، بل ستفقد عقلها، لكن أباه سيقول لها أبيات إبراهيم طوقان الذي تحبه، وسيصبرها بآيات الذكر الحكيم.

ما كان اسم تلك القصيدة التي حفظها أبوه له، كان يخبره بأن «إبراهيم طوقان شاعر نابلسي، فأقل واجب أن تحفظ أشعار ابن مدينتك».

الآن تذكر، كانت قصيدة «الفدائي» التي تقول:

لا تسلْ عن سلامتِه   روحُه فوق راحتِه

بدَّلَتـهُ همومُـهُ   كفنًا من وسادتِه

يرقبُ الساعة التي   بعدها هولُ ساعته

شـاغلٌ فكرَ مَن يراه   بإطراق هامتـه

بين جنبيه خافقٌ   يتلظَّى بغايتِـه

من رأى فحمة الدجى   أُضرِمت من شرارته

لا يذكر باقي القصيدة، لا يملك مزيدًا من الوقت ليلقيها على مسامع نفسه على أي حال.

نظر إلى الديناميت، النيران شارفت الانتهاء من التهام فتيله.

ألقى السيجارة من النافذة، ورفع سبابته يهمس: «أشهد أن لا إله إلا الله، وأشهد أن محمدًا عبده ورسوله».

نظر نظرة أخيرة صوب أشجار الليمون الغزاوي المنهوب، العناصر المسلحة كانت تقترب منه بما يكفي لتطلق الرصاص على جاسر،

طلقة في الرأس أنهت حياته.

اقتربوا جميعًا منه ونادوا باقي زملائهم ليقولوا إنه مات.

انفجر الديناميت، انفجر خزان البنزين فزاد الحريق أكثر، باقي المواد المتفجرة المخزنة في السيارة هي أيضًا انفجرت، فتمزقوا إربًا إربًا.

احترق مخزن الحبوب بما فيه ولم يبقَ من سيارة جاسر إلا لوحتها المعدنية.

نجحت خطته، ارتقى شهيدًا حتى لا يقتل رفاقه برصاصه.

* * *

الخامس عشر من أيار ١٩٤٨ هو عيد ميلاد أيوب الحادي والخمسون.

يذكر هذا التاريخ، لأن أمه كانت تحتفل معه به بأن تحشو له فروجة صغيرة بالفريك يأكلها بمفرده، ثم توقف هذا الاحتفال بموتها.

كاد أيوب ينسى عيد ميلاده حتى عامه العشرين، حين وقع في غرام شريفة.

أحيت هذا الطقس المنسي، بل وكانت تحتفل له به على الطريقة الإفرنجية كما علمتها أمها الأيرلندية، كعك بالكريمة والفراولة وشموع تُطفأ، ثم يتمنى صاحب عيد الميلاد أمنية.

الآن، لم يتمنَّ أيوب شيئًا إلا أن يفنى الطغاة أجمعون.

تمنى معجزة كالتي جاءت لشعيب وصالح ولوط فأفنت قوم مدين وثمود وسَدُوم وعَمُورة.

صيحة مرجفة من السماء تهلك المحتلين الفرنسيين في المغرب العربي، وثانية تبيد الإنجليز الطغاة في مصر والسودان، وأخيرة تقبض أرواح الصهاينة في فلسطين.

تمنى الكثير في تلك الليلة الكبيسة التي تلت استشهاد سفيان وإعلان دولة إسرائيل.

سلم جثمان رفيقه إلى الجيش العراقي في جنين، حتى يُدفن في مقابر أهله بالموصل لا ضائعًا ولا غارقًا ولا مشردًا.

عاد إلى الرفاق ليلتها يظن أنه يحمل أسوأ خبر، لكنه وجد ما هو أسوأ وأبشع منه، سقوط الوطن.

في هذه الليلة، بكى فلسطين وسفيان ودنشواي، ورفاقه المغدور بهم في منظمة القمح المسلح، فقرأ الفاتحة للموتى أجمعين.

بقي جالساً حتى أذان الفجر، كان المؤذن يبكي وهو يؤذن.

صلى في المسجد، ثم جلس في صحنه ثقيل البدن، متيبس العضلات، بطيء الأنفاس لا يملك إلا التأمين خلف الشيخ الذي يدعو لفلسطين وللعرب وللإسلام.

بقي بعدها يقرأ القرآن ويسبح ويدعو ويسجد ويبكي حتى الشروق.

عاد إلى المخزن ليجد إلياس يتكئ على الحائط، وقد ذبلت عيناه من البكاء، تجاوره نايري التي وضعت رأسها على كتفه وقد غلبها النوم.

جلس أيوب قبالتهما قائلاً:

- دعوت لفلسطين.

- وماذا بعد الصلاة يا رفيق؟

- فعلنا ما بوسعنا. كنتُ أحسبه احتلالاً كاحتلال الإنجليز لنا، لكن هذا استيطان. كيف للبنادق أن تتصدى للسياسة الدولية.

- نحل الجمعية؟

- هذا قرارك يا رفيق. إن بقيتَ، والله لأحارب معكم إلى آخر نفس. ولكن إن قررت أن تحلها، فلا خيار لنا إلا أن نتطوع في الجيش.

- أي جيش يا أيوب؟ لم أسمع صوت رصاصة واحدة بعد.

سمعوا خطوات نصر الله قادماً من الخارج وهو يركض ويصيح:

- المصريون يقصفون تل أبيب. المصريون يقصفون تل أبيب.

انتفضت نايري على صوت صياحه، وتلفتت حولها تتساءل ماذا يحدث.

أشرق وجه أيوب، بينما سأل إلياس نصر الله الذي ركض صوب المذياع:

- متى؟

- فجرًا. دمروا محطة الكهرباء بأربع طائرات. قطعوا عليهم النور، الله يظلم أيامهم.

قالت نايري:

- العرب دخلوا في حرب رسمية مع الصهاينة؟

توقف نصر الله عن تقليب المحطات، وقال بابتسامة واسعة:

- اسمعوا!

جاء صوت المذيع مبتهلاً من المذياع بعد أن أبكى المستمعين أمس من الحسرة التي هيمنت على نبرته:

- وفي مواجهة هذا الإعلان الصهيوني المشؤوم الذي قرأناه عليكم أمس، قررت جامعة الدول العربية إرسال بعض الجيوش العربية إلى فلسطين، وأعلنت ذلك في وثيقة أصدرتها اليوم، ومما جاء فيها: نظرًا لأن أمن فلسطين وديعة مقدسة في عنق الدول العربية، ورغبة في وضع حد لهذه الحالة وفي منعها من أن تتفاقم وتتحول إلى فوضى لا يعلم مداها أحد، ورغبة في منع امتداد الاضطراب والفوضى في فلسطين إلى البلاد العربية المجاورة وفي سد الفراغ الحادث في الجهاز الحكومي بفلسطين نتيجة لزوال الانتداب وعدم قيام سلطة شرعية تخلفه، رأت حكومات الدول العربية نفسها مضطرة إلى التدخل في فلسطين لمجرد مساعدة سكانها على إعادة السلم والأمن وحكم العدل والقانون إلى بلادهم وحقنًا للدماء.

ابتسمت نايري لإلياس بملامح مرهقة لتبشره وتصبره، بينما سجد أيوب شكرًا لله، ونصر الله يكبِّر.

عمت حالة من السكينة والأمل في قلوب الرفاق، حتى سمعوا خطوات وصدى أصوات قادمة من الخارج.

اقترب إلياس من النافذة فرأى جريجور يُنزل من سيارته الخالة تمّام وغيدا وولديها وحقائب سفرهم.

خرج إلياس ونصر الله يقابلانه ويحملان معه الحقائب.

كانت الخالة تمّام جسدًا بلا روح، شابت مائة عام منذ الأمس وحتى هذا الصباح.

لا تسير بمفردها، تتكئ على غيدا وإلياس حتى دخلوا إلى المخزن وقادها إلى مرتبة في الركن الذي خصصه الحاج جاسر للحريم.

قبّل قدميها ولكنها لم تنتبه، كانت غائبة عن الوعي وغارقة في حسرتها، فتركها تنام تجاورها ريما وميلاد، ثم خرج إلى الرفاق.

سأل جريجور:

- لماذا أحضرتهم إلى نابلس؟

- الأوضاع غير مستقرة في المدينة. لا يجب حتى أن تبقوا هنا. فلنرحل جميعًا.

- إلى أين؟

- لي رفيق كان يقيم في الخليل، لكنه هاجر أمس إلى فرنسا. يمكنكم أن تبقوا في داره. هيّا، اجمعوا أغراضكم سريعًا حتى نتحرك.

قال أيوب:

- ألن ننتظر عودة جاسر؟

تغيرت ملامح جريجور، زاد حزنه فسألته نايري:

- ما الأمر يا جريجور؟

- لم آتِ لأنقلكم إلى الخليل عبثًا. حياتكم معرضة للخطر. جاسر استشهد. فجّر نفسه في بير توفيا ولولا أن لوحة سيارته نجت من التفجير لما وصل إليّ خبره. الصهاينة سيفتشون دار أبيه وهذا المخزن بالتبعية. لذلك يجب أن نرحل حتى لا نسبب لوالده مشكلة.

سالت دموع غيدا وكذلك نايري، وحوقل نصر الله، وضرب إلياس الأرض بقدميه غضبًا، بينما بقي أيوب صامتًا يسترجع معرفته بجاسر.

جاسر هو الذي وجده مذبوحًا في زقاق في بورسعيد، هو الذي أخذه إلى المشفى وأنقذ حياته، هو الذي هرّبه في صندوق سيارته إلى

فلسطين.

أبقاه في داره في نابلس، اعتنى به وأحسن إليه، وحين سمع منه سبب ذبح الإنجليز له وكيف أقام منظمة القمح المسلح، عرَّفه على إلياس فنقل إليهم خبرته ووضع استراتيجية للمنظمة.

جاسر الذي يصغره بثلاثة عقود، ويكبره في الثقافة والاطلاع وحب الحياة وعشق السينما والوقوع في الغرام، كان صديقه الوحيد.

هذا الصغير الذي كان يشبهه في كل شيء، ويخالفه في كل شيء، اعتبره ابنًا له يناكفه ويشاغبه ويصبره على غربته وبعده عن ابنته خديجة التي ما زالت تظن أنها يتيمة الأب.

نهض أيوب عن كرسيه ثم ركله بعنف وهو يقول والدموع تملأ عينيه:

- هذا الفتى المدلل السخيف الذي لا يحترف في حياته شيئًا إلا أن يعكر مزاجي. أقول له غنِّ لي أغنية لسيد درويش، يغني لليلى مراد. أقول له أريد جبنًا قريشًا، فيحضر لي جبنًا نابلسيًّا مائعًا. أقول له عُد من بورسعيد سالمًا غانمًا لنحتفل معًا بعيد ميلادي فيعود إليَّ شهيدًا. كم رفيقًا سأفقد قبل أن يقبض الله روحي ويخلصني من هذا العناء!

أسند رأسه إلى الحائط حتى لا يواجه الرفاق، وبكى بكاءً غاضبًا.

اقتربت منه نايري، تضع يدها على كتفه وهي تحاول أن تهدئه، فقال وقد هدج الصياح والبكاء صوته:

- يا حسرة أمك على شبابك يا جاسر.

١٩

جرذان برلين

رفض الرفاق الرحيل عن نابلس قبل تشييع جنازة جاسر من داره.

كان أبو جاسر في غرفة فقيده، ينظر إلى النعش الموضوع فوق سريره.

كان أقل حظًّا من نصر الله، فقد حرمه القدر من أن يجمع أشلاء ابنه ويضعها في بؤجة مثله حتى يدفنه، بل إنه اضطر إلى أن يسير في جنازة فقيده وهو يحمل نعشًا رمزيًّا.

ناوله أيوب علم فلسطين، فقام بفرده فوق النعش الفارغ، وأخذ يربت عليه بجلد.

لم يتماسك أيوب، لسبب ما كان ينتظر أن يأتي جاسر ويروي له عن فيلم أنور وجدي الأخير. ولكن تغطية النعش بالعلم جعلته يتأكد أن الأمر انتهى، جاسر لن يعود.

بكى بحرقة، فربت أبو جاسر على ظهره وهو يقول:

- ما خطبك يا أبو الشباب؟ تبكي كأنه مات لك ميت. «بَلۡ أَحۡيَآءٌ عِندَ رَبِّهِمۡ يُرۡزَقُونَ».

- ونعم بالله. ولكن إن القلب ليحزن على فراق شاب كريم عزيز مثله.

- يحزن لكنه لا يندم. إنني وهبته لله، وأنا أعرف أي ثمن يمكن أن أدفعه. ابني اختار أن يموت كريمًا بين طعن القنا وخفق البنود.

* * *

خرجت الجنازة بهتاف «لا إله إلا الله، الشهيد حبيب الله»، تليه هتافات وطنية باسم «فلسطين الحرة العربية».

سارت نايري وغيدا تتشحان بالأسود من الرأس حتى الأخمصين، تتكئ عليهما أم جاسر التي تبكي وتلوح إلى النعش الفارغ، حتى وصلوا

إلى المقابر مودعة ابنها كما اعتادت أن تفعل عند باب الدار كلما ركب سيارته وسافر، تقف تلوح إليه حتى يختفي تمامًا عن نظرها أيًا كانت الساعة التي سيخرج فيها وهي تدعو له.

وقف الرجال يقرأون القرآن، بينما بقيت نايري بالخارج بعيدًا عن المقابر، تتكئ على مقدمة السيارة تدخن سيجارة، وقد احمرت عيناها من فرط البكاء على شهيد المنظمة.

أتت غيدا وانضمت إليها، أخذت منها سيجارتها لتسحب منها نفسًا، ثم قالت:

- أتظنين أن بيننا خائنًا؟

تبادلتا النظرات المتشككة للحظة، ثم استعادت نايري سيجارتها منها وقالت:

- بل أنا واثقة بأن بيننا خائنًا. أفكر في هذا الأمر منذ الصباح.

- منذ متى ويوجد كمين يهودي في هذه المنطقة؟ ولماذا أوقفوا جاسر بالذات؟

- أضيفي إلى ذلك، مَن أخبر أفراهام بأن كيراز يخبئ السلاح؟ كيف دخل أفراهام إلى دار كيراز وأطلق عليه الرصاص من دون أن يسمعه أحد؟ أليس بينه وبين دار جريجور جدار رقيق؟ كيف لم ينتبه لصوت الرصاص؟

نفثت نايري دخانها، ثم أعطت السيجارة لغيدا وهي تسألها:

- أتعرفين جريجور جيدًا؟

- كلَّا، لكن إلياس يثق به.

- يثق به لأن كيراز كان يثق به، ليس لأنه أثبت نفسه بأي طريقة، صحيح؟

- إن ما تقترحينه خطير.

- لكنه منطقي. انظري ماذا حدث لإيلي، كشف له عن هويته فوصل الأمر إلى أفراهام وقتله في اليوم التالي، وأخذ كل الصور والمذكرات التي كانت ستقربنا خطوة من العدالة الدولية. إن

الرفاق في منظمة هايك حذروني منه. كنتُ أظنه أبله فقط، ولكن انظري كيف أفسد عملي. أرسلني إلى مطعم شقائق نعمان القدس ليلة تفجير الرفاق له من دون تحذير. الوحيد الذي حذر من هذه العملية هو أفراهام.

- لكن عابد هو الجاسوس الذي حذره. لقد اعترف لكيراز.

- ماذا لو لم يكن عابد جاسوس أفراهام الوحيد؟

أعادت غيدا السيجارة إلى صاحبتها، ثم قالت وهي تنفث الدخان:

- سأخبر إلياس.

- لا تخبري أحدًا حتى نتأكد، لا نريد أن نوقع الفتنة بين الرجال.

- وإن تأكدنا، ما العمل؟

- وقتها سأتولى أنا أمره كما تولى خالي أمر عابد.

خرج الرجال من المقابر بعد أن فرغوا من شعائر الدفن.

وقف أيوب يخبر إلياس ونصر الله بأنه سيبقى في نابلس مع الحاج والحاجة فترة، تحسبًا لتوصل اليهود إلى هوية جاسر أو هجومهم على الدار لتفتيشها.

وافقه الرفيقان وودَّعاه، ثم اتجه نصر الله إلى سيارته، حيث تجلس الخالة تمَّام وحفيداها فركبت معهم غيداء، وانتظروا أن يركب إلياس ونايري مع جريجور الذي سيرشدهم جميعًا إلى دار رفيقه الآمنة في الخليل.

وقفت نايري بالقرب من سيارة جريجور تنتظر إلياس أن ينتهي من توديع أمه وغيدا وتقبيل ريما وميلاد حتى أتى هو وجريجور.

وقف إلياس واضعًا كفيه على كتفيها، في العادة لا يلمسها بهذه الحميمية في العلن، فشعرت بمزيج من الخجل والقلق وهي تنظر إليه وإلى جريجور.

- ما الخطب يا إلياس؟

- جريجور لديه خبر يهمك.

التفتت إلى جريجور بنظرات متشككة، حتى قال:

- وصل إليّ خطاب من الرفاق في برلين.

- من هايك؟

- نعم. الأمر يخص كيغانوش.

تضاعفت ضربات قلب نايري إلى درجة أنها وضعت كفها على قلبها، وصارت في حالة استنفار وهي تسأله:

- ماذا حدث لأختي؟

فهمت من نظرات إلياس المليئة بالشفقة، ومن ضمه إليها علانية أن الأسوأ قد حدث.

دفست فمها في كتفه فكتمت صرخاتها، بينما بقي جريجور يراقبها من دون ردة فعل تذكر حتى سألته:

- مَن فعلها؟

- تشكين في أنها ماتت مقتولة؟

- لا أحد يموت في عائلتي ميتة طبيعية. كُتب علينا أن نُعتقل ونُشنق ونُذبح ونُحرق أحياءً ونُشرد لآخر الزمان. أين دفنت؟

- جثمانها في طريقه إلى ميناء يافا، من المفترض أن يصل خلال ساعة ونصف.

- لماذا أرسلوا جثمانها إلى هنا؟

- كانت هذه وصيتها، أن تُدفن بجوار خالها. أرسلوا إليّ نسخة من الوصية سأطلعك عليها حين نذهب.

مسحت نايري دموعها، جريجور الأحمق فضح نفسه بنفسه.

قال إلياس:

- إلى أين ستذهبان الآن؟

- إلى يافا. يجب أن تستلم نايري جثة أختها.

- سأذهب معكما.

- لا يا رفيق، الكلاب يبحثون عنك منذ مقتل أفراهام.

- لن أتركها تذهب بمفردها وهي في هذه الحالة.

- ستعرض نفسك للاعتقال مرة أخرى؟ أترى الخالة في وضع

يناسب مزيدًا من الحسرة؟

تدخلت نايري:

- جريجور على حق يا إلياس. الصهاينة لا يعرفون شيئًا عني. ابقَ مع الرفاق، إنها مسافة ساعة إلى يافا.

- لا يصح أن أتركك في هذه الحالة.

- جريجور سيعتني بي.

نظرت إلى جريجور، وقالت بنظرة ذات مغزى:

- أليس كذلك يا رفيق؟

- سأضعك في عينَي.

فتح جريجور الباب المجاور له لتجلس نايري، فعانقت إلياس عناقًا طويلاً لتودعه.

مال إليها ودس أنفه في المسافة بين عنقها وكتفها، وملأ أنفه برائحة جلدها وشعرها، ثم تركها تنسل من بين ذراعيه، وتركب مع جريجور.

وقف يراقبهما وهما يرحلان، ثم عاد إلى سيارة نصر الله يجلس بجواره.

الخالة تمّام لم تقل كلمة واحدة منذ الأمس، لكنها قررت الآن أن تنطق بجملتها الأولى بعد صمت طويل:

- والدك حين كان يريد مغازلتي في الشارع قبل الزواج كان يسألني ماذا طبختِ اليوم يا زينة البنات. وأنت يا قليل الحياء تعانقها أمامنا في العلن هكذا؟ الرب أعلم بما تفعلانه من وراء ظهورنا.

ضحك كل مَن بالسيارة على الرغم من أن المكان والزمان لا يسمحان بذلك، ثم أدار نصر الله المحرك، بينما تقول الخالة:

- تضحكون؟ أنسيتم الأصول يا ولاد؟ أبوك لم يلمس يدي إلا في ليلة الزفاف. لم أُربِّك على هذه الخلاعة يا ولد. تعانقها في المقابر ودموع أهل رفيقك لم تجف على ابنهم بعد!

- أنا آسف يا يُمّا. لم أقصد أن أتعدى حدودي.

- يا ابني تزوجها وخلصني قبل أن تفضحونا بين الخلق أكثر من

ذلك.

- أي زواج هذا يا يُما! أترين وضع البلد مناسبًا لـ...

- وضع البلد لن يسوء بزواجك ولن يعتدل بعزوبيتك. تزوجها الليلة قبل الغد، شبعت زغاريد على الشهداء، أريد أن أزغرد للأحياء ولو مرة قبل أن أموت.

* * *

خيَّم الصمت على نايري وجريجور حتى خرجا من الحضر، وقاد في الطريق الريفي من نابلس إلى يافا.

كانت ظهيرة هادئة، لا سيارات على الطرق ولا دواب تحمل المحاصيل، كأن الجميع يهاب الخروج من داره فيعود ولا يجدها.

كسر جريجور الصمت وهو يشعل سيجارته ويسألها:

- هل أنتِ بخير؟

- كيف أكون بخير بعد هذه القنبلة التي ألقيتها عليَّ؟

صفَّ جريجور سيارته على حيد الطريق الخالي، وقد مال إلى اليمين ليواجه نايري وهو يقول:

- أنا في مأزق لن يساعدني على الخروج منه غيرك. تدرين أن كيراز ترك لي صناديق صوره، وقد نفذتُ وصيته ونقلتها إلى إيلي حين أعطاني كلمة السر.

- وبذلك كنت سببًا في قتله.

لم يستسِغ اتهامها، أخذ نفَسًا عميقًا من سيجارته، ثم استأنف:

- لم أُبقِ عندي سوى صندوقين، كانت فيهما صور شخصية تخص كيراز وعائلته وأصدقاءه. وقد وجدتُ هذه الصورة من بينها.

أخرج من جيبه صورة ملونة يدويًّا لفتاة حسناء في مقتبل العشرينيات، عيناها واسعتان داكنتان، ذقنها مدبب صغير، شفتاها مكتنزتان، أنفها بارز، شعرها بني قصير.

كادت تمد يدها لتأخذ الصورة وتفحصها جيدًا، لكن جريجور أعادها إلى جيبه قائلاً:

- أتعرفين صورة مَن هذه؟
- صورة آبا قبل الحرب. أنا التي أرسلت تلك الصورة إلى كيراز وقتها، كنت أعرفه على أصدقائي في برلين. على الأغلب ستجد أيضًا صورًا لأفراهام وإيلي و...
- هذا عكس ما قاله بوغوس. أتذكرين بوغوس يا نايري؟
- بالتأكيد. كان صديق طفولة زوجي وقد قتله النازيون كما قتلوا...
- هذا ما تعرفينه أنتِ. ولكن ما تعرفه كيغانوش أنها هرَّبت بوغوس بنفسها فسافر إلى فرنسا ومنها إلى مصر، وأصبح هو الذي يتولى مهام هايك في القاهرة. وبما أن آبا كانت على قائمة منظمتنا، وبما أنها انتقلت إلى القاهرة لتتجسس على يهود مصر، فتنفيذ مهمة قتلها كان من اختصاص بوغوس. أي أن ملف العملية معه، وكان يجب أن تذهبي لأخذ الملف منه، تنفذين العملية ثم تعودين إليه كما فعلتِ معي هنا في عمليتَي عباس ومراد باشا. لماذا لم تعرجي على بوغوس؟
- لأنني لم أكن أعرف أنه نجا من الموت. لقد خططت لقتل آبا بمفردي من دون الرجوع إلى أي فرد في المنظمة، لأن هذا ثأري الشخصي، آبا وشت بزوجي أنا.
- ووشت بعشرين شابًّا من شباب المنظمة قُتلوا تمامًا كما قُتل زوجك.
- إلامَ ترمي يا جريجور؟
- بوغوس وصل إلى القدس. أول مَن زاره كان أبي ليؤدي واجب التعزية في كيراز. كنتُ أروي له كيف فُطر قلبك على وفاة خالك وأنكِ اقتصصتِ من قاتله. فقال لي كيف سارت نايري في جنازة خالها؟ صفها لي. وصفتك له فاستعجب. كنت أفرز صور العم كيراز عسى أن أجد لكِ صورة أريها له، فرأى تلك الصورة التي أريتك إياها وقال إن هذه هي نايري.
- أي حماقة هذه، إن كانت هذه صورة نايري فمَن أكون إذن؟

ألقى سيجارته من النافذة وقال:
- أنتِ آبا لينمان!
كانت سترد، كانت ستبرر وتسرد عليه قصة مقنعة من دون ثغرة واحدة، لكنه انقض عليها وأحكم قبضتيه على عنقها.
- نايري كانت تعلم أن بوغوس حي وقد رتبت معه اللازم لقتلك، لكن جاسوسة صهيونية مثلك تغلبت عليها، قتلتها أنتِ ثم انتحلتِ هويتها لتدخلي القدس كأنك واحدة منا حتى تندسي بين المقاومة.
ارتطم رأسها بالنافذة، حاولت أن تفتح الباب لكنه كان موصدًا.
حاولت دفع جريجور وتخليص عنقها من بين قبضتيه، لكنها رأت في عينيه عزيمة لا مثيل لها على ألا يترك عنقها إلا وقد انقطعت أنفاسها عن الحياة.
- استغللتم أن نايري لم تأتِ قَطُّ إلى القدس ولا أحد يعرف شكلها سوى كيراز، فقتلتموه وأرسلتم جرذًا من أتباعكم في برلين ليقتل كيغانوش، لأنها الوحيدة التي تعرف أن نايري في القاهرة تطاردك.
ضربت الأرض بقدميها، الهواء يقل، عيناها تدمعان بغزارة، رؤيتها تشوشت، تشهق، صدرها يعلو في محاولة يائسة لالتقاط الهواء.
بيد، حاولت لَكْم صدر وجانب جريجور، بينما سقطت يدها الأخرى بجوار فخذها.
- خططتم وقتلتم، لكن الرب فضحكم في النهاية. بعد سبع سنوات من مطاردتك، سأرسلك إلى الجحيم الذي تستحقه عاهرة خائنة مثلك يا...
شعر بألم شديد يخترق عنقه، يخطف أنفاسه، يقطع صوته، يبطئ نبضات قلبه ويجعل الدماء تنفر منه.
في لحظة غضبه واندماجه في خنقها، استطاعت أن تسحب خنجرًا صغيرًا تربطه في فخذها لحالات الطوارئ المشابهة، فطعنت عنقه مخترقة شريانه السباتي.

نفرت دماؤه وسالت بغزارة على وجهها وصدرها وعنقها وهو يلفظ أنفاسه الأخيرة.

دفعته من فوقها فارتطم بمقعد القيادة، بينما شهقت لتخمد نيران الاختناق التي ألهبت عنقها وصدرها.

ظلت تلهث وهي تراقب الروح تغادر جريجور.

مالت من فوقه، فتحت الباب ثم ركلته خارج السيارة، فسقط على ظهره غارقًا في دمه على حيد الطريق.

انتقلت إلى مقعد السائق، أدارت المحرك وانطلقت إلى طريق تحفظه جيدًا.

وصلت إلى المنطقة المنشودة، البوابة الحصينة ضمن سور رادع يحمي سكان المستوطنة، وقد زاد عدد الحراس منذ أن فجَّر جاسر نفسه.

أوقفها الحارس يتأمل هيئتها. كانت عيناها حمراوين من السعير، وكدمات خنق عنيفة حول عنقها، ودماء جافة حول وجهها وصدرها وكتفيها.

أعطته هويتها، نظر إليها ثم قال:

- سيدتي، أنتِ بخير؟

هزت رأسها من دون كلام، فهي تشعر بأن عنقها محاطة بدائرة من لهب.

أعاد الجندي الهوية إليها، ثم أشار إلى حارس البوابة أن يفتح لها، فمرت بسيارتها ثم أُغلِقت البوابة خلفها.

قادت حتى الدار المنشودة. صفت السيارة ونزلت منها بخطوات مترنحة مجهدة.

طرقت الباب طرقات واهنة، ففتح لها، يتأبط عكازًا، بيده كوب الرَّم وبين شفتيه سيجارة.

نظر إلى حالها البائسة بنظرة شامتة، ثم قال بضحكة مستهزئة:

- مَن قتلتِ هذه المرة؟

- جريجور. لقد كشف أمري.

ضحك ضحكة مدوية، ففقدت أعصابها، وصاحت بصوتها المبحوح:

- أتضحك يا أفراهام؟

- أجل يا آبا. فهذا جزاء مَن تطلق الرصاص على زوجها.

٢٠
كروم الخليل

لم تُسجل أسطورة ليليث إلا في التراث اليهودي.

قيل إن ليليث الخرافية التي لم تُذكر في أي كتاب سماوي، كانت الأنثى الأولى التي خلقها الرب لتكون زوجة آدم، لكنها أبت أن تطيع أوامره.

لم ترضخ ليليث، ولم تكتفِ بأن تهرب منه فحسب، بل نكاية فيه، أحبت الشيطان وأنجبت منه أبناء لهم مهمة واحدة، إغواء بني آدم ليرتكبوا أبشع الذنوب فيخلدوا في الجحيم.

ليليث التي عصت، هذا ما لقب به أفراهام زوجته وابنة عمه آبا لينمان.

لم يطلق عليها هذا اللقب، لأن شعرها أحمر مثل التصور السائد لليليث زوجة الشيطان فحسب، بل لأنها تمردت عليه ورفضت أن تقبل اعتذاره عن الفظائع التي ارتكبها بحقها منذ أن تركها وهرب من ألمانيا بعد ليلة الكريستال، وانضمت جاسوسة إلى الجمعية اليهودية نكاية فيه.

وها هي ذي الآن جالسة في غرفة نوم أفراهام وقد شربت كوب الماء الذي قدمه لها، ثم جاورها على طرف السرير ليتفقد كدمات رأسها إثر رطم جريجور لها بالنافذة، ويعاين علامات أصابعه على عنقها.

تألمت آبا وضغطت على كف أفراهام، فقال متأثرًا بتعبيراتها:

- تؤلمك يا آنسة برطميان؟

- توقف عن مناداتي بهذا الاسم السخيف!

ضحك وهو يتأمل غضبها الأخاذ.

اقترب منها حتى شعرت بأنفاسه الحارة على عنقها، ثم قبّل مكان

جروحها برقة.

إنها تلك التصرفات المفاجئة التي يقوم بها زوجها فيخل بتوازنها وتقديرها للأمور.

حين يُقبلها فجأة، حين يلمسها بمزيج من الاشتياق والشبق، حين يمتدحها في منتصف شجار عنيف، تلك التصرفات تعجزها عن تبين الحب من الكراهية.

لم تكن تعرف كم يتشابه العشق مع المقت إلا حين غرقت في محيط غرام أفراهام وهي في عمر المراهقة.

تحبه بكل ذرة في تكوينها ثم تراه يهجرها بعد مقتل ابنيهما بأربع وعشرين ساعة، كأنها زجاجة كحول فرغ من شربها.

لتسع سنوات، كرهت إدراكها لأنها لا تعني له ولو ربع ما يعنيه لها. كرهت أنها كانت ساذجة بما يكفي لتحبه من دون أي شروط، ومقتت أنها ما زالت تحبه على الرغم من كل شيء.

تتملكها تجاهه مشاعر متضادة تفقدها القدرة على إنهاء زواجها أو إكماله. فكلما رأته ودت أن تقبّله أطول قُبلة عرفها العشاق، ثم تلكمه أقسى لكمة عرفها الخصوم. تريد أن تسانده وتدعمه، وتريد أن تذله وتقهره. تود أن تسمع أحرف اسمها تخرج من بين شفتيه، وتود أن تقص لسانه حتى لا ينطق باسمها مرة أخرى.

تتمنى أن يخبئها في قلبه، وتتمنى أيضًا أن يقصيها عنه، حتى لا تتعلق به ثم يخذلها مجددًا.

إنها أزمة تعلق جعلت منها سمكة تفتح فمها عن طيب خاطر لتبتلع طعمًا تعرف أن فيه فناءها.

لا تصدق كيف ما زالت أسيرة تلك الدوامة بعد أن حققت أعلى مراتب النجاح في العمل الجاسوسي الصهيوني، إلى درجة أن لا أحد يعرف شكلها سوى أفراهام وبنيامين عزلماني.

هذا ما فكرت فيه آبا وأفراهام يقبّل جروحها. إنها تحبه بشغف وتكرهه بوحشية، وإنها ستبقى إلى الأبد في صراع بين هوى قلبها

ومنطق عقلها.

وبما أنها تركته يُقبِّل شفتيها، بل إنها بادلته القبلات بالشوق نفسه، فقد تأكدت أن هذا الصراع لن يُحل إلا باقتلاع قلبها من صدرها، أو فقدان عقلها كلياً.

* * *

أزاحت الغطاء عن نفسها فتعرت كتفاها وظهرها وهي تميل لتشرب الماء من الكوب المجاور لسرير أفراهام.

كانت المرة الأولى التي يراها فيها عارية منذ ليلة الكريستال، فتمكن منه الذنب وهو يرى آثار التعذيب على جلدها المرمري.

تحسس ندوبها، فنفرت منه ودفعت يده بعنف عن جسدها.

تحسس رأسها معتذرًا، حتى أمسك خصلة من شعرها لفها حول إصبعه ثم قال:

- ما زلت غاضبًا لأنك أطلقتِ على ركبتي الرصاص.

- وأنا ما زلت غاضبة لأنك قتلت أخي.

سادت لحظة من الصمت تلاها إشعال آبا سيجارة دخنتها في السرير، ثم قالت:

- ماذا ستفعل بشأن بوغوس؟

- السمك يتغذى عليه الآن هو وآفو.

- لم تقدروا على قتله قبل أن يفضحني عند جريجور؟

- لو لم أكن أخضع لعدة عمليات حتى لا أفقد ساقي، لكنت تصرفت مبكرًا.

- اشكر ربك أنني لم أقتلك كما قتلت أمي وأبي.

- والدك كان سيموت في جميع الأحوال، ترك هتلر والرايخ يضطهدوننا ويقصوننا، وانشغل بالكتابة عن أعمال الجمعية في أرض الميعاد. شبَّه أفعالي أنا ضد الغرب بأفعال إدوارد الأول ضد اليهود! أنتِ نفسك كنتِ تمقتينه.

- ليس إلى درجة أن أقتله.

- قتلته قتلاً رحيماً، لم يعانِ كثيرًا هو وأمك. يجب أن تشكريني، الجمعية كانت تود أن تجعل منهما عبرة.

أخذ أفراهام السيجارة من بين أصابعها، وراقب الدخان يخرج من فمها ويرتفع صوب السقف.

ساد صمت لا يقطعه سوى أنفاس مَن تاق إلى الاجتماع بها منذ سنوات، إلا أن خضوعها المفاجئ له أربكه، لِمَ تطلق عليه الرصاص وتتركه ينزف حتى الموت ثم تمنحه نفسها الآن عن طيب خاطر؟

- ماذا تفعلين في سريري يا آبا؟

سألت نفسها السؤال نفسه فلم تجد إجابة تحفظ كرامتها. كادت تنهض عن سريره، لكنه جذبها قائلاً:

- أعدتِ تحبينني؟

- وهل استطعت أن أتوقف عن حبك؟ لست خائنة مثلك.

- أنا مخلص لكِ يا آبا. انتظرت عودتك إليّ تسع سنوات من دون أن ألمس أي أنثى خلقها الرب.

- ليست كل الخيانة معاشرة يا أفراهام. يكفي أنك خيبت ظني مرة تلو مرة. أنانيتك دفعتني لأن أحيا حياة لم أكن أتطلع إليها. لم أرد شيئًا إلا أن أكون زوجتك وأم أبنائك. انظر إليّ الآن، وحيدة أهيم على وجهي بمائة اسم ومائة هوية ومائة عدو.

اعتدل في جلسته، وقبّل كتفها وهو يهمس إليها قائلاً:

- كل هذا سينتهي قريباً. قائمة الاغتيالات التي أعطيتها لكِ كادت تنتهي.

- ومَن سيقتل الباقين؟ قتلنا جاسر، واليوم قتلت جريجور، وسفيان أهلك نفسه بغبائه، ومعنويات الباقين صارت محبطة، خصوصًا أن الحصول على السلاح أصبح شبه مستحيل.

- سأمدك بما تحتاجين إليه.

- يفكرون جديًّا في ترك المنظمة والتطوع في الجيش.

- إذن هذه فرصة عظيمة حتى ينقلوا إليكِ معلومات عسكرية

ستفيدنا في...

- ألا يكفي يا أفراهام؟ كنت سأفقد حياتي اليوم بسبب خطتك هذه!

- لقد اقتربنا كثيرًا من هدفنا يا حبيبتي. لم يبقَ إلا...

- أفق يا أفراهام! إن لم تلجأ إليك الجمعية اليهودية حتى الآن ويولوك منصبًا عسكريًا رسميًا بعد أن قتلت أهم قادتهم، فلن يلجأوا إليك أبدًا.

- لماذا تجادلينني يا ليليث؟

حملقت إليه بغضب، ونهضت عن السرير ترتدي ثيابها وهي تسبه وتلعنه قائلة:

- لا تقوى على أن تمر لحظة جيدة واحدة بيننا من دون أن تفسدها.

- إذن أنتِ تعترفين بأن هذه كانت لحظة جيدة.

- أحمق! مغرور! مختل!

- أرجوكِ لا ترحلي هكذا. لا أقدر على النهوض وملاحقتك، جرحي لم يلتئم بعد. فقط حدثيني.

- ماذا تريد؟

- ماذا ستفعلين بخصوص جريجور؟

- سأخبرهم بأنه جاسوس. دسستُ الفكرة بالفعل في عقل غيدا. سأذهب بالدماء على ثيابي وأقول إنه قادني إلى كمين صهيوني حتى أعترف على الرفاق، لكنني تمكنت من قتله وقتل الصهاينة.

أخرجت مسدسها من حقيبتها، وأفرغته من الرصاص، ووضعته بجوار طاولة السرير.

فتح أفراهام درجه وأخرج منه مسدسه، وقال:

- يمكنك أن تحملي هذا المسدس كأنك انتشلتِه من الضابط، حتى يعرفوا أن لك قيمة.

- يعرفون قيمتي جيدًا. لست بحاجة إلى إرشادك.

- حسنًا، ها وقد حللنا معضلة جريجور. ماذا عنا؟

- لم يعد هناك نحن يا أفراهام. لقد ساعدتك في خطتك الفاشلة وخاطرت بحياتي من أجل مجدك الزائف، لكن الأمر لم ينجح. يبدو أنك أنت الذي يجب أن يعطي شيئًا إلى الجمعية حتى يعرفوا أن لك قيمة.

ضغط على فكه بعنف، وهو يراقبها تضع مسدسها الفارغ في حقيبتها وترفض أخذ مسدسه، ثم نهضت لتخرج من الغرفة، ولكن أفراهام استوقفها فاستدارت لتسمعه.

- أتعرفين ما سيكون مقنعًا أكثر حتى يصدق رفاقك العرب أنك قتلت هذا الأرمني في كمين حقيقي؟

- ماذا؟

- إصابة.

أطلق من مسدسه رصاصة أصابت كتفها، فصرخت.

حدقت إليه ممسكة بكتفها، لا تصدق أن زوجها الذي كانت بين ذراعيه منذ دقائق قد أطلق عليها الرصاص بتلك السلاسة.

لعنته بكل اللعنات وألفاظ السباب الموجودة في اللغة العبرية واليديشية وحتى الألمانية، فقال وهو يشعل سيجارة:

- لا تضيعي وقتك في السب وأنت تنزفين، ما زال أمامك نصف ساعة من القيادة حتى تصلي إلى الخليل.

* * *

كان يرتشف قهوته في الشرفة المطلة على شجر البلوط الذي تتعانق أغصانه فتخفي الكوخ الصغير الذي يقيم فيه الرفاق بعيدًا عن الأنظار.

انضمت إليه غيدا تحمل طبقًا من العنب البارد الذي قطفته من تعريشة الدار، بعد أن وضعت طفليها في سريرهما، وتأكدت أن الخالة تمّام تغط في نوم عميق بعد ليالٍ من الأرق.

أكلت العنب في صمت وهي تراقب نجوم تلك الليلة القمرية الرائقة، حتى سألها إلياس وهو يأخذ منها عنقودًا:

- ما رأيك فيما قالته أمي اليوم بخصوص نايري؟
- لن تستحسن رأيي.
- كلي آذان مُصغية.
- أرى أن زواجك بنايري قرار أهوج وليد اللحظة، والنبتة التي لا يشقى الفلاح في زراعتها يخلعها أهون نسيم من جذورها.
- ولكن أمي ترتاح لها يا غيداء، أليس في هذا بشارة؟
- أمك ترتاح لكل مظلوم. لا أمانع أبدًا الترحيب بمَن يلجأ إلينا وإكرام مَن يقصدنا، ولكن كيف لي أن أُزوج أخي بمَن لا نعرف لها أصلاً وفصلاً؟
- وماذا تريدين من أصلها وفصلها يا غيدا ألا يكفي أن تعرفيها هي شخصيًّا؟
- «اللي ما بتنفعها خدودها بينفعوها جدودها». ستربط اسمها ونسبها بنسلك إلى الأبد هكذا من دون تفكير؟
- ألا يكفي أنها قريبة كيراز؟
- يكفي للجهاد وللنضال الوطني. ليست الزوجة المناسبة لك.
- لماذا؟ إنها مثالية، إن حكت بتبين وإن وقفت بتزين.
- إن وافقت على الزواج بك تكون ناقصة. أتكسرون الجرة يا إلياس؟ أي امرأة كريمة تلك التي تتزوج من بعد استشهاد زوجها؟ كيف تضمن أنها ستحفظ ذكراك إن استشهدتَ أنت؟
- تظنين أنني سأتمنى لها أن تبقى مكلومة ترثيني بعد استشهادي؟ هذا الجحود بعينه.
- بل هذا الإخلاص للحبيب ولقضيته التي دفع ثمنها بروحه. يبدو أن افتتانك بالأرمنلية أنساك أصولنا.
- لا أظن أن إدوارد كان ليفضل أن تمضي ما بقي من عمرك ترتدين الأسود وتبكين عليه كل ليلة. أنا وأمي لا نريد لكِ إلا السعادة حتى لو كانت مع زوج آخر، ما زلتِ في ريعان شبابك يا غيدا. ليس من الضروري أن تموتي بموت أخي.

اختلطت عيناها بلمعة دموع الحنين لزوجها وبالغضب من اقتراح إلياس بأن تفكر حتى في ظل رجل بعد زوجها الشهيد.
لطمت كتفه كما تفعل مع ميلاد الصغير كلما أخطأ، وقالت بنبرة حادة:
- الله يسامحك يا إلياس.
- وهل البحث عن الحب سُبة؟
- توقف عن تلك الصفاقة. لم يبقَ إلا أن آخذ نصائح حياتية من ساذج أرعن مثلك.
ضحك، ثم قبّل رأس ابنة عمه بتوقير ليصالحها، فقالت وقد تخطت غضبها منه سريعًا كالعادة:
- إن كان الزواج مرادك يا أخي، فسآتيك بعروس نعرفها وتعرفنا.
- أنا لا أريد الزواج بنايري لأنني أعزب يبحث عن عروس. لم تنفتح نفسي على الزواج إلا حين عرفتها. لم أتصور امرأة مثلها ولو في أعتى خيالاتي، ولكن ها قد جمعني بها القدر من دون مقدمات.
- يا حبيبي، الديار لا تُعمر بالافتتان والحب من أول نظرة. أتحسبها قادرة على خدمتك؟ على السهر على راحتك؟ هذه ستستيقظ من الفجر لتخبز لك وتعد لك حمّامك وتنظف ثيابك وتنجب لك من البنين ما يحفظ ذكرك وذكر أبيك؟
- أهذا مفهوم الزواج بالنسبة إليك يا زوجة أخي؟
- أللزواج مفهوم غير رجل مُحب وزوجة طيبة؟
- لا أبالي بزوجة طيبة يا غيدا. دعي الزوجات الطيبات للديار التي لا تعرف خطر التهجير والتشريد. الزواج التقليدي للزوج التقليدي، لا للفدائي الفلسطيني. أنا أغرمت بنايري لأن عتمتها تشبه عتمتي. سكنَت ظلامي فأقمت في ظلمتها. لقد جمعنا الأسى، ولهذا سيدوم حبنا لأنني أغرمت بمحاقها قبل أن أرى بدرها.
- إن فلسفتك الشاعرية تلك ستقودك إلى التهلكة. أنت تخاطر

بقلبك.

- لهذا يُسمُّونه الوقوع في الحب. إن قبِلت بي زوجًا سأكون أكثر الرجال حظًّا.

- وإن رفضت يا مسكين؟

- أكون على الأقل اختبرت حبًّا صادقًا.

- حسنًا يا إلياس، أنت مثقف ومتعلم وناضج بما يكفي لتعرف مصلحتك.

ملأ فمه بالعنب ومضغه مستمتعًا، ثم قال محولاً دفة الحديث:

- يا إلهي! ما أطيب هذا العنب.

- املأ فمك منه قبل أن يهودوه هو أيضًا.

سمعا صوت بوق سيارة طويلاً من دون تقطع يخترق صمت الليل.

خرج من الدار، رافضًا أن تخلفه غيداء تحسبًا لأي مصيبة.

جهَّز سلاحه، لكنه وجد سيارة جريجور بداخلها نايري على كرسي القائد ورأسها ملقى على المقود ويدها تضغط على بوق السيارة وهي في حالة إغماء شديدة.

ركض صوبها، فتح الباب فذعر من منظر الدماء والرصاصة، وإذ بها تخترف:

- كمين. جريجور خائن.

* * *

شعرت بيد حنون تمسك كفها، ففتحت عينيها لتجد إلياس جالسًا على كرسي غير مريح بالقرب منها.

شعرت بألم شديد في كتفها موضع الرصاصة، كأن الجرح كان ينتظر إفاقتها حتى يباغتها بهذا الوجع.

ابتسم لها ومسح على جبينها مبعدًا شعرها عن عينيها قائلاً:

- كابوس؟

- كالعادة.

- ماذا حدث؟

- جريجور قادني إلى كمين.
- جريجور؟ كيف؟ لطالما كان...
- الصهاينة هددوه بأن يقتلوا أباه، لذلك خضع لهم. أسلمني إليهم حتى أعترف بأسمائكم وعناوينكم. انظر إلى عنقي، حاولوا خنقي حتى الموت ورطموا رأسي بالحائط.
- يا إلهي! ليتني لم أتركك.
- أشكر الرب أنك لم تأتِ معي. ما كنت أحتمل رؤيتك تتعرض للأذى يا إلياس.
قبّل يدها فانتبهت للأنابيب المعلقة في ذراعها فسألته:
- أفقدت الكثير من الدماء؟
- أجل، ولكن فصيلتَي دمنا تطابقتا. مصادفة تشبه مصادفات الروايات الرومانسية.
- إذن، صارت دماؤك تجري في عروقي؟
- تمامًا كما يسري حبك في قلبي.
- أتحبني حقًّا يا إلياس؟
- من أعماق قلبي. في زمن كله دسائس وجواسيس وخونة، وجدت نفسي أضع فؤادي بين راحتيك من دون قلق. قبل أن أقابلك، كنت أحارب من أجل داري وشهدائي وكرامتي وماضيَّ، الآن صرت أحارب من أجل مستقبلك معي. صرتِ وطني وكفاحي وقضيتي يا نايري.
جذبته فمال إليها، وبادرها تلك المرة بالقُبلات.
أغوته هذه الليليث فذاب بين ذراعيها، وسقط في كمينها المعسول كما سقط آدم من الجنة.
بمجرد أن توقف عن تقبيلها، همست في أذنه بعشق لم يقوَ فؤاده على مقاومته:
- أريد أن أمضي ما بقي من عمري معك يا مقدسي. أريد أن أبني معك دارًا، أزرع معك حديقة، أنجب لك من الأولاد سبعًا يحملون

اسمك وملامحك وعاداتك. أريد أن أصير زوجتك يا إلياس.

مد يده نحو عنقه، وانتشل من أسفل قميصه خيطًا غليظًا مربوطًا فيه مفتاح كبير، خلعه عن رقبته وأعطاه لآبا قائلاً بلوعة:

- لا أملك شيئًا أغلى من مفتاح دار أبي حتى أعطيكِ إياه، عسى ألا يهجّر أولادنا أبدًا من الدار التي سنبنيها معًا.

٢١
تين الدوايمة

ريما الصغيرة تحب عمتها، نايري.

تحب شعرها الأحمر أسفل نور شمس النهار فيزداد توهجًا كبتلات الورد.

تحب أن تطلي لها العمة نايري أظافرها بالأحمر مثلها، ترسم لها شامة بقلم الكحل الأسود، ثم ترسم على خدها قلبًا بحمرة شفتيها.

أحبت ريما حلوى الحلقوم الأصفر الذي وزع على أطفال القرية يوم عرس خالها إلياس على عمتها.

أحبت تفاصيل ثوب الزفاف، كان نفس ثوب ستها تمّام الذي يتزين بغرزة التحريرة عند قبة الصدر بخيوط القصب والحرير السميك، وقد عدلت مقاسه ليناسب عود العمة نايري، ولفت خصرها بحزام الشملة الحريري.

أحبت ريما الجلوس في غرفة عمتها نايري لتراقب تمّام وهي تلبسها الثوب وتزينها بالحمرة، وتحنِّي قدميها وكفيها وتعطرها وتدهن سوالفها بزيت الزيتون، وتهديها خلخالها الذهبي وأساورها السليتات وتزين أذنيها بجوز التراكي.

أحبت ريما تفاصيل تلك الليلة المبهجة التي شهدت قرية الدوايمة كلها عليها.

الأهازيج وحلقات الشباب وهم يدبكون في حوش الدار ويغنون بردات الميجانا والعتابا والأوف، والنساء يزغردن وينطلقن بالمهاهاة حول العروس.

تحب إنشاد أغاني العرس الفلسطينية التي حفَّظها لها ميلاد هذا الصباح، فكانت تنشد مع أهل القرية بالعاليادي والدلعونا وظريف الطول.

أحبت التفاف الشباب حول عمها العريس، وقد تحمَّم في المير، وهم يغنون له طلع الزين من الحمَّام، ويزفونه إلى عروسه.

أحبت النور الذي زاد في وجه عمها بعد أن تزوج، ومقتت غيابه وخروجه إلى الجيش مع العم نصر الله.

تحب الأيام التي يعود فيها من محاربة الصهاينة الأشرار في منطقة الفالوجا، فيقضي إجازته في دار بسيطة وهبها مختار القرية لأسرتها ولأسرة نصر الله امتنانًا منه لبطولتهم.

تحب الجلوس مع جدتها وأخيها وأمها وأسرة العم نصر الله وهم ينصتون لعمها ولنصر الله وهما يقصان عليهم تفاصيل نصرهما.

تحب مشاهدة تعبيرات وجه عمتها، وهي تنصت بانتباه لكل تفصيلة يرويها عمها البطل، وكيف تسأل عن أنواع الأسلحة وأماكن معسكراتهم، فتنبهر ريما بمعرفة عمتها الواسعة بأنواع السلاح مثل الرجال.

تحب ريما أيضًا أن تخدع أمها وتستيقظ في منتصف الليل لتخرج من الغرفة، وتتسلل إلى الشرفة، وتنظر من النافذة لتشاهد عمها وهو يركض خلف عمتها في الحديقة يتضاحكان. كيف يحملها ثم يدغدغها حتى تكاد تموت ضحكًا فيقبِّلها، حتى تتوقف عن القهقهة وتوقظ أهل القرية.

تحب كيف يقطف لها ثمار التين في الصباح وينظفها بكُم قميصه ويطعمها إياها في فمها.

تحب كيف ينام على فخذ عمتها وهي تقرأ له رواية وتمسد شعره وهما يشربان المرمية ساعة المغرب.

تحب ريما أن تأخذ زجاجة زيت الزيتون لتدهن به ظهر العمة نايري الذي يؤلمها بسبب حملها، وتطعمها التمر والسفرجل، لتخلصها من غثيانها ووهنها اليومي.

تحب أن تتخيل أنها ستصير أخيرًا أختًا كبيرة وليست أصغر طفلة في الدار.

تحب أن تضع فمها على بطن عمتها، تحدث الجنين من سُرتها، ثم تلصق أذنها من المكان نفسه منتظرة أن تسمع رده.

تحب ريما أن تنام بجوار عمتها لأنها تفكر، ماذا لو أتى الصهاينة وهجموا عليها؟ مَن سيحمي أختها الصغيرة التي في بطن عمتها في غياب العم إلياس؟

تحب ريما غيرة أمها عليها، وهي تسألها، مَن تحبين أكثر؟ أمك أم العمة نايري؟ فتجيب ريما العمة نايري لإغاظة أمها ورؤيتها وهي تشهق وتضرب صدرها وتحملها وتركض بها وتدغدغها فتضحك.

تحب ريما الربيع، ولكن هذا الصباح كان خريفيًّا بامتياز، لأن أمها قالت لها إن تشرين الأول هو ثاني أشهر الخريف وأكثرها ريحًا.

تكره ريما الخريف، تكره ذبول الزهور واصفرار الأشجار وصفير الرياح وغيوم السماء.

مع ذلك، كانت سعيدة لأن اليوم هو الجمعة، وفي كل جمعة يأتي العم إلياس ليقضي معهم ليلتين.

خرجت من الدار تلعب مع شقيقها ميلاد وأولاد شقيقة نصر الله وطفلته فاطمة التي كانت تتمرن عليها لأداء دور الأخت الكبرى.

كان العم نصر الله موجودًا، فإجازته تسبق إجازة العم إلياس، لذلك قضى الأولاد أطول وقت ممكن في الحديقة حتى يتركوه ينام في هدوء.

استيقظ نصر الله، وتناولوا الفطور جميعًا، ثم ذهب إلى المسجد ليؤدي صلاة الجمعة، فذهبت ريما وميلاد مع غيدا وأم فاطمة إلى دار زوجة المختار لزيارتها ككل جمعة، ليلعب الأطفال في حديقتهم الغناء.

المختار أيضًا لديه شجرة تين، تسلقتها ريما وأخذت تترنح وتتأرجح بين فروعها، على الرغم من أن أمها حذرتها مائة مرة من هذه العادة، ولكنها متمردة ككل أفراد أسرة آل المقدسي.

تحدت شقيقها أن يصعد إلى فرع أعلى منها، فقبِل التحدي، صعد

إلى أعلى فرع تمكن من الوصول إليه، ومنه رأى مشهدًا جرده من عفوية اللحظة.

مدرعات الصهاينة تقترب من القرية.

* * *

دخل نصر الله مسجد الدراويش ليصلي الجمعة.

كان بالمسجد قرابة السبعين شيخًا، فأغلب شباب القرية إما تطوعوا مع الجيش المصري في الفالوجا، وإما خرجوا للمقاومة في الجبال.

لم يجد سوى شاب واحد يرتدي زي الجيش المصري يتكئ على حائط المسجد، وهو يستغرق في التأمل في صورة صغيرة قبل ميعاد الخطبة.

استغل نصر الله وصوله المبكر، فصلى ركعتين تحية للمسجد، وفي أثناء ذلك، سقط مفتاح داره بحيفا الذي يعلقه حول عنقه بحبل سميك.

أخذ المصري المفتاح وانتظر نصر الله حتى ينهي صلاته، ثم قدمه له قائلاً:

- لقد أسقطت هذا المفتاح يا أخ.

أخذه منه بامتنان، وأعاد ربطه بإحكام وهو يسأله:

- الأخ مصري؟

- نعم، أنت من أهل القرية؟

- ضيف عليها حتى أعود إلى داري في حيفا.

- الله يرد لكم حقكم. ولكنك تعرف القرية هنا جيدًا؟

- تبحث عن شيء بعينه؟

- أريد أن أشتري هدية لابنتي الصغيرة، فغدًا إجازتي وقد سمعتُ أن القرية هنا تقيم سوقًا كل جمعة.

- إنها سوق البرين، تقام كل أسبوع على أرض بيادر القرية. سآخذك بنفسي حتى نختار هدية تليق بابنتك بعد الصلاة. كم عمرها؟

- ستتم عامها التاسع بعد الغد.

تحمس الجندي المصري، فعرض عليه الصورة التي كان مستغرقًا في تأملها قبل دخوله.

كانت صورة لطفلة سمراء، عيناها فاتحتان وشعرها مجدول في ضفيرتين مسترسلتين على كتفيها، تقف فيما يبدو أنها دار وليس استوديو بسبب أثاث غرفة الأطفال المحيط بها، ومن خلفها لوحة زيتية مريبة لطفل، عيناه بيضاوان مطموستان، ويرتدي قميصًا صيفيًّا أسود، تجاوره دمية صهباء مفقوءة العينين وخلفهما باب زجاجي منطبعة عليه كفوف دامية مريبة.

قال الأب متجاهلاً الرسمة المربكة في الخلفية، وأشار إلى طفلته بديعة الجمال:

- هذه وحيدتي شويكار. جعلت جارنا المصور يلتقط لها تلك الصورة قبل أن أخرج إلى الحرب حتى تبقى في جيبي بجوار قلبي إلى أن يأذن الله لنا بالنصر وأعود إليها مرفوع الرأس.

- ما شاء الله، بتقول للشمس غيبي تاقعد مطرحك.

- يسلم ذوقك يا أخي. لم أعرف اسمك؟

- نصر الله المسلماني.

- فليجعل الله لنا نصيبًا من اسمك وينصرنا على هؤلاء المجرمين. اسمي جلال عبد الحي.

تصافح الرفيقان في القتال، ثم ظلَّا يتجاذبان أطراف الحديث عن ثكناتهما والسلاح المنتمين إليه في الجيش، حتى أتى وقت الخطبة.

أنصت الرجال لشيخ المسجد المسن صاحب الصوت العذب واللسان الذي باركه الرب بالبلاغة والحق. ذكرهم بنصر صلاح الدين على الصليبيين واسترداده للقدس، وانتصار سيف الدين قطز على المغول في عين جالوت.

ذكرهم بأن القدس اختطفت من العرب مرات ومرات، لكن في كل مرة كان ينبثق من ظلام الهزيمة بطل، يجعل الله في سيفه نورًا يسترد

به حق العرب والمسلمين.

أمَّنوا وراءه على كل دعوة دعاها، لان صوته مع ذكر الشهداء السابقين، واغرورقت الأعين بالدموع عند التفكير في الشهداء اللاحقين، ورفعت الكفوف للسماء يرجون النصر والمجد للأرض المقدسة.

أقام الشيخ الصلاة، تراص المصلون، رفعوا أيديهم حتى آذانهم مرددين «الله أكبر».

جاء وقت الركوع، سمع نصر الله صوت رصاص، صريخ، ضجة غير عادية تقترب.

سمع المصلون المسنون ما سمعه نصر الله، ولكن لم يهتز أحد منهم بمن فيهم الشيخ الذي كبَّر.

ردد المصلون من خلفه، وأدركوا صوت البيادات تقتحم باب المسجد من خلفهم، فقال الإمام بثبات:

- الحمد لله الذي أحسن خاتمتنا وأماتنا شهداء في بيته المبارك.

فتح الصهاينة نيران رشاشاتهم على المصلين العُزل.

قلت الأصوات المرددة للتكبير خلف الإمام مع تزايد أزيز الرشاشات داخل المصلى.

اقترب الرصاص الغادر من صف نصر الله حتى شعر بالمصري جلال عبد الحي يسقط بجواره بعد أن اخترقته رصاصة ليموت قبل أن يبتاع هدية لعيد ميلاد صغيرته شويكار.

استأنف نصر الله صلاته هامسًا: «سمع الله لمن حمده».

سجد وهو يحمد ربه أنه في خلال ثوانٍ سيكون على ميعاد مع عمَّار الذي اشتاق إليه فؤاده.

اخترقت الرصاصة رأسه فبعث ساجدًا، جبينه على الأرض وأنفه يلامس سجاد المسجد المعطر بالمسك.

* * *

لأول وهلة، حسبت تمَّام نفسها تحلم، وأن صوت الرصاص

والصراخ هذا مؤثرات صوتية لمنامها، لكنها انتفضت على رعشة ورجة أصابت الدار.

نظرت من نافذة الغرفة، فوجدت الصهاينة يخترقون القرية بمدرعاتهم ورشاشاتهم التي ثقبت جدران الديار، والنساء يركضن ويصرخن ويولولن على بعولهن.

إنه السيناريو نفسه يُنفذ في الدوايمة، كما نفذ في قريتها سابقًا.

ركضت في الدار تبحث عن أسرتها، فلم تجد سوى آبا تهرول وهي تضغط على بطنها بألم.

أمسكت تمّام بيدها وهي تسألها:

- أين الأولاد؟

- ما زالوا عند دار المختار.

أخذتها وخرجت بها من الدار، لن تنتظر الصهاينة حتى يقتحموها ويقتلوا مَن بها.

سارتا في القرية ترتطمان بأكتاف الأهالي المذعورين وتهرولان بين الجثث الملقاة على جانبَي الطريق.

النيران تأكل الديار، الرصاص يئز من كل دار مرتا بها، وكل نافذة دار تطل على جثة صاحبها، ثم كانت الفاجعة الكبرى حين رأت النيران والدخان يخرجان من دار المختار المنسوف.

ناحت الخالة تمّام وولولت وفشلت آبا في تهدئتها حتى ارتطمت بهما شابة تحمل على ذراعها طفلاً، قالت لهما:

- النساء يختبئن في الكهف.

بالكاد تمكنت آبا من أن تسند الخالة تمّام وتتوجه معها إلى المغارة التي كانت تؤوي أربع عشرة أسرة ترتجف وترتعد مع أزيز كل رصاصة وصريخ كل ضحية بالخارج.

تلاصقت النساء، وعانقت الخالة تمّام زوجة ابنها وهي تلعن الصهاينة على ما فعلوه بدار المختار، فقالت الشابة التي دلتهما على الكهف:

- يا خالة لا تخافي، لقد نسف الصهاينة الدار بعد أن أفرغوها ممن فيها.

انفرجت أسارير وجهها فور أن أدركت أن غيدا وحفيديها سلموا من الموت، وأخذت تصلي لربها شكرًا.

نهضت تقول لآبا إنها ستخرج لتبحث عن حفيديها، ولكن ما منعها عن تنفيذ خطتها هو صدى صوت البيادات العسكرية التي وشت عن ولوج أصحابها الصهاينة إلى الكهف.

دخل الجنود يحملون رشاشاتهم المصوبة تجاه الأطفال والنساء، وقال أحدهم بعربية ركيكة:

- أين نايري برطميان؟

ساد الصمت بالكهف، تعجبت آبا من أن أحد جنود قومها يناديها باسمها المستعار، ولكنها شكت في أمر ما، فكادت تنهض لتسلم نفسها إليهم، لكن الخالة تمّام جذبتها بشدة وتقدمت أمامها تقول:

- أنا نايري.

- اجلسي يا ختيارة!

تخطاها الجندي، وجذب آبا من ذراعها لتخرج معه.

دفعته الخالة تمّام وهي تقول بصوت علا عن أزيز الرصاص:

- ألا تستحي! تهجم برشاشك على نساء لا يحملن سوى أطفالهن؟ كل هؤلاء الرجال في مواجهة امرأة واحدة؟

- اتركيها.

- ترك رأسك كتفيك! الدار وأخذتموها، الأرض ونهبتموها، رجالنا واعتقلتموهم، وأولادنا وقتلتموهم. ماذا تريدون الآن من ابنتي وجنينها يا أولاد إبليس؟

صفعها الجندي بقسوة أسقطت عنها حلقها.

شهقت النساء واستنكرن حقارة الموقف، ولكن أم إلياس لم ترتد ولم تتراجع، لم تترك ذراع آبا.

فارت الدماء في عروق الشابة التي دلتهما إلى الكهف، فخلعت

نعلها وألقتها صوب الجندي وهي تصرخ فيه ورضيعها على صدرها:
- تبت يدك يا ابن الكلب!
التقطت أخرى حجرًا وألقته صوب الجندي فأصابت رأسه.
كل امرأة انتشلت ما طالته في الكهف وكن سينقضضن على الجنود ليفتكن بهم، لكن أتى من الظلام صوت رجل لم تره آبا ولكن تحفظ نبرته عن ظهر قلب.
أمر الآتي من الظلام جنوده بالعبرية:
- أطلق!
قابل الصهاينة الحجارة والطوب برصاص رشاشاتهم، مطلقينه على كل من بالكهف أولهن الخالة تمّام التي تلقت رصاصة في رأسها فتناثر دمها على وجه آبا التي كانت تبقيها خلف ظهرها لتحميها.
أربع عشرة أسرة لم ينجُ فرد واحد منها ليرتقي كل مَن بالكهف شهيدًا فيما عدا آبا، بقيت واقفة أمام الجندي، لا تنطق وهي ترى كل مَن دافعن عنها غارقات في دمائهن.
لم تشعر بشيء سوى يد تجذبها خارج ظلمة الكهف وبعيدًا عن الموت الذي خيم عليه.
جذبتها يد تعرف ملمسها وقبضتها جيدًا. كانت يد أفراهام التي أشارت إلى الجنود كي يقتلوا النساء.
خرجت من ظلمة الكهف إلى جحيم القرية، الجثث ملقاة في كل مكان، الديار تنسف، الجثث تحرق، رؤوس الأطفال تهشم بالعصي، النساء يُنتَهكن في غرف نومهن.
ضربتها الفاجعة، فسارت بغير هدى تعتمد على توجيه أفراهام لخطواتها من دون أن تتحدث حتى التفت إليها، وسألها بقلق حين أطالت الصمت:
- ماذا بكِ؟
- ما الذي تفعله هنا؟
- أجني ثمار كفاحي. بنيامين ولاني قيادة هذه الفرقة.

- لماذا لم تخبرني؟

- تلومينني لأنني لم أخبرك عن منصبي الجديد وأنتِ تحملين طفلي منذ أشهر من دون علمي؟

لم تعلق، فاقترب منها ووضع يده يتحسس بطنها:

- ما قالته تلك الخرفة حقيقي أم أنها كانت تستجدينا حتى لا نقتلها؟

- هل بدت لك كمن يستجدي ويتوسل؟

- أنتِ حقًّا حامل؟

انفرجت أسارير وجهه، وعانقها بلهفة وهو يقول بحماسة:

- سأصير أبًا!

همست إليه بنبرة شامتة:

- ليس ابنك يا أفراهام.

نظر إليها مستفهمًا، لكنه أدرك أن جنوده يسترقون السمع لحديثهما.

قبض على ذراعها بعنف وجذبها خلفه كالبهيمة، حتى دخلا أقرب دار من الكهف، وانسلَّا إلى غرفة النوم.

كانت غرفة بسيطة مكونة من خزانة ثياب مقابلة للحائط، وعلى اليسار سرير يرتفع عن الأرض بضعة سنتيمترات.

دفعها نحو الحائط موليًا ظهره للخزانة وصاح:

- ماذا تقصدين بليس ابني؟ لقد أمضينا ذلك اليوم معًا و...

- لم أحمل منك في هذا اليوم. حملت بعدها بشهر من إلياس.

تسمَّر في مكانه، لم يحرك سوى عينيه اللتين تأرجحتا يمينًا ويسارًا في محاولة للتعافي من القنبلة التي ألقتها عليه.

- هذا البربري اغتصبك؟

- تزوجني.

- رغمًا عنك؟! أنا أعرف العرب، لا يحترمون رغبة النساء ولا...

- أنا التي طلبت منه أن يتزوجني.

استدار وولى وجهه صوب خزانة الثياب، لم يردها أن تراه وهو فوضوي الأفكار مبعثر المشاعر هكذا، لكنه لم يقدر على التماسك. جثا على ركبتيه أمامها، وأحاط خصرها بذراعيه، وأسند ذقنه إلى بطنها وهو يبكي قائلاً:

- لا يا آبا! مستحيل أن تعاشري رجلاً غيري! تقولين هذا فقط لإغاظتي. قولي إنكِ تكذبين، وإنك تحبينني، وإنك حامل في ابني أنا. قولي إنك لم تفعلي هذا بي.

- بل فعلت يا أفراهام، وعن طيب خاطر.

في هذه اللحظة فقط، رأى فيها وجه أمه التي ذاع صيت خيانتها لأبيه في أنحاء فلسطين من شرقها إلى غربها.

نهض على قدميه، وقرر أن يريها قوته كما أراها ضعفه.

صفعها بقوة أسقطتها على ركبتيها أمام خزانة الثياب التي لم تكن مغلقة جيدًا، فرأت فيها ريما تختبئ وتشاهد ما يدور من تلك الفتحة الصغيرة.

لم تُبدِ أي تعبيرات حتى لا تلفت نظر أفراهام إليها، ترجتها بنظراتها فقط ألا تصدر أي صوت.

جذبها أفراهام من شعرها فاستسلمت إليه. صفعها صفعات قاسية متتالية حتى نزف أنفها وشقت شفتها وطغى طنين سخيف على أذنها اليسرى.

سقطت على الأرض، ظهرها مرتخٍ على الحائط، فنظرت إليه بغضب ومرارة حملهما فؤادها تجاهه لسنين.

كان سيصفعها مرة أخرى لكنه تراجع، لكم باب الخزانة فزادت ضربات قلب آبا، خافت أن يرى ريما.

صاحت فيه وهي تلهث:

- هل اكتفيت؟ انتقمت مني ومن أمك؟

عاد إليها وركل صدرها بغلٍّ، فشهقت وشعرت بأن النفس خرج منها ولم يعد.

عاد الهواء إلى رئتيها ببطء، فلهثت وهي تتابع أفراهام يخرج مسدسه من حزامه.

ضحكت ضحكة خافتة، ثم رفعت رأسها وقالت مستهزئة:

- ستقتلني يا أفي؟

- سأعطيكِ فرصة أخيرة.

جذب آبا من ثوبها بعنف لتنهض، فوقفت ثم فتح خزانة الثياب وجذب منها ريما التي علم بوجودها في الداخل منذ أن وطئ هذه الغرفة.

ركضت ريما صوب عمتها، عانقتها واضعة رأسها على بطنها وهي تبكي مذعورة.

أخرج مسدسه الثاني، شد أجزاءه، ثم أعطاها المسدس الأول وهو يقول:

- أثبتي لي الآن أن ولاءك لنا، وأن زواجك بهذا العربي كان لإغاظتي وليس لأنك أحببته وانقلبت علينا.

- لن ألطخ يدَي بدم طفلة.

- ألا تظنين أن الأوان قد فات على ذلك؟ كل من في هذه القرية سيموتون.

- لست السبب.

- كنتِ تعرفين أن اليوم هو ميعاد عملية يوآف ومع ذلك لم تنبهي أحدًا، ولا حتى تلك العجوز التي ضحت بحياتها من أجلك، صحيح؟

فرت الدموع من عينَي آبا، فقال أفراهام:

- كعادتك، تقتلين ثم تبكين.

- اترك الصغيرة تذهب إلى أمها. لا تعرف العبرية، فلن تشي بنا.

- من قال إنني أبالي بكشفك. مهمتك انتهت بين العرب، ستذهبين معي إلى تل أبيب.

دفعها بعنف فتمسكت بها ريماء حتى التصقت آبا بالحائط.

ضغط أفراهام فوهة مسدسه نحو جبين آبا، فقررت ريما أن تنفذ ما وعدت عمتها به في كل ليلة نامت فيها بجوارها، ستحميها وجنينها من الصهاينة.

حاولت أن تستخدم جسدها الضئيل لتشكل حاجزًا بين عمتها الحامل وهذا الدخيل المعتدي وتدفعه عنها بكفيها الصغيرتين وهي تصيح فيه:

- اترك عمتي يا شرير! لا تؤذِ أختي!

شاهد أفراهام محاولات الجسور الصغيرة فقال:

- أتخيل ما ستفعله بكِ حين تكبر وتدرك أنك أحرقتِ قريتها وقتلت أهلها وشردتها.

- توقف!

- إنها فدائية المستقبل. اقتليها اليوم أو اتركيها تكبر وتقتلك غدًا.

نظرت آبا إلى البطلة التي تحاول الدفاع عنها بكل ما أوتيت من قوة، ثم نظرت إلى عينَي أفراهام.

تعرف زوجها، تعرف أنه لا يراوغها بتهديداته، سيطلق الرصاص على رأسها حقًّا إن لم تقتل ريما.

مدت يدها نحوه وبسطت راحتها، فوضع عليها المسدس، لكنه أبقى فوهة مسدسه الثاني ملتصقة بجبينها.

قالت آبا بالعربية لريما:

- ريما، حبيبة عمتك. لا تخافي. لقد أقنعتُ هذا الشرير أن يتركنا نرحل، ولكن لديه شرطًا، عانقيني وأغمضي عينيك، حضني سيكون آمنًا.

توقفت ريما عن دفع أفراهام ومقاومته، أعطت له ظهرها وولت وجهها إلى عمتها التي وعدتها بالأمان.

أغلقت الصغيرة عينيها، مسدت آبا شعرها، ثم وضعت فوهة مسدسها فوق أذنها وأطلقت رصاصة اخترقت رأسها.

شعرت آبا بجسد ريما يثقل، غريب أن الجسد يصير أكثر ثقلاً حين

تغادره الروح!

لم تفلتها من يديها، ظلت تضم جثتها إليها والدموع تسيل من عينيها وهي تنظر إلى أفراهام.

أخذ منها مسدسها وأعاده إلى حزامه وهو يقول مستهزئًا:

- للحظة، ظننتك ستطلقين الرصاص على رأسي أنا!

جذب آيا من ذراعها بعنف، فتركت جثة ريما تسقط على الأرض بالقرب من قدم السرير، ثم خرجا من الدار.

تعرف بشاعة ما فعلت، تعرف دناءة قرارها، تعرف عار ما ارتكبته، ما لم تعرفه هو أن ميلاد كان يختبئ أسفل السرير.

لقد فرت أمه بهما وبفاطمة وأمها من دار المختار قبل أن تقصف، ودخلت أبعد دار عن أطراف القرية وخبأته هو وريما أسفل السرير وأمرتهما ألا يتحركا حتى تذهب مع أم فاطمة لإيجاد الخالة تمّام وباقي الأسرة.

نفذ ميلاد أمر أمه حتى سمع صوت عمتهما نايري تدخل الدار فاندفعت ريما تركض لتلاقيها.

ميلاد كان سيلحق بها، لكنه تراجع حين لمح بيادة على أطرافها رذاذ دماء، فشعر بالخطر، وعرف أن لا خير يأتي من وراء تلك البيادة، خصوصًا أنه سمع صاحبها يتحدث بلغة اليهود.

أشار إلى شقيقته أن تختبئ في الخزانة لأنه لم يعد هناك وقت لتعود أسفل السرير قبل دخول صاحب البيادة الدامية إلى الغرفة.

هكذا رأى العمة نايري تقتل شقيقته، شقيقته التي سقطت جثتها على الأرض، رأسها في مستوى رأسه، ودماؤها تسيل في بركة اتسعت حتى وصلت إلى أنف شقيقها الذي جمده الذعر في مكانه، فالصغير كان أكثر براءة من المأزق الوحشي الذي تورط فيه.

لم يتحرك، لم ينطق، بل بالكاد تنفس.

لا يدري كم مر من الوقت وهو يحدق إلى ثقب الرصاصة الذي في رأس شقيقته، كم دارًا حُرِقت، كم رجلاً أعدم، كم امرأة وطفلاً

قتلا، كم عجوزًا أصيب برصاص وهو يصلي، كم جثة تفحمت وكم جثة أخرى ألقيت في بئر القرية وهو ما زال أسفل السرير متيبس الأطراف.

بقي على هذه الحالة حتى سمع صوت أمه وعمه إلياس يدخلان الدار ينادیانه هو وريما ومع ذلك لم ينطق.

رأى قدمَي أمه مخضبتين بالدماء وحذاء عمه إلياس متسخًا بالطين، وكلاهما يسير في الغرفة حتى توقفا عند جثة ريما.

سمع أمه تصرخ وتنوح على موت صغيرتها وهي تحمل جثتها وتضعها على صدرها، وسمع عمه يئن ويبكي، ثم رآه ينحني وينظر إلى أسفل السرير.

قال إلياس كأن هذا أمله الوحيد:

- ميلاد! ميلاد حي يا غيدا.

حمله من أسفل السرير، كان بدنه الضئيل باردًا ومتعرقًا، وقد شخص ببصره وجحظت عيناه لأقصاهما كمن خرج من فك الغول.

عانقه إلياس، فبكى ميلاد على كتفه، ثم انتشلته أمه ووضعته على صدرها بجوار جثة أخته وهي تسأله باكية:

- أنت بخير يا يُما؟

- ريما، ريما.

- أعرف. أعرف، يا يُما. لا تقلق، إنها سبقتنا إلى أبيك.

انفطر قلبها من البكاء وظلت تُقبّل جبين ابنتها ووجنتيها وأنفها وكتفيها وكفيها وقدميها، وتملأ أنفها من رائحتها البريئة.

لم يتوقف إلياس عن البكاء وهو يعانق ميلاد ثم سأله:

- أين عمتك نايري؟

- أبراهام.

نظر إليه إلياس، وقال وقد هدأ بكاؤه ليفهم:

- مَن؟

- ذهبت مع أبراهام.
- تقصد أفراهام؟
- أفراهام.
- أفراهام حي؟ هو الذي قتل ريما؟
هز ميلاد رأسه نفيًا، ثم قال:
- العمة قتلت ريما.
قالت غيدا لميلاد وقد حشرج النواح صوتها:
- نايري هي التي قتلت ريما يا يُما؟
- ليس اسمها نايري، أفراهام كان يناديها آبا.
نظرت غيدا إلى إلياس نظرة لن ينساها ما حيّ. نظرة تقول له أدخلت جاسوسة صهيونية إلى دارنا قتلت ابنتي على الرغم من أنني حذرتك منها.
نهضت غيدا تحمل ريما وتمسك بيد ميلاد، وتركت إلياس يجاهد ليستوعب فداحة ما اكتشفه.
سارت في القرية مع ضوء الفجر بعينين أطفأت الدموع بريقهما. ميلاد متشبث بطرف ثوبها يسير معها بين ركام وأطلال قرية كانت مصنع الرجال منذ أن بدأ النضال الفلسطيني الوطني ضد المستوطنين.
قبّلت رأس ريما، وهمست في أذنها بكلمات التهويدة التي كانت تحب النوم عليها:

نِنا ياما واشبعي نوم
هادا المقدر وهو مكتوب ع القوم
نامي وأدبح لك جوز حمام
يا حمام قول له لا تخاف
ريما متحنية تحت اللحاف
نِنا ياما واشبعي نوم

سالت دموعها، فقبلت ريما وأكملت هدهدتها بين ذراعيها لتحمل

جثة ابنتها، كما حملت الخالة تمّام جثة ابنها من قبلها.

ريما الصغيرة أحبت عمتها نايري.

ريما الصغيرة قُتلت على يد عمتها، آبا.

٢٢
ليليث تل أبيب

اسمها الحقيقي هو أبَدون دوليف ليتمان.

هذا الاسم كان سببًا إضافيًّا دفعها إلى كراهية أبيها، فمن بين جميع الأسماء اليهودية الأشكنازية، لماذا اختار أن يكون اسم مولودته الأولى هو المرادف العبري لكلمة الهلاك؟

سألته هذا السؤال بعد أن تنمرت عليها فتاة سخيفة في الكنيس، فأجابها وهو يدخن غليونه بتؤدة كما اعتاد شارحًا لها أن أبَدون في الأصل تعني الكهف الذي يعتكف فيه طالبو الأسرار المقدسة الإلهية في عزلة عن العالم الخارجي، ولكن لأن المتطرفين آنذاك كانوا يخافون أي تجمع سري يلتقي فيه العقل مع القلب شوهوا معنى الكلمة، وجعلوا الخلوة الروحية الخارجة عن الجماعة مرادفًا للهلاك.

لم تقبل بهذا التفسير، ولم تسامح والدها على سفسطته التي جعلت من اسمها مصدر سخرية لكل فتيات الحي حتى اختصرت اسمها إلى آبا.

ربما كرهت أباها بسبب اسمها وبسبب انتقاده الدائم لتعصبها اليهودي وفكرها الصهيوني، ولكنها على الأقل تدين له بزرع حب القراءة فيها، فبينما اكتسب إيلي ذكاءً عاطفيًّا وتعاطفًا إنسانيًّا من القراءة، اكتسبت هي ذكاءً لغويًّا وقدرة فائقة على اختلاق الأكاذيب.

هكذا تقول لأفراهام، ما من جاسوس أفضل من قارئ خياله واسع، فمثلاً تلك الشخصية التي اختلقتها لتخترق المقاومة الفلسطينية، كانت حكايتها هجينًا بين ماضي آبا الصهيونية ونايري ألبون برطميان الأرمنية.

على سبيل المثال، آبا حقًّا فقدت ابنيها التوأمين إبان أحداث ليلة الكريستال في برلين، في أثناء محاولتها وأفراهام الهرب من كنيس

فاسانينشتراسه الذي هجم عليه النازيون ودنسوه.

في صباح اليوم التالي كان قد هرب أفراهام بمساعدة العم أزاد برفقة إيلي إلى الولايات المتحدة الأمريكية من دون آبا وفقًا لتعليمات الجمعية اليهودية.

آبا حقًّا اختبأت من النازيين الذين فتشوا عن كل اليهود المنتمين إلى الجمعية اليهودية بعزيمة محمومة، حتى عثروا عليها في شقة نايري مختبئة بين الجدران خلف بيانو ستينواي أسود.

آبا حقًّا اعتُقلت ليلتها، نُكل بها، أُهينت، عُذبت، أمضت ليالي تقف من دون جلوس، أُحرق ظهرها، أُخمدت السجائر في صدرها، ثم جلدوها، ولكن على عكس ما زعمت به أمام إلياس فهي لم تفتدِ أحدًا، بل وشت بأسماء كل أعضاء منظمة هايك الذين يؤوون اليهود في ديارهم، وأولهم صديقة عمرها نايري وزوجها.

آبا حقًّا عاشت في مصر كما قالت لأيوب، ولكن ليس لأنها كرهت برلين وكرهت الحرب وودت أن تبدأ بداية جديدة، بل لأن بعد هروبها من معسكر اعتقال نازي، كلفها بنيامين عزلماني بأن تخترق صفوف اليهود المقيمين في مصر، وترسل تقارير مفصلة عنهم إلى الجمعية اليهودية.

كل شر في حكايتها كان حقًّا مقتبسًا من حياتها، أما الخير والشجاعة فقد استعارتهما من حياة نايري.

مذابح الأرمن، مقتل أسرتها في حريق قريتهم على أيدي عباس ومراد باشا، تنظيم عمليات اغتيال ضد الباشوات الذين فروا من العدالة، اغتيال زوجها، كلها تفاصيل مسلوبة من تاريخ ليس تاريخها.

لم تحبك شخصيتها فحسب، بل سطرت خطة اندساسها وسط المقاومة ببراعة وقف أفراهام عاجزًا أمامها.

كانت تعرف كل شيء عن إلياس من أفراهام، تعرف أنه رأس الحربة للمنظمة، وأنه ابن الرجل الذي ضحى بحياته مقابل استرداد كتبه، فحبكت تفاصيل مشهد تقديمها له.

تحضُر في ليلة أخبرها عابد بأنه سيكون فيها وباقي الرفاق في المطعم، تجلس إلى طاولة قريبة منه، تقرأ أمامه كتاب أبيه، تحرص على أن يسمعها تروي قصة مشابهة لقصته؛ قصة فتاة صديق أبيها غدر به وشرده من داره ثم قتله، قصة فتاة تسعى للانتقام لعظام أجدادها مثله، قصة فتاة تشغل وقتها بالقراءة بين عملية فدائية وأخرى.

نصبت الشَّرَك المثالي الذي استدرجت به عاطفة إلياس، تلك العاطفة العربية التي جعلت الرفاق كلهم يتبنون قضية تلك الفتاة التي بدت لهم أبية صاحبة عِزة ونضال.

لم يسقط العرب العاطفيون وحدهم ضحية لآبا، بل كانت تريد أن تضمن الأرمن مثلهم، لذلك نفذت عملية عباس باشا في حيفا حتى تقنعهم لآخر لحظة أنها حقًّا امرأة في مهمة قومية، وليست مجرد دخيلة جمعتهم المصادفة بها.

كل ما ظنه الرفاق تصرفات من بنات أفكارهم، كان سيناريو معدًّا سابقًا من قِبل آبا وأفراهام.

المعلومات التي كان يمررها إيلي إلى كيراز، كانت معلومات يتعمد أفراهام ذكرها أمامه حتى يحقق انتقامًا شخصيًّا من معارضيه من القادة اليهود.

تفجير قصر يوسي، كان اقتراحًا من اقتراحات آبا، رحب به أفراهام وعدل تفاصيله مع زوجته، بل إنه ساعدها بنفسه على زرع القنبلة في البيانو، وعلى تدوين بعض الملاحظات للرفاق لصنع القنبلة المثالية.

كان يعلم أن العرب سيرسلون إليها المتفجرات عن طريق أحد أفراد المقاومة، لكنه لم يكن يعلم أن إيلي متورط معهم، حتى وإن حاولت آبا أن تغطي على أخيها وتوهم أفراهام أنها استلمت المتفجرات على الشاطئ من غيدا. في تلك الليلة أدرك أفراهام أن إيلي ذهب في طريق لا رجعة منه، فقد وصل الأمر إلى أنه خاطر بتسليم المتفجرات لها بنفسه، وأن كيراز يثق به إلى درجة أنه سيورثه شرائط الصور التي

ستفضح كذبة اليهود المستوطنين.

تلفيق محاولة اغتيال أفراهام كان بالاتفاق مع آبا، حتى لا يشك أفراد الجمعية في سبب نجاته من انفجار القصر، كان سيقول لهم إنه أتته إخبارية أن أحدهم يحاول اقتحام داره في القدس، فذهب إلى هناك ليجد أحد أفراد المقاومة وقد أطلقوا عليه الرصاص وأنه كان كمينًا لقتله.

بالفعل زيف مشهد الاعتداء بأن أطلق رصاصات عشوائية على المزهريات، ثم كان سيطلق رصاصة على كتفه ثم يتصل بالإسعاف ليحبك الحكاية، ولكن آبا دخلت عليه وواجهته بقتله لأخيها ثم أطلقت عليه الرصاص.

يعرف أنها لم تكن تريد قتله، وإلا لأصابت رأسه وأنهت حياته.

سلسلة الاغتيالات ضد الصهاينة التي تلت تلك الليلة كانت بعلم أفراهام ورضاه، فقد راجع قائمة المستعربين بنفسه حين اقتحم مكتب يوسي سرًّا في أثناء إقامته بالقصر.

كان سيعطي لآبا نسخة ويعفيها من مخاطرة التسلل إلى المكتب في أثناء الحفل، ولكن حين رآها تكذب لتغطي على أخيها، لم يبالِ بسلامتها. قرر أن يتركها تحاول سرقة القائمة بنفسها، لو كانت مخلصة للخطة، ستجلب القائمة إليه كما اتفقا، وإن كانت تراوغه وتنوي بيعه للعرب، فلتقع في فخ الإنذار ويمسك بها حراس يوسي.

هكذا نفذ الزوجان خطتهما من دون أي عراقيل بفضل محاولة نايري الفاشلة لاغتيال آبا في القاهرة.

وقتها، لم تكن آبا تعلم أن نايري عرفت أنها وشت بأعضاء منظمة عمها، وقدمت رؤوس مَن حموا قومها على طبق من فضة للنازيين.

لم تكن تعرف أن نايري شخصنت هذا الثأر وأخذته على عاتقها، إلى درجة أنها قررت أن تطلق بنفسها الرصاص على آبا، على الرغم من أنها ممنوعة من تنفيذ أي عمليات ميدانية لأنها فاشلة في التصويب.

لم تتوقع آبا، التي أثبتت جدارتها وجرأتها في عملها بالقاهرة، إلى درجة أن الجمعية اليهودية أرسلتها إلى أمريكا اللاتينية بعد الحرب لتمضي عامين تقتنص رؤوس النازيين الفارين من تبعات جرائمهم ضد اليهود، أنها حين تعود إلى القاهرة لتنفيذ عملية واحدة سريعة ستجد نايري تشهر مسدسها صوبها.

كان ذلك في شباط ١٩٤٨. كانت آبا في سيارة يقودها سائقها النوبي في طريقها لمقابلة سرية مع أحد أبرز أفراد الجمعية في مصر.

وقفت السيارة تفاديًا لمرور الترام عند ملتقى شارعَي قصر العيني وإسماعيل أباظة. سمعت آبا أحدهم يناديها باسمها الحقيقي الذي لا يعرفه أحد في مصر.

التفتت لتجد نايري تطلق رصاصة استقرت في كتف آبا.

ألقت آبا بنفسها في المساحة بين مقعد السائق والأريكة تجنبًا لأي رصاصة أخرى، بينما حاول السائق أن يقود السيارة إلى الخلف، ولكن نايري أخذت تطلق الرصاص عشوائيًّا صوب السيارة فأصيب برصاصة طائشة في عنقه.

كقاتلة متمرسة، أخرجت آبا مسدسها من حقيبتها، رفعت رأسها في توقيت مدروس، وأطلقت رصاصة استقرت في منتصف جبين نايري.

هكذا، خانت صديقة طفولتها، ومعشوقة أخيها، ومنقذتها في محنتها، ثلاث مرات. الأولى حين وشت بها وزوجها لضباط الإس إس فأرملتها. والثانية حين أطلقت عليها الرصاص. والثالثة حين سرقت هويتها وحقيبتها من بين يديها الميتتين، فدُفنت نايري مجهولة الهوية في قبر بلا شاهد.

لم يعرف أحد أن نايري ماتت غير آبا وبنيامين عزلماني الذي استغل الوضع أفضل استغلال.

أمرها أن تبرق إلى جريجور لتخبره بأنها قتلت آبا، وأنها ستذهب الآن إلى القدس، لتقتل الباشاوين العثمانيين اللذين كانا سببًا في

يتمها.

هكذا دخلت القدس بهوية الأرمنية الثائرة بعد أن أمر أفراهام أحد رجاله بقتل كيغانوش في برلين، بينما قتل هو كيراز بنفسه ليقطع آخر خيط قد يكشف انتحال آبا لهوية نايري.

ها هي ذي الآن تتقبل أخيرًا لقب ليليث الذي كانت تمقته. ها هي ذي تفخر بأنها أغوت قائد المقاومة، وكتبت ما كان يقوله لها في فضفضتهما الليلية من معلومات عن تحركات الجيوش العربية وتدابير جيش الإنقاذ بالقرى، وترسله إلى المستعربين في كل منطقة.

ها هي ذي تتألق بثوبها الأحمر وشعرها الأصهب البرّاق وقفازيها الأبيضين الحريريين، وبطنها المنتفخ بسبب حملها، تحصد ثمار ما زرعته من دمار وتشريد بين العرب على هيئة ثناء وتمجيد من أفراد الجمعية اليهودية في أثناء الاحتفال في مقرها بهزيمة الجيوش العربية.

ها هي ذي تخطف الأضواء من أفراهام الذي وقف في الزاوية المقابلة لها من دون أن يرفع عينيه عنها، وهو يعرف أن حكايتهما انتهت.

أدرك أنها تحررت من هيمنته عليها حين توقفت عيناها عن البحث عنه في أرجاء القاعة، حين لم يعد نظرها يميزه وسط مائة شخص.

في السابق، كانت تقول إنها لا تطيقه، لا تتمنى رؤيته لكنها تظل متشبثة به بعينيها، ولكن الآن تأكد أنها تخلصت من حبها له، على الرغم من أنه ما زال يتشبث ببصيص من الأمل أن آبا التي وشم بدنه بحبه المريض لها، ستعود إليه في النهاية.

لكنه رآها منذ لقائهما الأخير في سريره، تبني حياة جديدة من دونه. راقبها تتخطاه وتبدأ فصلاً آخر من حياتها من دون أن تقلب صفحة قديمة واحدة ذُكر اسمه فيها. شاهدها تحتضن الحاضر وتسعى إلى المستقبل من دون الالتفات إلى ماضٍ كان بطله.

تعمد أن يمر بجوارها أكثر من مرة ويصطنع ضحكة عالية يلفت بها

انتباهها، لكنها لم تنظر إليه ولو بطرف عينها. لقد انعتقت منه، محته من وجدانها كأن قصتهما لم تكن يومًا.

اتجهت نحو البار لتطلب مشروبًا جديدًا، فاستغل أفراهام اللحظة ووقف بجوارها يطلب الرَّم.

تجنبت النظر إلى يمينها حيث يقف كأنه ميدوسا، نظرة واحدة منه ستحولها إلى صنم جامد.

- شالوم يا بطلة اليشوف.

لم تعلق، فقال ساخرًا:

- انظري إليهم يمجدونك كأنكِ يهوديت التي أغرت أليفانا إلى سريرها ثم ذبحته. الفرق بينكما أنها فعلت ذلك لنصرة شعبها ودينها، أما أنتِ ففعلته لمصلحتك، ولو كانت مصلحتك في قتل شعبك كله لقتلته. أتساءل ماذا سيقولون إن عرفوا أنك طرف في كل اغتيالات المستعربين وقادة الميليشيات.

ابتسمت ابتسامة مستهزئة غير عابئة بتهديده الفارغ، ووقفت تسند ظهرها الذي قوسه الحمل بيد، وتتحسس بطنها باليد الأخرى في انتظار مشروبها.

تأمل أفراهام حركة يدها الدائرية على بطنها الذي يحمل ابن نزوتها، ثم قال:

- سأخبرهم بأنه ابني.

نجح في لفت انتباهها، فنظرت إليه مستفهمة.

- ليس لأنني أريده، لكني سأقول ذلك حفظًا لماء وجهكِ أمام اليشوف. ماذا سيقولون حين يعرفون أنكِ تزوجتِ عربيًّا إرهابيًّا وحملت منه في أثناء زواجك بي.

ابتسمت بمكر وقالت:

- قالوا إنني جاسوسة ماهرة، سخرت كل مهاراتها حتى تصل إلى تحركات الجيش العربي في الفالوجا.

- ماذا تقصدين بقالوا؟

- أقصد أن الجميع يعرفون أنني عاشرتُ إلياس وحملت منه. وإليك سرًّا آخر.

اقتربت منه حد الالتصاق، فغزت أنفه رائحة كولونيا فيرينا التي لم تتعطر بغيرها منذ مراهقتها، وهمست إليه بنبرة خليعة:

- النساء يسألنني عن التفاصيل. تعرف فضولنا. حرصت على أن أخبر كل واحدة منهن بأنني مدينة لعزلماني، لأنه لولا تشجيعه لي على الزواج بإلياس لأفنيتُ عمري كله مع أفراهام من دون أن أعرف معنى المتعة.

رأت حمرة الغضب تغزو ملامحه، بدأت من عنقه وصعدت حتى العروق الدقيقة في عينيه.

ضغطت على وجهه بكفيها، وقبّلته بغتة قبلة تملأها الشماتة والتشفي، ثم ابتسمت له وقالت:

- أريد الطلاق يا أفراهام.

ناولها الساقي شرابها فأخذته ورحلت عن البار، لتمضي بقية أمسيتها بعد أن أنزلت أقسى صفعة على وجه مَن كان حبيبها الوحيد.

شاهدها تبتعد عنه لتقف مع عزلماني وزوجته، يتحدثون ويضحكون والمصور يلتقط لهم صورًا سعيدة، فتساءل أفراهام كيف يحتفون بمن حملت من غير زوجها؟

لماذا تزني هي فيرونها بطلة قومية، لكن حين زنت أمه نكلوا بها حتى انتحرت أمام عينيه؟

أهذا هو اليشوف الذي يناضل أفراهام من أجل مستقبله؟ هذا المجتمع الذي يعتبر قادته الزنى أداة من أدوات الجاسوس المحترف؟

تأمل الموجودين، رأى صورته في نظراتهم، بالنسبة إليهم هو أفراهام أورباخ لينمان ابن الزانية، وزوج البطلة التي عجز عن إمتاعها، إلى درجة أنها قدمت نفسها لعربي.

أفسدت عليه ليلته، الليلة التي أخيرًا كُرِّم فيها وأخذ نيشانًا، توثيقًا لتهجيره وتشريده للفلسطينيين إبان الحرب ضد الجيوش العربية، كانت الليلة نفسها التي كُرِّمت فيها زوجته على مضاجعة عربي.

لم يعد يحتمل البقاء في القاعة المترفة وسط هذا الحشد من المنافقين، انتشل زجاجة الرّم وخرج يثمل في سيارته أمام الفندق.

بقي وحيدًا في سيارته، يتجرع الخمر من الزجاجة مباشرة، حتى رأى آبا اللعينة تخرج من الفندق بمفردها وتنتظر العامل ليحضر لها سيارتها.

كان الشارع فارغًا، يبدو أن آبا خرجت قبل انتهاء الحفل.

رأته في سيارته، فنزلت عن الرصيف تتوجه نحوه.

لا يعرف أي إهانة سادية أخرى كانت تنتوي أن تستلذ بإذلاله بها، كل ما يعرفه أنه لم يعد يحتمل رؤيتها ولا سماع صوتها مرة أخرى.

لا يدري متى اتخذ القرار، كل ما يعرفه أنه أدار المحرك، داس على البنزين وقاد سيارته بأقصى سرعة تجاه آبا ليرتطم بها.

صعدت على مقدمة السيارة من شدة الاصطدام، ارتطم وجهها بالزجاج الأمامي. أوقف السيارة، فارتدت وسقطت على ظهرها تنزف من فمها وأنفها ومن بين ساقيها.

عاد بسيارته إلى الخلف مختفيًا من الشارع، وترك ليليث التي تمردت عليه تنزف وحيدة على الأسفلت.

٢٣

رمان طولكرم

إن كان هناك شيء تعلمه أفراهام في أثناء إقامته في الولايات المتحدة الأمريكية الرأسمالية، فهو نظرية أن الانتصار على منافسيك لا يكون من خلال الارتقاء بجودة منتجك حتى يفضله المستهلكون، بل من خلال إبادة منافسيك حتى لا يجد الجمهور خيارًا سوى الاستسلام لك.

طبّق هذه النظرية حين انتبه لانفضاض أفراد الجمعية من حول أجندة عصابته والتفافهم حول قادة الهاجاناه والبلماخ.

في ساعة صفاء، خطَّ قائمة بمنافسيه فتحولت إلى لائحة اغتيالات.

وضع تصورًا لطريقة اغتيال كل منافس بنية تلفيق تلك العمليات للمقاومة العربية.

هكذا مَلك السلاح، المعلومات، الخطة، كبش الفداء، لكن ينقصه وجود منفذ ماهر لا يقترن اسمه بعصابة أفراهام وأعمالها في أورشليم.

نعم، أعضاء جمعية الديبوق الجديدة ينساقون خلفه انسياق البهيمة وراء جزارها إلى المذبح. يثق بطاعتهم، لكنه لا يثق بولائهم، ففي النهاية من سلم شتيرن إلى الإنجليز كان أحد أفراد عصابته.

كاد التفكير يهلكه حتى رأى مصادفة خطابًا مرسلاً من آبا إلى إيلي، تخبره بأنها ستنفذ مهمة أخيرة للجمعية، ثم ستتقاعد عن العمل الجاسوسي وتبقى في القاهرة، فعرضت عليه أن يمكث هناك ويترك حياته البائسة في أورشليم.

اعتبر أفراهام هذا الخطاب إشارة إلهية، فراسل آبا، وعرض عليها المجيء إلى داره، وأن يضمن لها منصبًا عسكريًّا إذا عاونته على تحقيق أهدافه.

ردت عليه بكلمتين: تبًّا لك!

أرسل إليها خطابًا آخر، يستحلفها تارة بحبهما، بدينهما، بقوميتهما، يغريها تارة بارتقاء مكانتها في مجتمع اليشوف، وتارة أخرى يرغبها بالمال، حتى بدأ يهددها بأنه سيؤذي إيلي إن لم تخضع له.

الطريقة الأخيرة نجحت، وجدها تتصل به ليتفقا على التفاصيل كافة، وتخبره بأنها ستنتحل شخصية نايري.

ها قد نجحت خطته بحذافيرها. بفضل هذا التعاون السري لم يعد أفراهام إرهابيًّا صعلوكًا، أصبح قائدًا عسكريًّا لجيش معترف به دوليًّا، يقود حرب بلد معترف به، بلد اختلقوا له علمًا ودستورًا ودبابات ورشاشات ومدافع وجواسيس وجمعية سرية ودفتر شيكات يشتري الذمم الدولية.

كان جزءًا أساسيًّا من تخليه عن ماضيه هو ترك الدار التي تذكره باغتيال أبيه وزنى أمه وانتحارها، وخيانة آبا له.

انتقل إلى كفر سابا في قضاء طولكرم بعد أن هجَّر الجيش الإسرائيلي أهله منه.

استولى على دار فسيحة تتيه فيها الخيل، معها أرض زراعية أشجارها تثمر رمانًا.

بعكس والده، لم يُبقِ على الدار العربية كما هي، ألقى كل ما فيها من أثاث وابتاع أثاثًا جديدًا من الخشب الفلسطيني مصممًا على الطراز البيزنطي، وسجاد السيفاس الأرمني، والمقاعد المنخفضة العثمانية، ومزهريات الفسيفساء المغربية.

وضع في الزاوية طاولة نحاسية بزخارف قبطية، وفوقها المينوراه اليهودي بشمعاته السبع، يعلوه على الحائط دثار أبيض ملطخ ببقع دم جافة قديمة، طُرزت عليه نجمة داود بالخيط الأزرق.

علق بجوار باب الدار نسخة من لوحته المفضلة، لوحة انتصار داود، التي صور فيها الفنان أندريا فاكارو، انهزام جالوت العملاق على يد داود الشاب في وادي إيلاه وهو يسير منتصرًا حاملاً رأس خصمه

الملتحي على طرف رمحه، ومن حوله النساء الإسرائيليات يضربن الدف والرق والمثلث مبتهلات بمجده.

كل صباح، قبل أن يخرج ببدلته العسكرية ليستأنف إبادته للفلسطينيين، يقف أمام اللوحة ويرى انعكاسه في نظرات الملك داود المتفاخر بانتصاره.

آمن أفراهام بأن هذه الساعة هي ساعة مجده، انكب على عملياته الدموية متجاهلاً فشله العاطفي وقلبه الذي مزقته آبا.

* * *

استيقظ أفراهام. تناول الشكشوكة والفلافل. ارتدى بيادته. تأمل انتصار داود، ثم خرج يبيد شباب قبيلة عرب المواسي بعد مطاردات طويلة لهم في قضاء طبريا وصفد وعكا حتى اعتقلوهم وجمعوهم في منطقة ماميلا، ثم قادوهم إلى حتفهم في أراضي عيلبون، وألقوهم في مقبرة جماعية في بيت ناطف.

أشرف أفراهام على رجاله وهم يلقون آخر جثة من جثث الشباب الذين قاوموا الاستيطان لآخر مقاتل، ثم عاد ببال رائق إلى المستوطنة يثمل مع رفاقه المحتفلين بمجدهم الدموي، ويفكر أي امرأة سيصحبها الليلة إلى سريره.

بعد الكأس الثالثة، رأى رفيقه يهوشع خارج الحانة يومئ إليه بالخروج.

أخذ أفراهام كأسه وخرج بعرجة عجز أطباء إسرائيل كافة عن تقويمها بسبب رصاصة آبا لركبته.

وقف يهوشع بزيه العسكري الزيتي يتلفت حوله كمن يطارده ظله، وقال بنبرة لا تقل توترًا عن نظراته:

- هل استلمت أي طرود أو خطابات اليوم؟
- كنت في عيلبون طيلة اليوم.
- حسنًا، لا تفتح أي طرد يصل إليك.
- اختصر، ما الأمر؟

- كل أفراد منظمة الديبوق السابقين وصل اليوم إلى ديارهم ومكاتبهم طرد أحمر مرسوم عليه رمز غريب.
- منذ متى وأنا أتواصل معكم مكاتبة يا غبي؟
- لم يفكر أيٌّ من أعضائنا في هذا. فتحوا الطرود من دون أن يعرفوا أنها طرود ملغمة. جميع أفراد العصابة ماتوا اليوم يا أفراهام. مَن الذي يستهدفنا؟
- هل وصل إليك طرد؟
- نعم لكني لم أفتحه. كان الخبر قد وصل إليَّ و...
- ما الرمز على هذا الطرد؟
- امرأة عارية ولها قرنان كقرنَي الشيطان في فمها تفاحة وتلف بين كفيها...
- ثعبانًا؟
- نعم.

نظر أفراهام إلى سيارته، لا يذكر أنه ترك زجاج نافذتها مفتوحًا.

ضحك ثم أخرج مفتاح سيارته من جيبه وأعطاه ليهوشع وهو يقول:

- استدعِ خبراء المفرقعات، أخبرهم بأن العرب فخخوا سيارتي.
- العرب هم مَن أرسلوا الطرود؟
- هذا ما سنقوله.

* * *

عرج أفراهام حتى داره.

اشتم رائحة دخان السجائر مختلطة بكولونيا فيرينا الألمانية تتسلل من أسفل عتبة الباب.

فتح الباب وأشعل النور فوجدها جالسة على الكرسي الخشبي العالي المُطعم بالصدف تدخن سيجارتها وتحدق إلى الدثار الدامي.

ألقى مفتاحه على الطاولة بجوار المينوراه، وهو يبتسم لها ببرود، فقالت من دون أن ترفع عينيها عن الدثار:

- كم عاهرة أخبرتها بأن هذا هو الدثار الذي قُتل فيه ولدانا حتى تستثير فيها الشفقة لمضاجعتك؟

ضحك أفراهام، ثم جلس على المقعد العثماني المنخفض المقابل لكرسي آبا، تفصل بينهما طاولة عليها طبق من رمان طولكرم.

- خرجتِ مبكرًا من المشفى.

- جراحي تلتئم سريعًا.

- وانتقامك لا يبرد. متى خرجتِ؟

- بالأمس.

- خرجت ليلاً ثم أرسلت الطرود المفخخة لمنظمة الديبوق كافة؟ أعني، أفهم لماذا فخختِ سيارتي منذ ساعة، لكن أعضاء المنظمة كلهم؟ ماذا فعلوا لكِ يا ليليث؟

رفعت عينيها عن الدثار الذي خيطت نجمته الوحيدة بيديها في أثناء حملها، وقالت له بمرارة:

- لماذا لم تسألني قَطُّ عن طريقة هروبي من المعسكر النازي بمفردي؟ ألم يثِر فضولك ولو لمرة كيف وصلت إلى فرنسا من دونك ومن دون أزاد؟

- لأنني أعلم. أعلم أنكِ استخدمت سحرك وأغويت ضابط المعسكر فنقلك إلى داره، جعلك خادمته نهارًا وبغيه ليلاً حتى سممته وهربت بهوية زوجته.

- كيف عرفت؟

- من بنيامين عزلماني، ودَّ أن يكسر أنفي لأعرف أن زوجتي باعت جسدها للنازيين.

- إذن أنت تعرف أنني عاشرت غيرك. لماذا لم تحاول دعسي بسيارتك وقتها؟ لماذا تعمدت قتلي وأنا حامل؟

- لأن الذنب نهشني. هربت من فاجعة مقتل ابنينا لا أملك سوى الدثار الملطخ بدمائهما، ولبيتُ نداء الجمعية لأنضم إلى الجيش الأمريكي، وأكتسب ما يلزم من المهارات العسكرية لمواجهة العرب

في إسرائيل، فكان ثمن ذلك أن فقدت زوجتي. لم ألُمك. قلت فعلت ما استطاعت أن تفعله حتى تنجو بنفسها. ولكن أن تفعلي الأمر نفسه مع المقدسي! فأنتِ هكذا لست بطلة ناجية من الهولوكوست، أنتِ أحط من أحقر مومس أدفع لها شيكلاً لأمضي ليلة معها.

هربت منها دمعة مسحتها بظهر كفها قبل أن يلمحها، ثم راقبته وهو ينتشل رمانة من الطبق، يفتحها بعنف ويفصصها بعدوانية، ويلقي حباتها في فمه ليمضغها بغلٍّ.

قالت بصوت حاولت أن تخفي رعشته:

- لقد أفقدتني جنيني ورحمي يا أفراهام. حرمتني من الأمومة إلى الأبد.

تأمل قهرتها وهزيمتها، فلان قلبه وقال:

- لم أكن في وعيي. أنتِ التي دفعتني إلى...

- أنت دفعتني إلى طريق كراهية لا رجعة منه. كل ذرة حُب كنت أكنها لك انقلبت عليك يا أفراهام.

- أتعلنين الحرب عليَّ يا أبدون؟

- أعلنتها عليك منذ أن هددتني بإيلي. فقبلت أن أكون ليليث خطتك الطفولية هذه، ولكنك متغطرس إلى درجة أنك اقتنعت أنني وافقت على أن أكون جاسوستك لأنني أحبك أو لأنني أهابك. ولكن في الحقيقة، لقد قبلت بتلك المهمة حتى أقلب السحر على الساحر. لقد وافقت وأتيت إلى أورشليم لأن بنيامين كلفني بذلك.

- بنيامين كلفك بقتل أفضل قادتنا؟

- كانوا ينافسونه كما ينافسونك على الاستئثار بأهم مناصب الدولة لحظة قيامها.

- تجسستِ عليَّ لصالح بنيامين؟

- بل لصالحي. اتخذتك قدوة وقررت أن أكون أنانية طموحًا. أنا وبنيامين سنشكل الموساد الإسرائيلي. سيأتي زمن لن نرهب فيه

العرب بمدافعنا ودباباتنا، بل بما نعرفه عنهم ونستخدمه ضدهم.
- أتيتِ خصيصًا لتخبريني بأنكِ وجدت وظيفة في الدولة؟ ألا تفهمين أن بجلسة واحدة مع جولدا مائير أو بن غوريون أطلعهما فيها على ما دبرتماه ضد قادة اليهود، سأقودك أنتِ وعزلماني العاهر هذا إلى حبل المشنقة؟
- سبقناك يا أفراهام. بنيامين قدم ملفًّا مفصلاً يثبت أنك وأعضاء الديبوق وحدكم دبرتم تلك الاغتيالات بالاتفاق مع منظمة الزيتون المسلح. لهذا أوكلت الجمعية إليَّ مهمة تصفيتكم. ولو كنتَ ركبت سيارتك أمام الحانة لكنت أتممت مهمتي بنجاح.
- ولكنكِ...
- لست إلا ابنة إسرائيل المخلصة لشعبها. أنا التي نجت من الهولوكوست، وقتلت النازيين في أمريكا اللاتينية ثم تزوجت عربيًّا في الجيش لتتجسس على عملياتهم واستراتيجيتهم. لم يكن لي دخل بالمقاومة قبل دخول الجيوش العربية. لقد قدمت نسخًا من المراسلات التي كنت أرسلها إليك يا قائد الفرقة الأبي، فأصبحت صاحبة الفضل في كل مجد وانتصار سجلته أنت وفرقتك.
- ولكنك نفذت عمليات الـ...
- حاوِل إثبات ذلك في المحكمة العسكرية.
أخذت النفس الأخير من سيجارتها، ثم ألقتها على السجاد الأرمني، ونهضت عن مقعدها وهي تستمتع بتعبيرات الذهول التي تملكت وجه أفراهام.
اتجهت نحو الباب فاستوقفتها لوحة انتصار داود، تأملت تفاصيلها، ثم قالت:
- إطار هذه اللوحة معوج يا أبي.
سمعها تفتح الباب وتخرج وتغلقه خلفها، فبقي يتدبر ما أصابه حتى ضرب ناقوس الخطر برأسه يحثه على ترك الدار في أسرع وقت، قبل أن يجدهم يكسرون الباب ويقبضون عليه.

نهض عن مقعده بنية الذهاب إلى غرفته لجمع الأغراض الضرورية لهروبه، ولكن استوقفته لوحة انتصار داود وتعليق آبا عليها، بالفعل كانت معوجة.

كيف تحتفل الإسرائيليات بنصر داود المجيد وهو في وضعية غير مستقيمة؟

مد يده وجذب اللوحة من الطرف الآخر حتى يعدل وضعها، فحدث آخر ما كان يتوقع حدوثه.

انفجرت.

كانت آبا في سيارتها تنتظر علامة نصرها.

سمعت دوي الانفجار، ثم رأت زجاج دار أفراهام يتهشم والنيران التي التهمت أثاثها الخشبي تخرج من النافذة بعد أن انفجرت اللوحة التي فخختها له.

تلك الخدعة التي تعلمتها من حكايات سجانها النازي، أتت نفعها.

تفوقت على نفسها هذه المرة، لا لأنها نجحت في تنفيذ المهمة التي أوكلتها إليها الجمعية فحسب، بل لأنها حققت ثأرًا شخصيًا أمضت تسع سنوات تتردد في تنفيذه.

* * *

في الثالث عشر من كانون الأول ١٩٤٩، عادت آبا من حفل تأسيس الموساد، منتشية بحياتها الجديدة بعد أن انتهت من حكاية أفراهام إلى الأبد.

الآن وقد تخلت عن كل هوياتها السابقة وصار يعرفها الجميع باسمها الحقيقي، آبا لينمان، سمحت لنفسها بأن تقطن في دار المقدسي في حارة النصارى.

لم يحبذ بنيامين عزلماني الفكرة، عرض عليها دارًا فسيحة في تل أبيب وحثها على اختيار أي دار تتمناها في أي مستوطنة، ولكنها رفضت، لم ترَ دارًا تليق بقصتها غير الدار التي سلبها عمها من صاحبها بكذبة حق العودة، وسلبت هي مفتاحها من وريثها بكذبة

الحب.
دخلت الدار تتحسس الحائط لتشعل النور وهي تخلع فرو الثعلب الأبيض وتلقيه على الكرسي.
فتحت النور فانقض عليها ظل نافذ من قلب الظلام.
كان إلياس، أطلق لحيته وطالت أظافره واتسخت ثيابه بالطين كأنه وصل إلى دارها عبر خندق.
كانت ستصرخ، لكنه كتم أنفاسها بيد ورفع يده الأخرى ممسكًا بسكين وجّه طرفها إلى عنقها.
رفعت ذراعها تتفادى الطعنة فأصاب ساعدها، لكنها قاومت الألم وقبضت على ذراعه بيديها الاثنتين حتى لا يذبحها.
عضت يده بعنف، فرفع كفها عن فمها، لم تصرخ، آثرت أن تقول:
- ابننا في الداخل. لا تجعل خليل يرى أباه يذبح أمه.
تراجع، رأت ذلك في عينيه وأحسته في ذراعه التي تعلقت في الهواء، حتى إنها لم تعد تحتاج إلى يديها الاثنتين لتمنعه من قتلها.
رأت صراعه الداخلي، بين القصاص منها ولهفته على ابنه، فقالت:
- بحثت عنك حتى تراه. وددتُ أن أوضح لك كل شيء. لا أعرف ماذا قيل لك.
لفت انتباهه المفتاح الضخم المعلق على الحائط، مفتاح داره الذي أهداه إليها ليلة هوى في غرامها، هكذا أدرك أنها غيرت القفل، وصار مفتاح داره قطعة ديكور يتفرج عليها الضيوف.
انتشل المفتاح ووضعه حول عنقه، ثم قبض على عنق آبا وهو يصيح:
- تملكين ما يكفي من البجاحة لتعليقه على الحائط كي تتباهي به وسط رفاقك الأنجاس؟
رفع سكينه بهمة أكبر، لكن آبا صاحت وهي تنظر إلى شيء خلف كتفه:
- خليل حبيبي، لا تخف. هذا أبوك.

التفت إلياس خلفه بلهفة، فلم يجد أحدًا.

ما أحمقه! هل سيخرج رضيع عمره بضعة أشهر من الغرفة سيرًا.

كان سيلتف مرة أخرى، سيتغلب على صراعه ويقتلها لكنه لم يلحق، شعر بإبرة دستها آبا في عنقه بخفة ثم دفعت يده بعنف لتسقط سكينه.

وقعت سكينه وتباطأت أنفاسه ومعها دقات قلبه، فحدق إليها بغضب.

كم مرة يجب أن تخدعه قبل أن يقضي عليها؟

ثقل لسانه وتخدرت أطرافه وترنحت خطواته وزاغ بصره. كاد يسقط لكنها لحقته، أمسكته فألقى ثقله عليها.

سقطت على الأرض وهي تستند إلى الحائط حتى جلست وإلياس في حضنها فاقدًا للوعي. وضعت رأسه على صدرها وقبّلت جبينه، ثم جلست تمسد شعره وتملأ عينيها بحسنه وتفكر، كم جعلته اللحية أكثر وسامة.

* * *

كانت أول مهمة رسمية لها في الموساد أن تستجوب إلياس.

دفعه الحراس إلى غرفة التحقيق بعد أن كبلوا يديه وقدميه بأصفاد تتصل ببعضها بسلسلة معدنية ثقيلة، وأجبروه على الجلوس على الكرسي المقابل لآبا على المائدة المستطيلة الرفيعة.

تأملت هيئته، كما أمرت، لم يؤذِه أحد، لم يتبعوا بروتوكول الضرب والإساءة والتنكيل المعتاد، لكن هذا لم يجعل نظرات إلياس إليها أقل حدة، كأنه يحاول حز عنقها بعينيه.

افتتحت تحقيقها بأكثر سؤال استفزازي يمكن أن يسأله إسرائيلي لفلسطيني:

- هل أساء أحدهم إليك؟

- لا يا ست آبا. استوطنتم وطني وشردتموني وأسرتي وكفى.

- أعلم أنني آخر شخص تود رؤيته الآن. لكن صدقني، أنا تذكرتك

الوحيدة للخروج من هذا الوضع. لن أسمح لأي شخص أن يؤذيك أو يهينك.

ابتسم ابتسامة ساخرة، فأعطته فرصة ليفكر فيما قالته، لكنها وجدته يسألها:

- هل حقًّا أنجبتِ ولدًا؟

- أفراهام أجهضني قبل أن أنجب ابنك.

رأت ملامح الضيق على وجهه، لكنه تخطى الأمر، وقال كأنه يحدث نفسه:

- لم يكن ابني. لم أنجب منكِ. أنجبتُ من تايري، الأرمنية الثائرة للحق وليس آبا السفاحة العاهرة. مجرد النظر إلى وجهك الآن وأنتِ وسط جنودك وأسلحتك وأغلالك وجدرانك وأسوارك يثير غثياني. ألعن كل لمسة لمستها لكِ، وكل شعور طيب كنت أكنه لكِ.

أخذت علبة سجائرها، وانتقت سيجارة ووضعتها في مبسمها ودخنتها على مهل، وهي تتابع نظرات إلياس ولهفته إلى النيكوتين.

- لا ألومك على كراهيتي يا إلياس، لكن لا يجوز أن تعميك عواطفك فتؤدي بنفسك وعائلتك إلى التهلكة.

- أي عائلة؟ أمي وماتت، غيدا وقاطعتني وأخذت ميلاد وشردت إلى الخيام. ماذا تريدين مني؟

- أريد أن أتفاوض معك حتى نتوصل إلى طريق نحيا به معًا في سلام.

- تتفاوضين معي على السلام وأنا سجين في زنزانتك ومقيد بأغلالك!

مدت يدها نحوه بعلبة السجائر فرفض، ظنت أنه شك في أنها سممت السجائر، فأخرجت سيجارتها من مبسمها وناولته إياها. أخذها بعد تردد، ثم سحب منها نفسًا عميقًا وآبا تقول له:

- سأعيد إليك دار أمك في بيت لحم.

- ستتصدقين عليَّ بممتلكاتي؟

- لماذا لا نتحدث بمنطقية، تعلم أنك لن تسترد دارك ولو بعد مائة قرن.

- قلتها لكِ في لقائنا الأول، الدار مستردة لا محالة. سأسترد دار أبي في القدس، ودار أمي في بيت لحم، ودار عمي في الناصرة، ودار نصر الله في حيفا، ودار الحاج جاسر في نابلس. هيهات يا بني صهيون!

- دعنا نتخطَّ شعاراتك الحماسية ونلتزم بالواقع. سأعطيك هوية إسرائيلية معترفًا بها حتى تسافر إلى أي بلد تريد. سأعطيك أي راتب تحدده. سأعطي دارًا إلى غيدا وميلاد وسأتكفل بمصاريفهما.

- وما المقابل؟

- أريدك أن تسافر قليلاً بين مصر وسوريا والأردن ولبنان والعراق.

- تريدينني أن أصير جاسوسًا دوليًّا على إخواني؟

- لا أخ لك غير الذي أنجبته أمك وأبوك. أنا أجند بدل الجاسوس ألفًا، لكني أعرض عليك هذا العرض لأنني أريد أن أوفر لك حياة كريمة، فأنتم خاسرون لا محالة.

- خسرنا المعركة وليس الحرب كلها.

- ما أعندك! ألم تفهم نهاية التمسك بالقضايا بعد كل كتب التاريخ التي قرأتها؟ رأيت ما حدث للأرمن، وما حدث للهنود الحُمر، وما حدث للسكان الأصليين، وسكان جزر مضيق توريس في أستراليا، وما يحدث لكم الآن. الرواية نفسها تعاد على مر التاريخ يا إلياس. الأصليون يبادون والمستوطنون يزدهرون. إنها القاعدة.

- سنكون استثناءها.

- حسنًا لا بأس. انضم إلينا الآن وحين تنتصرون، انقلب علينا وخذ صف قومك.

- هذا الفرق بيننا وبينكم. نحن واضحون وضوح النهار، إن أحببناكِ ضحينا بحياتنا في سبيلك، وإن كرهناكِ، أنزلنا عليك غضبًا سنسقيه لنسلنا حتى نمحوكِ من على الأرض. سيأتي يوم أخرج فيه

من هذا المكان. فليكن غدًا أو بعد خمسين عامًا، صدقيني أول ما سأفعله وقتها هو قتلك يا آبا الزفت.

أطفأ سيجارته في الطاولة بغضب، فنهضت عن مقعدها لتجلس بجواره.

التفت إليها متوقعًا منها أن تخرج أداة للتعذيب، لكنه وجدها تضع يدها على فخذه، وتقول بنبرة كانت تذيب قلبه عشقًا فيما مضى:

- لا يمكنك أن تقتل ميتًا يا إلياس. غيابك عني طيلة الفترة الماضية قتلني شوقًا. لا تقل لي إنك لم تشتق إليَّ ولو في أحلامك.

تأمل نظراتها وإيقاع أنفاسها ونبرة صوتها وموضع يدها.

بصق على وجهها فانتفضت، نظرت إليه بغضب وهي تمسح وجهها وتقول:

- يا غبي! أحاول أن أنقذك من التعفن في المعتقل.

لطم رأسها برأسه فارتدت إلى الخلف وسقطت على ظهرها.

اقتحم الغرفة جنديان ليحميا آبا، لكن إلياس اندفع صوبها واعتلاها وهو يخنقها بقبضتيه ويصيح بعلو صوته:

- أمي اعتبرتك ابنتها. وقفت أمام الرشاشات لتحميكِ. ربما كانت تحبك وتناديك عمتي. حسبناكِ منا.

عافرا لتخليص رئيستهما من يديه، لكنه ظل متشبثًا بها فضربا ظهره وكتفيه بكعبَي بندقيتيهما حتى أصابا رأسه، فارتخت قبضتاه بغير إرادته، وتمكنا من حمله بمساعدة جنديين إضافيين.

نهضت آبا تشهق وتقول للجنود:

- ألقوه في الحبس الانفرادي!

حملوه إلى خارج الغرفة وهو يهتف وصدى صوته يتردد في ممر مبنى الموساد، ليصل إلى كل مَن في الطريق من غرفة التحقيق وإلى زنزانة الحبس الانفرادي:

- يا كلاب، يا ملاعين. لن تدوم لكم. لن يصير اللص مالكًا. عاشت فلسطين حرة أبية. عائدون. إننا عائدون!

القدس

كانون الثاني ١٩٧٤

٢٤
حنون القدس

في الساعات الأخيرة من عمرها، لم يشغل بال آبا دوليف ليبمان إلا تاريخ مطعم زهرة إسرائيل.

على عكس جميع سكان المدينة الإسرائيليين، تعلم أن مالكه الأصلي فلاح فلسطيني انتقل من الجليل إلى القدس ليبنيه مع زوجته، من جرمق جبلي تفوح منه رائحة الزعتر البري الذي نما على سفح الجبل الذي جُلبت منه حجارة هذا المطعم، ولكن مع بداية الانتداب الإنجليزي، استولى عليه جنرال أشقر متعجرف ونقل اسمه من اللهجة الفلسطينية إلى الإنجليزية ليصبح شقائق نعمان القدس. ثم اشتراه مواطن إسرائيلي لمدة أسبوع واحد ففجره أعضاء منظمة الزيتون المسلح المحظورة.

بقي المطعم مغلقًا لمدة عامين من دون مُشترٍ، حتى اشترته آبا عام ١٩٥٠ وأسمته زهرة إسرائيل.

لم تنزعج آبا في أثناء جلوسها داخل المطعم الذي سلبته كمَن سبقوها، من أنها صارت عاطلة عن العمل بعد هزيمة تشرين الأول ١٩٧٣، ولا أن شعبها نسي مجدها ودورها البارز في تأسيس دولة إسرائيل.

في هذه اللحظة، لم تبالِ بأن هذا الجيل الجديد من الإسرائيليين جاحد، لا يعرف تجليلاً ولا تبجيلاً لقادته الذين ذبحوا الأسر وهجّروا القرى وهدموا الديار، حتى ينعم الشباب العاشق للروك آند رول بمستقبل آمن ومستقر.

لم تبالِ بأن أمهات الجنود الذين قُتلوا وأسروا في حرب يوم كيبور ما زلن يقفن أمام دارها يوميًّا باللافتات المنددة بفشل الحكومة الإسرائيلية، على الرغم من أن الحرب انتهت منذ ثلاثة أشهر. بل

وصل الأمر إلى أنها كانت خارجة من دارها منذ ليلتين، فألقت عليها إحدى الأمهات دم بقرة وهي تهتف:

- دماء أولادنا في رقبتكم.

لم تبالِ آبا بأن الإسرائيليين رفعوها إلى سابع سماء ثم أنزلوها إلى سابع أرض، بل إلى الجحيم نفسه، حتى دفعوها للاستقالة من منصبها الوزاري والتقاعد عن العمل السياسي وهي في مقتبل خمسينياتها.

ما كانت تبالي به الآن في ليل شتاء كانون الثاني القارس، هو أن طبيبها أخبرها هذا الصباح بأن سرطانها قد تفشى في ثديها الأيسر، وأنهم سيضطرون إلى استئصاله كما استأصلوا ثديها الأيمن.

ترددت جملة «سرطانك تفشى يا سيدة لينمان» في أذنيها في أثناء جلوسها في مطعمها الخالي إلا من حارسها ومن إيفاء النادلة التي عينتها حديثًا لتولي رص أحجار النرجيلة.

حاولت آبا أن تغطي على صدى صوت طبيبها المزعج بأن دندنت أغنية أسمهان «يا حبيبي تعالى الحقني»، متذكرة ولع أفراهام بها، بينما تبدل لها إيفا الشابة حجر نرجيلة التنباك العجمي.

تحولت دندنتها إلى ضوضاء بيضاء في خلفية أفكارها وهي تحلل وضعها، لتدرك أن ما يزعجها أكثر من سرطانها الذي يأبى أن يغادر بدنها، هو اضطرارها إلى التظاهر بأن كل شيء على ما يرام.

مضطرة إلى التظاهر بأن ما في صدريتها اليمنى ليس حشوة من السيليكون، وأن حاجبيها ليسا مجرد خطين مرسومين، وأن ما على رأسها ليس شعرًا مستعارًا يصيبها بالحكة، وأن جلدها انطبق على عظمها لأنها تتبع حمية قاسية وتمارس تمارين رياضية شاقة، وليس لأن الكيماوي أفقدها شهيتها ووزنها.

بتر شفقتها على نفسها، صوت فتح الباب مرتطمًا بالجرس المعلق أعلى إفريزه بجوار مكتب مضيف المطعم الخالي، لينبهها إلى دخول حارسها الضخم كشجرة بلوط معلنًا أن مَن تنتظره وصل.

نظرت إلى ساعة الحائط المعلقة بجوار مكتبة المطعم التي تختلط فيها كُتبها العبرية بالكتب المنهوبة من مكتبة آل المقدسي. أشارت الساعة إلى الواحدة بعد منتصف الليل، فنظرت آبا عبر زجاج المطعم المطل على الشارع الرئيسي.

رأت شاحنة بيضاء صغيرة بداخلها شاب تبدو عليه علامات الضجر، يجاوره سائق يرتدي قبعة كاوبوي ضخمة.

قالت آبا وهي تشير إلى إيفا لتحمل النرجيلة وتطفئها في المطبخ وتتركها بمفردها مع الحارسين:

- اسمح له بالدخول بمفرده بعد أن تفتشه جيدًا.

ذهب الحارس الضخم إلى الشاحنة، أشار إلى الشاب لينزل، وطلب من السائق أن يصف الشاحنة بعيدًا عن المدخل.

نزل الشاب الذي لم تخفَ وسامته عن آبا. كان في منتصف ثلاثينياته، عيناه عسليتان، شعره بني فاتح يصل إلى كتفيه وله غرة كثيفة. قميصه مشجر وأزراره مفتوحة حتى منتصف صدره الذي يزينه بقلادة علامة السلام كأغلب الهيبيين، وسرواله الذي يثبته بحزام ضخم، رجلاه واسعتان على صيحة رجل الفيل، فتنتهي طلته العصرية بسترة من الجينز كتفها مكسوة بالفرو البني.

كان يعلق على كتفه حقيبة جلدية أنيقة، ويحمل بيمناه كاميرا تصوير، وبيسراه استاند إضاءة طويلاً يحمله بحذر.

خطا نحو المطعم يتبعه الحارس الضخم الذي فتشه ويتقدمه حارسها الآخر ليفتح له الباب، حتى دخل بابتسامة مصطنعة حاول أن يخفي بها ضيقه وإرهاقه.

وضع استاند الإضاءة جانبًا، ومد يده صوب آبا التي استقبلته بأوسع ابتسامة تحترف تزييفها، لتصافحه وهو يُعرف نفسه بلغة إنجليزية تطغى عليها لكنته الفرنسية:

- رينيه ليفي. تشرفت سيدتي.

دعته للجلوس إلى الطاولة بعد أن عدل استاند الإضاءة، ووضع

الكاميرا على حجره وانشغل بإخراج قلمه ودفتره الصغير من حقيبته وهو يقول:

- أعتذر إليك على التأخير سيدة لينمان، لقد أغلقوا الشوارع المؤدية إلى المطعم، كما أن نقاط التفتيش على حدود المدينة لا تصدق. سألوني ألف سؤال وفتشوني مائة مرة.

- أنت تعلم يا سيد ليفي، البلد في حالة استنفار.

- أفهم ذلك جيدًا. أتيت لمقابلة سيدة الموساد الأولى، والوزيرة السابقة، وأبرز عضو بالجمعية اليهودية. لا شك أنكِ تستحقين أعلى درجات الحماية.

- أشكرك على تفهمك.

- وأنا أشكرك على حجز مطعمك كله من أجل هذه المقابلة، حتى وإن كلفني ذلك العمل بعد منتصف الليل.

- أنت الذي أصررت على أن تصورني في هذا المطعم. لو وافقت على التصوير في داري لكنا التقينا في موعد أبكر.

- هذا الشارع أهدأ، دارك في حارة النصارى في منطقة حيوية يسهل فيها التأثير في شريط الصوت.

- حسنًا. أنت رب هذا الفيلم التسجيلي.

- أشكرك. دعيني أشرح لكِ رؤيتي. في أثناء إعدادي لهذا العمل عرفت أنكِ نجوت بأعجوبة من حادث إرهابي قام به العرب في هذا المطعم، وراح ضحيته أربعون عضوًا من أعضاء الإرجون وشتيرن منذ خمسة وعشرين عامًا، صحيح؟

- نعم.

- ثم اشتريتِ هذا المكان بعد أن كان ركامًا، وعمرته. أخذت مكانًا مهجورًا لا مالك له وجعلت منه ملكية مزدهرة وتجارة رابحة مليئة بالذكريات السعيدة للشعب الإسرائيلي. أليس هذا هو الحلم الإسرائيلي؟

ابتسمت آبا، وقد فهمت مراد هذا الشاب الذكي الذي استأنف

قائلاً:

- لا أريد التحدث عن حرب الأيام الستة ولا يوم كيبور. أريد أن أتحدث عن أبدون لينمان التي نجت من الهولوكوست وأتت لتبني مستقبلاً لوطنها.

لا تذكر متى كانت آخر مرة امتُدحت فيها، لم تسمع كلمة طيبة واحدة منذ الهزيمة.

وضعت سيجارتها في مبسمها، فأخرج رينيه قداحته ونهض يشعلها لها فاستنفر الحارس الضخم الواقف خلفه والحارس المجاور لآبا.

أشارت إليهما بأن يهدآ حتى عاد رينيه إلى مقعده وهي تنظر إليه بافتتان، وتقول نافثة دخانها:

- يمكنك أن تدعوني آبا.

- حسنًا يا آبا سوف...

قاطعه صوت سقوط أطباق قادم من المطبخ، فوضع الحارسان يديهما على مسدسيهما مجددًا، بينما زفرت آبا وهي تقول بصوت عالٍ:

- ما الأمر يا إيفا؟

- آسفة يا سيدة لينمان. ارتطمت بالأطباق. سأدفع ثمن ما كسرته.

قالت آبا لرينيه ضاحكة:

- فتاة خرقاء. لا يصبرني عليها إلا إجادتها لإعداد النرجيلة.

بادلها رينيه الضحك ثم نهض يخلع سترته، فبرزت عضلاته من أسفل قميصه الخفيف، وقال وهو يعلق السترة على ظهر المقعد ويمسك الكاميرا ليعدها للتصوير:

- أود فقط أن أتفقد زاوية الكاميرا قبل أن نبدأ.

وضع الكاميرا على كتفه، وأغلق عينه اليسرى ليتفقد الزاوية بالعين اليمنى.

في الكادر، كان أحد الحارسين خلف آبا، والآخر يقف وراء رينيه.

سألته آبا بدلال وغنج:

- أيجب أن أعدل شيئًا في هيئتي؟

- جمالك وأناقتك يطغيان على الكادر يا سيدة لينمان، أنتِ مثالية كما أنتِ.

ضحكت، ثم قالت:

- بالمناسبة، يمكنك التحدث بالعبرية إن كان هذا أريح بالنسبة إليك.

ابتسم رينيه، وسألها بالعبرية:

- كيف عرفتِ أنني أجيدها؟

- ليفي اسم عبري أصيل، معناه المرتبط بي.

- هذا كان اسم أحد توأميكِ المتوفيين، صحيح؟

- أجل. كانا ديفيد وليفي. بمناسبة العبرية، لا يجوز أن تنهي زيارتك لأورشليم من دون أن تعرج على حائط المبكى، وتضع التماسك بين شقوق جداره. هذا أهم نصر حققته حرب الأيام الستة ليهود العالم.

- أهم من نصر النكبة؟

انكمشت ابتسامة آبا، وقد لاحظ رينيه ذلك من خلال الكاميرا.

أبقى الكاميرا مثبتة على كتفه، ورفع العدسة قليلاً صوب الحارس الذي يقف خلفها.

سألته آبا:

- تقصد حرب الاستقلال؟

- أهذا الاسم الذي تفضلينه؟

- هذا الاسم الذي يفضله أي يهودي مخلص لقضيتنا. يبدو أنك لم تذاكر تاريخك جيدًا.

- يكفي مذاكرتي لتاريخك أنتِ يا آبا. أمي لا تتحدث عن أحد غيرك. آبا لينمان التي ساعدت يهود ألمانيا على الهجرة إلى فلسطين، آبا لينمان التي نجت من الموت في معسكر اعتقال

نازي، آبا لينمان التي اخترقت المجتمع اليهودي في مصر، آبا لينمان صائدة النازيين المختبئين في أمريكا اللاتينية. آبا لينمان التي تزوجت عمي، ثم قتلت شقيقتي أمام عينيَ.

ضغط رينيه على زر تشغيل الكاميرا فخرجت رصاصة استقرت في رأس الحارس الواقف خلف آبا وسقط ميتًا.

همَّ الحارس الذي يقف خلف رينيه أن يخرج مسدسه، لكنه تفاجأ برصاصة قادمة من خلفه، كانت مطلقتها إيفا التي خرجت من المطبخ حاملة مسدسًا صغيرًا ملحقًا بكاتم صوت.

أصيب الحارس بطلقة في كتفه، وتفادى الطلقة الثانية التي كانت ستصيب رأسه واستدار ليصيب إيفا.

التفت رينيه في الوقت المناسب بكاميرته، وأطلق منها رصاصة أخرى أصابت الحارس في مقتل قبل أن يطول إيفا.

أنقذ رينيه شريكته في هذه العملية، ولكنه لم ينتبه إلى أن آبا نهضت وسحبت من فخذها خنجرها المفضل وانطلقت صوبه لتطعنه، ولولا أن إيفا جذبت رينيه صوبها لتحميه لكان أصيب في عنقه، لا كتفه فحسب.

نفرت دماؤه فصرخت إيفا وانشغلت بمعاينة جرح شريكها، بينما انسلت آبا من بين الشابين اليافعين والذعر ينهشها في أثناء ركضها إلى الممر المفضي إلى باب المطعم الخلفي.

فتحت الباب وهمت أن تخرج لتفر من اغتيال حتمي، لكنها رأت أمامها آخر مَن توقعت رؤيته يسد طريق نجاتها وفي يده مسدس.

كيف لم تنتبه له منذ أن لمحته جالسًا في مقعد السائق بالشاحنة الصغيرة؟

هل لأن قبعة الكاوبوي الأمريكية التي يرتديها شتتتها، أم لأن لحيته الكثيفة أخفت طابع حسنه، أم لأنها لم تتخيله قَطُّ بذيل حصان وسترة جلدية وكنزة بنفسجية فاقعة؟

لم يتغير كثيرًا، ما زال شعره كثيفًا حتى لو أقمر وتخللته خصلات

بيضاء لامعة، ما زالت عيناه عسليتين تأسران قلبها، وما زال إلياس المقدسي يشبه كاري جرانت.

لم يقل شيئًا، اكتفى بضرب أنفها بكعب مسدسه فسقطت أرضًا.

نفرت الدماء من أنفها الذي لا بد أنه كُسر من تلك الضربة المباغتة، فبقيت على الأرض تضغط على منخارها لتوقف النزيف، وهي تراه يدخل المطعم ويوصد الباب الخلفي بمفتاح يضعه في جيبه.

اقترب منها يجذبها من شعرها ليسحلها إلى داخل المطعم، لكنه تفاجأ بأنه انتزع شعرها المستعار عن رأسها.

ألقى شعرها المستعار على الأرض فرآها تنظر إليه، تلمع عيناها بدموع منكسرة، قابلها بابتسامة شامتة.

جثا يتأمل هيئتها، زينتها الفجة التي لا تناسب تجاعيدها، رموشها الصناعية، حاجبيها المزيفين، لا يدري إن كانت دميمة هكذا منذ رآها أول مرة، وأن حبه لها هو الذي زيف جمالها في عينيه، أم لأنه صار يراها الآن على حقيقتها كسفاحة وناهبة ديار لم يعد يبصر فيها الحسن الذي أوقعه في شباكها.

راقبها تزيف دموعها، وهو يقول:

- يبدو أن الزمن كشف قبحك يا آبا.

- متى خرجت من المعتقل؟

- هذا الصباح. رجالك لم يخبروك؟

- لم يعودوا يشركونني في أي شيء.

- تخلوا عن خدماتك الجليلة؟

- بل تخليت عنهم بكامل إرادتي. تخليت عن العمل السياسي كله، وهم قبِلوا استقالتي من دون تردد.

- ولِمَ يرفضونها؟ أتحسبين نفسك عبد الناصر في زمانه؟

قبض على كفيها وجذبها بعنف إلى صالة المطعم، حيث جثتا الحارسين، وحيث تجثو إيفا لتضغط على جرح رينيه الذي أخذ يلعن بلهجته الفلسطينية الأصلية:

- يلعن تاريخها، ويلعن الساعة التي خلقت فيها ابنة الملاعين هذه.

قال إلياس لرينيه:

- أخبرتك بألا تدير ظهرك لها يا ميلاد. ستقدر على إكمال المهمة؟

- نعم. فقط دعني آخذ روحها بنفسي يا عمي و...

- ليس بعد!

دفعها إلياس حتى قدمَي بيانو ستينواي الأسود، وأسند ظهرها إليه وهو يضع يديها خلف ساق البيانو، ثم قيدهما بأغلال أخرجها من جيبه.

حاولت آبا أن تسيطر على ذعرها وتؤجل موتها قدر المستطاع، فقالت:

- ما زلت تبهرني يا إلياس. كيف دبرت لاغتيالي في يوم واحد؟

- هذا من تدبير الشباب، أنا ضيف شرف فحسب.

- الشباب! كيف لم أنتبه إلى أن رينيه بالفرنسية تعادل اسم ميلاد في العربية. هل كل آل المقدسي بهذا الذكاء؟

دفع ميلاد يد إيفا آخذًا منها مسدسها واندفع صوب آبا وهو يصيح:

- كانت ريتا لتصبح أذكى مني مائة مرة لو لم تقتليها أيتها العاهرة الـ...

قطع إلياس الطريق بين ميلاد وآبا ودفعه، وهو يصيح فيه:

- ميلاد! لا تدعها تستفزك. تعالي يا فاطمة. فتشيها.

هكذا عرفت آبا أن إيفا التي عُينت في المطعم منذ شهر لتعد لها النرجيلة كل ليلة، ليست يهودية بولندية كما ادعت، بل عربية مسلمة تُدعى «فاطمة».

أتت فاطمة تفتش آبا تفتيشًا ذاتيًا دقيقًا، فأخذت مسدس بريتا الصغير المربوط بفخذها، انتشلته منها كما انتشلت الخنجر الذي طعنت به ميلاد.

سألتها آبا بالنبرة والابتسامة المستفزة نفسها:

- كم كبرتِ يا حلوة. أنتِ فاطمة بنت نصر الله، صحيح؟

- وشقيقة عمّار.

صفعتها فاطمة بغلٍّ أطاح برأسها إلى أقصى اليمين، فانغرست أسنانها في شفتها السفلية، وسمعت طنينًا طفيفًا، لكنها لم تمسح ابتسامتها المستهزئة والمستفزة عن وجهها.

سألتها فاطمة بالغضب نفسه:

- هذا الخنجر الذي قتلتِ به العم جريجور؟

- هو بعينه.

وضعت فاطمة يدها على فم آبا لتكتمه، ثم غرست الخنجر في فخذها.

خرجت صرخات آبا مكتومة، بينما يقول إلياس بغضب:

- يا إلهي! كم مرة سأطلب منكما ضبط النفس؟ ستفشلان المهمة يا أولاد!

أخذت الخنجر من فخذها، ثم قالت:

- دعونا ننتهِ من هذا الأمر قبل أن أخنقها بيدَي.

- ماذا تريدون مني؟

أجابها ميلاد:

- قتلك.

- ماذا تنتظر إذن؟ مَن منكم سيطلق الرصاص عليَّ؟

كان إلياس سيجيبها، لكنه انتبه لكتاب في المكتبة المجاورة للبيانو. ليس أي كتاب، إنه نوفيلا «قلب الظلمات» لجوزيف كونراد، وليست أي نسخة منها، يعرف هذه النسخة الشخصية بتغليفها الجلدي الأخضر وبعنوانها الإنجليزي الملون بالذهبي.

يعلم أن صفحة عنوانها مختومة بختم أزرق يحمل اسم صاحبها، ويحفظ الإهداء المكتوب عليها، ويعرف أن الجزء السفلي من صفحتها الأخيرة مثني.

أسرع نحو المكتبة وانتشل النوفيلا. فتحها ليدرك فاجعة لم تكن

على البال ولا على الخاطر، الصفحة الأولى التي تحمل ختم مكتبة المقدسي انتزعت من الكتاب عن عمد.

ترك النوفيلا على الطاولة المجاورة للمكتبة، انتشل كتابًا آخر من كُتب أبيه، فوجد الأمر نفسه، كل صفحة تحمل أثر ملكية أبيه من ختم أو إهداء مُزقت ومُحيت كأنها لم تكن يومًا.

لم يدرِ ماذا يقوله ميلاد وفاطمة لآبا أو كيف استفزتهما حتى صاحا فيها، كل ما يدريه أنه وجد نفسه يسب آبا وقومها بأبشع الألفاظ، ويركل وجهها وبدنها بأقصى قوته، إلى درجة أن ميلاد وفاطمة بدآ يفرقان بينه وبينها، حتى لا تموت قبل أن يتموا العملية.

* * *

استيقظت آبا بعد أن فقدت وعيها من فرط ضرب إلياس لها.

لم يحاول ضربها، لأنها اعتقلته خمسة وعشرين عامًا في السجن الانفرادي، ولا لأنها قتلت عائلته، ولا لأنها سرقت داره وصهينت مطعم أسرته المفضل، ضربها ضربًا مبرحًا كان سيودي بحياتها فقط لأنها محت ذكر أبيه من كتبه.

نظرت حولها، كان ميلاد يتأوه من جرح كتفه وهو ينتقي كتب جده من أرفف المكتبة المختلطة التي وضعت فيها كتب آل المقدسي المنهوبة مع كتب مثقفي الصهاينة الآثمة.

رصّ ميلاد الكتب في صفوف متساوية، بينما بقي إلياس على الكرسي المقابل لآبا، وقد احمرّت عيناه غضبًا، تجاوره فاطمة لتناوله كوب ماء وتربت على كتفه قائلة:

- ستختمها مجددًا. المهم أنك استرددتها يا عمي.

انتبه إلى أن آبا فتحت عينيها، فسألها:

- أين الصور والمذكرات؟

تأوهت وتظاهرت بأنها لم تفِق بعد، فسكب على وجهها كوب الماء البارد.

تلفتت حولها، الأبواب موصدة، الستائر مسدلة، الشارع خالٍ، فقد

سورت الطرق المؤدية إليها بحواجز معدنية وقطعت كل السبل التي توصل إلى مطعمها، ظنًّا منها أن في ذلك أمنها، لم تكن تعلم أن تلك التحصينات التي تعزلها عمن حولها ستكون مثالية لهلاكها من دون حتى أن يُنتبه لها.

ازدردت ريقها، وقالت بصوت واهن:

- أهكذا تقضي يومك الأول حرًّا؟ تدبر عملية حمقاء ستقودك إلى المعتقل مرة أخرى؟

- وعدتك بأن أول ما سأفعله حين أخرج هو قتلك، ووعد الحر دين.

- لهذا جعلت اللقاء هنا، حيث بدأ حبنا؟

- بل حيث بدأ خداعك وحيث سينتهي. أين صور كيراز وإيلي؟

- أجهل عما تتحدث.

- ستخدعينني كما خدعتِ المجتمع الدولي؟ ستقولين إن أخاك مات في أمريكا في مشفى الأمراض العقلية، وإنه لم يأتِ إلى القدس من الأساس؟

- لست غبية حتى أظن أنك ستصدق ذلك. لكني لا أملك الصور ولا المذكرات، كانت مع تلك الصحفية الجزائرية الفرنسية نفيسة عثمان حتى ماتت.

- حتى أمرتِ باغتيالها.

- سيان. المذكرات والصور مع اليهودي الذي سربها لها.

توقف ميلاد عن رص الكتب، وصاح فيها بغلٍّ:

- كفى كذبًا! بمجرد أن وجد رابين الصور في شقة أفراهام القديمة وأرسلها إلى نفيسة، قمتم باغتياله قبل حتى أن تُنشر في فرنسا.

- ضع نفسك مكاني يا صغير. يهودي يخون مجتمعه ويتعاون مع العرب. ألا يحق لنا اغتيال خائن مثله؟

- وابنته ذات الأعوام الأربعة هي الأخرى خائنة تستحق الاغتيال؟

- هو الذي وضعها معه في سيارته المفخخة. كانت مصادفة.

- كمصادفة اغتيال غسان كنفاني وابنة شقيقته؟

استشعر إلياس أن الحديث يطول عن المخطط له، شد أجزاء سلاحه ووجهه صوب آبا وقال:

- أين تحتفظين بالصور والمذكرات؟

- كانت مع نفيسة و...

- كل ما تملكه نفيسة من مستندات ووثائق سُرق من شقتها في باريس بعد أن أفرغ عميلك رصاصه في رأسها. لن أظلمك إذا خمنت أن عميلك أعطاكِ كل ما تملكه. صحيح؟

- حسنًا يا إلياس. تخمينك في محله. ولكن ماذا ستفعل حين تسترجعها؟

نهض يحضر الهاتف من على مكتب المضيف ويجر سلكه حتى مكان آبا، ثم قال وهو يناولها إياه:

- من معرفتي بكِ. لا أظن أنكِ تخبئينها في مكتبك، ستحذين حذو معلمك الأول أفراهام، تحتفظين بها لنفسك لتساومي الموساد أو الدولة على شيء تطمعين فيه إذا استدعى الأمر. أظن أنكِ خبأتِها في الدار، في مكان له دلالة نفسية عندك. دعيني أخمن، خبأتِها في البيانو اللعين الذي أضفتِه إلى داري؟

- إن كنت تشك أن المخبأ في الدار، فلماذا لم تقتلني في الدار؟ لماذا استدرجتني إلى هنا؟

- لأن صاحب الدار لن يفجرها حتى وإن كان سيحرم منها.

جحظت عيناها، واعتدلت في جلستها تقول:

- ماذا تقصد بـ«يفجرها»؟

تلفتت حولها فوجدت نظرات الشماتة والنصر على وجهَي ميلاد وفاطمة، تمامًا كما هي على وجه إلياس الذي أخرج من جيبه ساعة أبيه الذهبية ذات السلسلة اللامعة، نظر إلى الوقت فيها، ثم أعادها إلى جيبه بابتسامة هادئة.

عجزت عن التظاهر بالهدوء والخبث لأطول من ذلك، صاحت تسأله:

- أنت فخخت المطعم؟

- كلمي حراس الدار، أخبريهم بأنكِ سترسلين إيفا لتحضر لك بعض الأغراض من أجل هذه المقابلة حتى لا يعترضوا طريقها. لو عادت فاطمة سالمة ومعها الصور والمذكرات سأبطل هذه القنبلة.

- أي قنبلة؟ كيف أعرف أنك لا تخادعني؟

- أتذكرين أيوب؟

- لا تضيع الوقت. أين القنبلة؟

صمت وأخذ يراقب ميلاد وقد انتهى من اصطفاء كتب جده من المكتبة التي لم يعد بها سوى الكتب العبرية والصهيونية.

طال الصمت ففهمت آبا أن لا مفر من هذا المأزق سوى بمجاراة حكايات ألف ليلة وليلة التي يقصها إلياس عليها.

زفرت وقالت:

- آخر ما عرفته عن أيوب أنه رافق والدَي جاسر إلى حلب لبضع سنوات، ثم عاد إلى مصر فور أن انجلى عنها الإنجليز.

- برافو آبا. حين عاد إلى بلده اكتشف أن ابنته تزوجت وتقيم في الشرقية، فذهب ليعيش معها ومع ابنتها وحتى ابنة ابنتها التي اختار لها اسمها شريفة. شريفة كانت لعوبًا، تكره المدرسة، لكن في الثامن من نيسان أخذها جدها بنفسه وجذبها من يدها حتى أوصلها إلى المدرسة التي كانت تود الهرب منها والذهاب للعب في الترعة. ما من سويعات حتى عاد أيوب إلى المدرسة عاجزًا عن تفريق أشلائها من أشلاء رفاقها، لأن زملاءك الأنجاس قصفوا مدرسة بحر البقر، فمات أيوب بالسكتة القلبية بعد موت ابنة حفيدته بساعات.

- ما دخلي بتلك المأساة يا إلياس؟ عملي لا يتعلق بالحرب.

- وهل الموساد جمعية خيرية؟

- هل ترى في ترهيبي وفي عنفك أنت وهذين الطفلين مخرجًا من أزمتكم يا إلياس؟

- استوطنتمونا بالرشاشات والدبابات والمدافع، أتريدوننا أن نقاومكم بالزهور؟

- أين القنبلة؟

- دعينا لا نحِد عن الحديث، كنت أذكرك بأيوب لأن في الزقاق المسدود خلف هذا المطعم منذ ستة وعشرين عامًا، قال لي إن مَن يفخخ مكانًا فهو صاحب قضية، ومَن يلبس حزامًا ناسفًا، فهو صاحب ثأر شخصي. وأنا بيني وبينك مائة ثأر شخصي يا آبا.

رفع ساق سرواله ليريها أصابع الديناميت الملتفة حول رجله، وبها مؤقت يعد عدًّا تنازليًّا قبل أن يصل إلى ساعة الصفر ويفجر المكان بمن فيه.

ابتسم منتشيًا وهو يرى لمعة الخوف تبرق في عينيها الذابلتين فأخرج سيجارة يدخنها، وهي تصيح:

- أيها الأحمق! ستموت أنت وهما معي!

- بما أنك قطة بسبع أرواح، قررنا أن نوصلك شخصيًّا إلى الجحيم.

- أليس هذا محرمًا في دينك؟ ستحرم نفسك من صلاة التجنيز من أجلي؟

لم يعلق. مد يده صوبها مرة أخرى بالهاتف وهو يضم السيجارة بين شفتيه، ويقول بسكينة:

- الخيار خيارك.

ظلت تحملق إلى العداد الذي تقل أرقامه، ثم قالت:

- الصور والمذكرات مزروعة داخل البيانو في الصالة تمامًا، كما زرعنا قنبلتنا في بيانو يوسي.

ابتسم مستهزئًا بمحاولتها المثيرة للشفقة لاسترداد ذكرى ليلة قبلتهما الأولى، الليلة التي أدرك فيها أنه يحبها، وأدركت هي أنها نجحت في مهمتها.

طلب رقم الدار، بينما أتى ميلاد ووقف بجوار آبا موجهًا مسدسه نحو رأسها ليرديها قتيلة في حالة أصدرت أي إشارة تحذيرية إلى

حراسها.

أبقى إلياس السماعة على أذنها، وأنصت جيدًا لكل كلمة قالتها بالعبرية للحارس بنبرة عادية لا تشي بالمأزق الذي وقعت فيه.

انتهت المكالمة، أغلق الخط، انتشلت فاطمة المفتاح من حقيبة يد آبا، بينما أخرج ميلاد مفتاح الشاحنة، وإلياس ينظر إلى ساعة أبيه مرة أخرى، ويقول لهما:

- أمامكما ساعة واحدة.

وضع ميلاد سترته ليخفي آثار الدم على قميصه موضع جرحه، وهرول هو وفاطمة إلى الشاحنة بعد أن أعادا غلق الباب الخلفي بالمفتاح.

أبقى إلياس الهاتف بجوار كرسيه على الأرض، واستأنف تدخين سجائره وهو يراقب آبا تنظر إليه شزرًا بعد أن سقطت في فخه.

أخذت تتحرك متأففة من قيدها، حتى صاحت:

- والآن ماذا؟ أتظن أن هذه الصور ستحرر فلسطين؟

- إن لم تحررها، على الأقل ستفضحكم أمام العالم.

- وألا يعرف العالم ما يصير هنا؟

- أن يسمعوا الحكاية منا شيء، وأن يروا صورًا حقيقية لهو شيء آخر.

- يا لك من ساذج أحمق مثلك مثل كيراز وإيلي! مر ربع قرن وما زلت تؤمن بالعدالة العالمية والمجتمع الدولي؟! لقد زرعونا وسطكم لنصبح قنبلة لاستخدامهم الشخصي، سيفجرونها متى أزعجتموهم. كم مرة يجب أن تهزم حتى تصدق أن لا أحد يبالي بمصائر مَن يعيشون في هذه البقعة من العالم؟

- إن كانت نظريتك صحيحة، فالعار على العالم، والمجد لنا لأننا على الأقل حاولنا.

- وكيف سيعرف العالم أنك حاولت إذا مت معي وامتزجت أشلائي بأشلائك؟

- الأولاد سيتولون مهمة إخبار العالم.

تأمل العداد التنازلي للقنبلة الملفوفة حول ساقه، ثم نهض يضع كتب أبيه في أكياس ورقية موضوعة خلف البار.

صاحت آبا تترجاه ألا يبتعد وهي تقول:

- أعلم أنني آذيتك يا إلياس، لكن يجب أن تكون ممتنًّا لأنني لم أسمح لأي شخص أن يلمسك في المعتقل طيلة فترة عملي بالموساد. كنت أعطيك الكتب لتسلي وحدتك. أحرص على أن يُقدم لك طعام نظيف. ألم تكن تسمع صراخ باقي زملائك؟ لم تعِش ما عاشوه بفضلي.

تدبر دناءة جملتها حتى أتته تلك الحركة اللاإرادية التي تصيبه كلما سمع شخصًا يصرخ من فرط العذاب. رجفت عيناه، واهتز رأسه إلى اليمين بغير إرادته وتشنج وجهه.

ظل على تلك الحالة لثوانٍ حتى استعاد سيطرته على ملامحه، وقبض على يده حتى لا يقتلها بقبضتيه في هذه اللحظة؛ ثأرًا لكل معتقل سهر الليالي يسمع صراخه وأنينه لربع قرن.

كاد صمته يفقد آبا عقلها، أخذت تثرثر من دون توقف، مرة تترجاه ألا يقتلها، مرة تحاول إقناعه بأن لا طائل من أن يُفجر نفسه، مرة تهدده، مرة تسبه حتى خارت قواها مع مرور الدقائق وأرهقها الصياح والمجادلة.

بقي إلياس يدخن سجائره ويقرأ نوفيلا «قلب الظلمات»، حتى كاد ينهيها حين سألته آبا:

- كم دقيقة تبقت حتى تنفجر القنبلة؟

تفقد ساعته.

- دقيقتان.

- لماذا تأخرا؟ فعلت ما طلبتموه و...

قاطعها رنين الهاتف، فأشرق وجهها وهي ترى إلياس ينتشل السماعة بخفة من دون أن ينطق. أنصت للمتحدث لثلاثين ثانية،

ثم هز رأسه مبتسمًا، وقال:

- أحسنتما!

أغلق الهاتف، فسألته متلهفة:

- نجحا؟

شمر سرواله وانشغل بفك أصابع الديناميت فسألته:

- ستتركني؟

- وعدتك بأن أفك القنبلة التي حول ساقي وقد علمني سفيان ألا يخالف العربي وعده ولو أمام الصهاينة.

- لن تقتلني؟

فك القنبلة وألقاها في حجرها فانتفضت قلقًا من ألا يكون الديناميت مستقرًا فينفجر فيها.

صفر بلحن مقدمة أغنية محمد فوزي «طير بينا يا قلبي»، وحمل حقائب الكتب فصاحت فيه:

- هلّا فككت الأغلال؟

بدأ يدندن كلمات الأغنية بصوت عذب، حتى انتهى من حمل كتبه كلها، واستعد للخروج من المطعم، فصاحت:

- إن كنت تقلق من أن أبلغ عنك قبل أن تهرب، يمكنك أن تخدرني قبل أن تفكني مثلما فعل أيوب في لقائنا الأول. ثم تهرب.

كاد يخرج، لكنه تذكر شيئًا فتوقف عن الغناء، وعاد ليقف أمامها ويقول:

- أتدرين. الاعتقال الانفرادي يعطيكِ كثيرًا من الوقت لإعادة تحليل الماضي، بما أنه لا مستقبل تتطلعين إليه ولا حاضر يشغلك. بفضل هذا الفراغ الخانق، أدركت أنكِ لم تغويني وقت النكبة فحسب. إغواؤك لي أقدم من ذلك بكثير يا آبا. أنتِ الفتاة التي كانت تكتب فوق شجرة البرتقال يوم حاول أبي استرداد مكتبته فمات بسبب إعجابي بكِ. تلك التفصيلة جعلتني أدرك أنكِ أقمت في دار أبي المنهوبة أكثر مني يا بنت اللصوص. لذلك، لا

يجوز أن تطول إقامتك فيها أكثر من ذلك. إنها بداية النهاية يا آبا.

ألقى تلك الجملة، ثم خرج يغني، وأوصد الباب خلفه بالمفتاح.

ظلت تنظر إلى القنبلة الملقاة في حجرها، كانت غريبة الهيئة.

خبيرة سلاح ومتفجرات مثلها لم تحتج إلى أكثر من ثلاث ثوانٍ حتى تدرك أنها قنبلة مزيفة لها عداد ديجيتال يتكتك من دون جدوى.

أدركت مدى غبائها، كيف سيطر عليها الذعر حتى خضعت لأمر إلياس تحت تهديد لعبة بلاستيكية ركيكة الصنع.

ضحكت على حماقتها، لكنها استعجبت كيف ما زالت تسمع صوت تكتكة القنبلة على الرغم من أن إلياس ضغط على الزر الذي أطفأ عدادها؟

* * *

سار إلياس إلى آخر الزقاق الضيق المظلم حاملاً حقائب الكتب، وهو يغني بغبطة لم يعرفها منذ خمسة وعشرين عامًا.

ملأ روحه بأريج القدس، رائحة حجارة الديار المقنطرة، عبير الحنون في الجو، نسيم السحب المتكاثفة التي تعلن عن أمطار قادمة.

كان حرًّا، يسير على بلاط القدس وأسفل قباب ديارها من دون أن يحمل رقمًا أو أن يُنادى بالمسجون. له حرية أن يركض، يهرول، يجلس، يقرفص أو حتى يزحف إن أراد.

استمتع بكل تفصيلة قابلته وهو يسير في شوارع وطنه، حتى وإن اضطر إلى أن يحمل هوية يهودية زرقاء مزيفة ليتمكن من أن يخطو إلى مدينة أجداده، لكنه على الأقل، رأى سماء القدس من دون قضبان ولو لمرة أخيرة.

وصل بمعنويات مرتفعة إلى النقطة التي أخبره ميلاد في الهاتف بأنه سينتظره فيها مع فاطمة في الشاحنة البيضاء.

فتحت فاطمة الباب له، وعاونته على حمل الكتب، فوجد عشرات الكتب الأخرى في مؤخرة الشاحنة، فابتسم ابتسامة أوسع

من ابتسامة ميلاد الذي أخبره:

- جمعنا ما استطعنا. لو أخذنا أكثر من ذلك لأثرنا ريبة الحارس.

- خيرًا ما صنعت يا ابن أبيك.

وضع إلياس الكتب التي جمعها بدوره، ثم ركب السيارة. أغلقت فاطمة الباب، وانطلق ميلاد يقود مبتعدًا عن المطعم.

سأله إلياس وهو يخرج ساعة أبيه من جيبه:

- ماذا طبخت غيدا لنا؟

- مقلوبة زهر من دون لحم. لا يوجد لحم أو دجاج في المخيم.

- فضل ونعمة.

انتبه ميلاد لمراقبة إلياس للوقت، فسأله:

- متى ستهديني ساعة جَدي؟

- لن تأخذها حتى وإن مت. لعنة هذه الساعة ستموت بموتي.

باقٍ عشرون ثانية.

قال ميلاد وهو يتفقد المرآة الخلفية:

- أتظن أنه سيأتي وقت نتمكن فيه من استرجاع مكتبة جدي كلها؟

- لا أظن، بل أنا واثق بذلك ولو بعد حين.

إنه ميعادها!

بين الكتب العبرية في المكتبة بالمطعم، استغل الرفاق أن آبا فقدت وعيها من فرط ضرب إلياس لها ودسوا فيها قنبلتهم التي خبأوها في رأس استاند الإضاءة الذي دخل به ميلاد من دون أن يُكشف في أي نقطة تفتيش.

ودَّ ميلاد أن يدسها في البيانو كما فعلت آبا مع يوسي، لكن إلياس رأى أن وضعها في تلك المكتبة التي تتظاهر بتعايش كتب العرب المنهوبين مع الصهاينة الناهبين على رف واحد، هو أقوى إشارة لنبذ التطبيع، كما يليق بنهاية رواية ملحمية درامية.

هكذا استخدم القنبلة المزيفة حول ساقه لتغطي على تكتكة القنبلة

الحقيقية التي انفجرت الآن.

سمعوا دوي انفجارها بعد أن ابتعدوا بما يكفي، فصفقوا وهللوا، وزغردت فاطمة، وقد نجحت أول عملية يشترك فيها إلياس مع ابن أخيه وابنة رفيقه الشهيد.

غنَّت فاطمة بصوتها الذي لا يقل عزيمة عن صوت فيروز في هذا المقطع من «زهرة المدائن»:

الغضب الساطع آتٍ
الغضب الساطع آتٍ
الغضب الساطع آتٍ
وأنا كُلي إيمان
الغضب الساطع آتٍ
سأمرُّ على الأحزان

ردد معها ميلاد وإلياس ودموع الغبطة تهرب من أعينهم، مهددين بغضبهم الساطع الآتي الذي سيمر على كل الأحزان ويقتص من كل المجرمين.

يا لها من ليلة أولى سعيدة خارج المعتقل، ليلة قد يموت المرء بعدها بضمير مرتاح.

نُسِفَ مطعم زهرة إسرائيل الذي يزعم الصهاينة أنهم حرروه من قبضة الإنجليز حين كان يُسمَّى شقائق نعمان القدس.

ولكن الحُر الذي لم يسمح للمستوطن بتخريب ذاكرته وتشويه تاريخه، يعرف أنه في البدء كان ملكًا لفلاح فلسطيني أتى من الجليل ليفتح مطعمًا في القدس يحمل اسم نبتة زوجته المفضلة، حنون القدس، ومن نسي ذلك فقد خان.

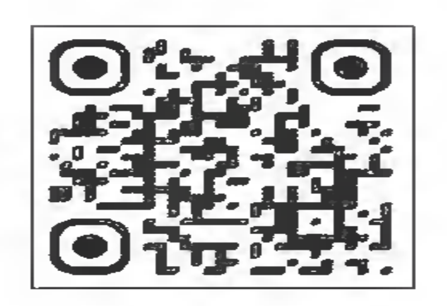
كي لا ننسى

وفقًا لمؤسسة الدراسات الفلسطينية، واقتباسًا من الباحث والمؤرخ وليد الخالدي، فقد دمرت الميليشيات الإسرائيلية المسلحة وجيش الدفاع الإسرائيلي ٤٧٢ قرية فلسطينية خلال النكبة، وهجّروا قسريًّا أكثر من ثلاثة أرباع مليون فلسطيني، مخلفين وراءهم ممتلكاتهم، وشهداءهم المدنيين، وأطلال ديارهم التي لم يبقَ منها إلا أشجار التين الشوكي الذي كان الفلسطينيون يسورون به حدود ديارهم وأحواشهم، فإن رأيت التين الشوكي في مستوطنة إسرائيلية، فاعلم أن هنا كانت حياة فلسطينية ودار أُبيد سكانها الأصليون.

بعد أن تنتهي من قراءة هذه الرواية مثقلاً بهموم أبطالها وتعاسة مصائرهم، تذكر أن ما جاء فيها من جرائم وفظائع ارتكبت ضد أخيك الإنسان، لا يساوي مثقال ذرة مما كابده إخواننا الفلسطينيون منذ وعد بلفور وحتى لحظة قراءتك لهذه الأسطر.

القاهرة - ١٨ أغسطس ٢٠٢٤

للاطلاع على المصادر التاريخية والأكاديمية التي استعنت بها في كتابة
هذا العمل يمكنك مسح الكود الآتي:



شكر وعرفان

ميلاني برطميان

مصطفى إبراهيم

كريس ميكائيليان

رافي ميكائيليان

آفيديس كيغام جيغليان

ديفيد براسويل

جورج لاف

زاهر الطائي

سيلفيا يوسف

سومر شحادة

ريم عبد الحميد

سلمى محمد موسى

الكاتبة

وُلدت ميرنا المهدي في حي المعادي بالقاهرة، وتخرجت في مدرسة ليسيه الحرية في المعادي، ثم في كلية الألسن جامعة عين شمس. تخصصت في أدب وترجمة اللغتين الفرنسية والإسبانية. حازت عدة جوائز أدبية من سفارتَي كندا وفرنسا والمركز الثقافي الفرنسي، لتركِّز بعدها في كتابة أدب الإثارة والتشويق.

صدرت لها عدة روايات: «قضية ست الحسن: تحقيقات نوح الألفي - الكتاب الأول»، و«جاز وروك - قائمة أغاني السفاح المثالي»، و«صديقي السيكوباتي»، و«قضية لُوز مُر: تحقيقات نوح الألفي - الكتاب الثاني»، و«دليل جدتي لقتل الأوغاد» (القائمة الطويلة لجائزة كتارا الأدبية)، و«قضية عنب الثعلب: تحقيقات نوح الألفي - الكتاب الثالث»، و«قنبلة للاستخدام الشخصي».

للتواصل مع الكاتبة

Email: mirnaelmahdy.1@gmail.com

Facebook: www.facebook.com/MirnaElMahdyWriter

X: @Mirna_El_Mahdy

Instagram: @mirnaelmahdy

Goodreads: ميرنا المهدي

صور هذا الكود بكاميرا هاتفك

للتواصل مباشرة مع الكاتبة:

